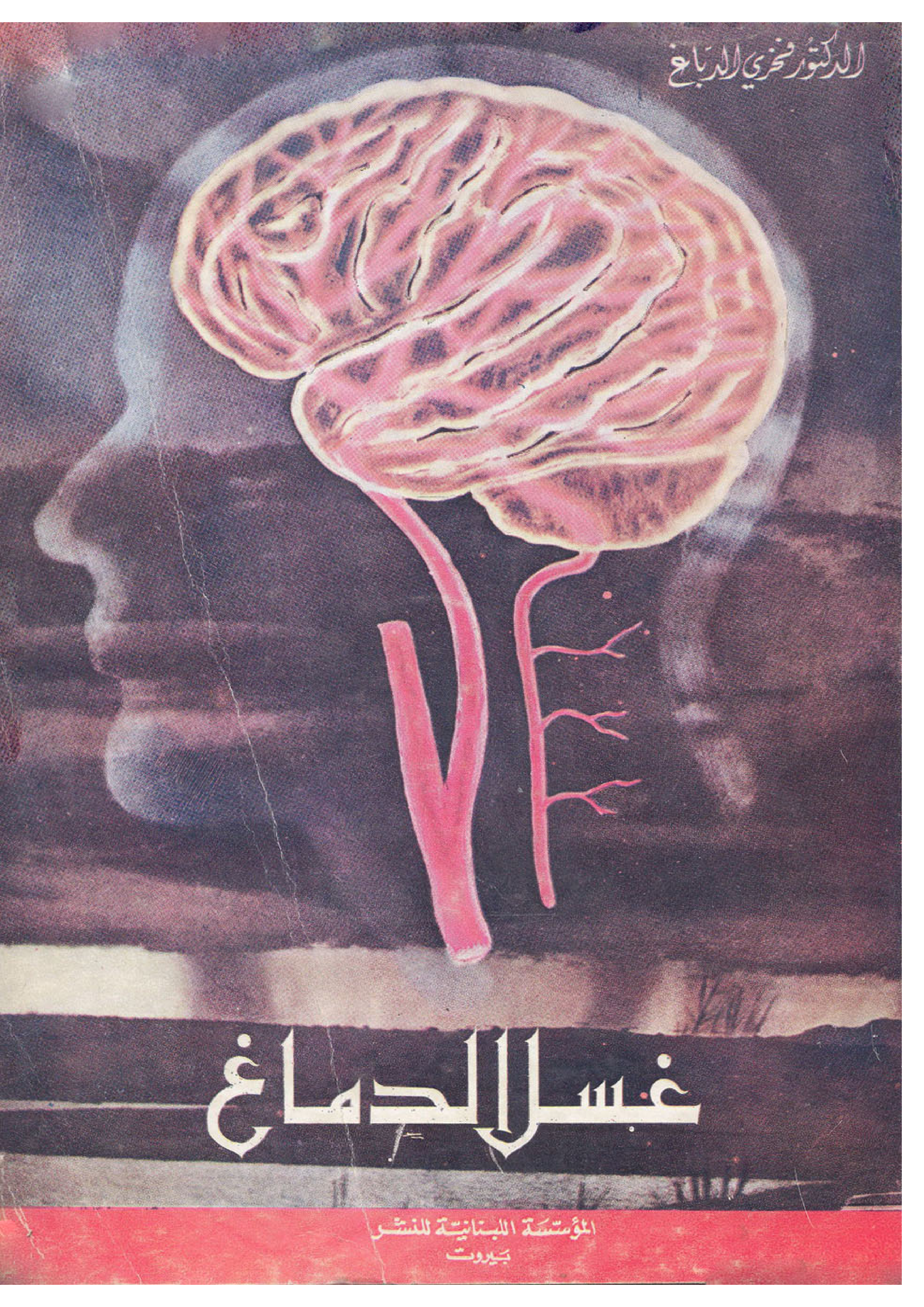

الدكتور فخري الدباغ
غسل الدماغ
المؤسسة اللبنانية للنشر
بيروت

الدكتور فخري الدبّاغ

غسل الدماغ

دراسة نفسية اجتماعية لظاهرة التمذهب وتحويل الاتجاهات

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

مقدمة الطبعة الأولى :

حثتني على تأليف هذا الكتاب دوافع حيوية ثلاثة :

الأول ـ أن يواكب القارىء العربي كل ما يستجد من تطورات الفكر العالمي . وموضوع « غسل الدماغ » الذي تواتر ذكره في النصف الثاني من القرن العشرين ، ونشرت حوله عشرات المؤلفات باللغات الأجنبية ، يعد من الأحداث الفكرية والاجتماعية والنفسية الخطيرة التي تهم الانسان المعاصر ، لأنه هو بذاته موضوع البحث ومادة الحدث ! .

والثاني ـ أن يشعر المثقف العربي بأن الكتاب الذي بين يديه أليف مستساغ ، يمزج الفكر الأجنبي بالفكر والتاريخ العربي دون تكلف ، وألّا يبدو مجرد نقل وأشبه بالترجمة . ولذلك حاولت جهدي أن أقرن الأمثلة والحوادث الأجنبية بأمثلة عربية . ولا أدعي انني قد استنفذت كل جهودي في هذا المجال ، لأنني أشعر أن هناك المزيد الذي يمكن دراسته والاستدلال به من تاريخنا العريق . وفي اعتقادي أن التراث العربي مصدر معطاء للباحثين إذا بذلوا جهودهم المخلصة لاستخراج خباياه واستجلاء كنوزه . ولو قدمت كتابي هذا مستنداً على المصادر الأجنبية فحسب ، لبقي موضوعه ناشزاً غريباً لا يمس عواطف ووجدان الانسان العربي .

والثالث ـ وهو الأهم ، ان الانسان العربي يخوض الآن معركة عقلية ـ نفسية ضارية ضد أعدائه من المستعمرين والصهاينة ، وان من واجب كل مفكر وأديب أن يقوم بالتزامه وينجز حصته من تلك المعركة . وأظن أن موضوع غسل الدماغ وتحويل الاتجاهات هو أحد مواضيع الساعة ، بعد ان هزّت نكبة الخامس من حزيران ١٩٦٧ الوجود العربي وفتحت عيونه على واقعه المرير والمخاطر المحدقة به . ومعركة الاستحواذ على الدماغ تدور في كل ميادين الحياة بصورة عامة ... لكن أخطر معاركه هي التي تحتل (الألف) و (الياء) من قاموس الامبريالية . فقد يربح الاستعمار معارك وقتية بالوسائل العسكرية أو الاقتصادية أو الدبلوماسية ... وقد يستكين الانسان الفريسة (وقتياً)

مقدمة الطبعة الثانية

منذ صدور الطبعة الأولى ـ قبل عشرة اعوام ـ ، وتحليلنا لما ينزع إليه الإنسان المستعمر والغاصب من تسيير اخيه الإنسان لصالحه ووفق مشتهـاه .... ، لم يطرأ أي تغيير جذري ، إذ ما انفك ذلك الإنسان يسعى لاستغلال أخيه الإنسان ، وينقب عن أمكر الوسائل ويستعين بآخر مبتكرات العلوم الحديثة للتأثير في افكاره واتجاهاته والهيمنة على دماغه ... ، ولا تزال فلسطين المحتلة وشعبها العربي المشرد خير مثال على ذلك ...

فإذا لم تتغير النوايا والنزعات .. ، فإن الأساليب والحيل قد طرأ عليها بعض التغيير . وإذا كنا قد استشهدنا بأحداث ومواقف من التاريخ ومن العصر الحديث ، فقد برزت أمامنا حوادث ومواقف أخرى ـ قديمة وحديثة ـ رأيتُ من الضروري إضافتها إلى الطبعة الثانية ، إذ أن الاضافات والتعديلات والشذب والتجديد ضرورية في اعتقادي في الكتب العلمية المنحى والمتطورة ، لأن اعادة الطبع بالنص الأولي لا يصلح الا للروايات والقصص والشعر والأدب والوثائق . وقد وقعت احداث كثيرة خلال العشرة أعـوام الاخيرة . وإذا كانت هزيمة حزيران ١٩٦٧ من حوافز تأليف هذا الكتاب ، فقد تبعتها معركة عظيمة من عبور القناة عام ١٩٧٣ أعادت للعرب شعورهم بالثقة وحطمت اسطورة التفوق الاسرائيلي . لكن النصر ذاك تبعته انتكاسات .. ، فإذا بنا لا نزال في معركة الوجود العربي وفي خضم غسل الدماغ ، لكننا مشبعين بآمال وطموحات اكبر وأبعد ...

وعندما جمعت ما كان بودي إضافته وتعديله ، تراكمت أمامي صفحات تقارب ثلث الكتاب القديم .. ، لذلك وجدت من الأنسب اصدار الكتاب هذه المـرة بقسمين ـ أو جزئين ـ : الأول ، يتناول الجوانب العلمية العامة وما طرأ من تغييرات واضافات وحتى النصف الأول من عام ١٩٨٠ . والثاني ، يتناول انعكاسات وتأثيرات غسل الدماغ على الوطن العربي وما هي آثار ونتائج معركة الفكر على الوجود العربي ومستقبل الأمة العربية . وقد شجعني على هذه الخطة ما تجمّع لديّ من حقائق وتطورات خطيرة منذ عام ١٩٧٠ (تاريخ صدور الطبعة الأولى) ـ وحتى اوائل ١٩٨٠ ، إذ وجدت أن الأحداث قد

تمهيـــد

تمتلكنا الدهشة أمام العقل الالكتروني والآلات الحاسبة المعقدة والانسان الآلي . لكن الاعجاب يجب أن يحل محل الدهشة .. الاعجاب بالعقل البشري الذي صنع تلك الماكنة المفكرة ، وزودها بتعليمات وشفرة خاصة يتصرف بمقتضاها . إن الدهشة يجب ألا تفارقنا تجاه عقولنا نحن : .. كيف تخترع وتفكر .. وكيف تنسى ثم تتذكر . وفي عوالم الفلسفة والعقل والنفس ، متاهات لا نهاية لها ، وغوامض لا تفسير لها ، وأسرار لا عد لها عن كيفية عمل الماكنة البشرية . لكن إذا شئنا التبسيط .. وجدنا أن في الإنسان تكمن شفرة أخرى وانها مغروسة في كل خلية فيه ، وانها ترسم له الطريق وترسل له التعليمات الدقيقة . ونحن لا نعرف إلا النزر اليسير عن تلك الشفرة ، إلا أن أبرز ما فيها من تعليمات ذات تأثير مستديم في سلوكنا هي أوامرها التي تقرر صفاتنا الوراثية وتعيد وتكرر صفات الجنس البشري . في تلك الشفرة يكمن سر الخلود والحياة . لكنها شفرة إلهية ، بالغة التعقيد .. لا نعرف منها إلا عدد الكروموسومات ومادتها الأساسية البروتينية (الزلالية) المدعوة بالـ (ديزوكسي نيوكليك أسيد) أي الحامض البروتيني للنواة DNA . أما كيف تتحول المادة البروتينية الى عواطف وأفكار وسلوك .. كيف ؟؟ فهو ما لا ندريه ..

ان آخر ما توصل اليه العقل البشري في بحثه عن نفسه وعن سر الحياة انه تمكن مؤخراً من صنع وتركيب مادة الـ DNA الآنفة الذكر ، واستحق مخترعها : العلامة الدكتور (آرثر كورنبرج) وجماعته[1] جائزة نوبل في العلوم لسنة ١٩٦٧ . وقد فتح هذا الاختراع للإنسان آفاقاً شاسعة في علم الوراثة والسلوك والأمراض . فالمادة المخترعة لها قابلية حيوية لغزو الخلايا كقابلية الرشوحيات (الفيروسات) ، أو بمعنى آخر .. أصبح بمقدور العلم إحداث تغيير ما في شفرة الحياة . إلا أن الدرب شاق وطويل ، وربما أزلي

---

(١) الدكتور آرثر كورنبرج من كلية الطب في جامعة (ستانفورد) الامريكية ، بالاشتراك مع زميليه : الدكتور (مهران كوليان) من جامعة شيكاغو ، والدكتور (روبرت زينشايمر) من جامعة (كالتيج) .

الولايات المتحدة الأمريكية قد اتخذوا اتجاهاً جديداً ضد وطنهم . ومن بين ٩٨٠ أسيراً انجليزياً تحول ٤٪ منهم فقط إلى المبادىء الاشتراكية وكانوا متهيئين لتقبل المبدأ منذ وجودهم في انكلترة . ولم تعتبرهم الحكومة البريطانية خونة أو متآزرين مع العدو . إلا أن جميع الأسرى الأتراك لم يكتسبوا مبادىء جديدة أو اتجه تفكيرهم إلى نـواحٍ اخرى . وسنأتي على تفاصيل ما جرى في الحرب الكورية في فصول قادمة .

كانت تلك الظاهرة هي الأولى من نوعها في تاريخ الحروب البشرية ، وغدت مثار دراسة واهتمام وتنقيب شديد من قبل المسؤولين الأمريكان . وكان ان خرج الصحفي الأمريكي هنتر باصطلاح غسل المخ كوصف لهذه الظاهرة الفريدة ، وعنى بها : « المحاولات المخططة ـ أو الأساليب السياسية المتبعة ـ من قبل الشيوعيين لإقناع غير الشيوعيين بالإيمان والتسليم بمبادئهم وتعاليمهم » . وقد اشتق هنتر اصطلاحه هذا من الاصطلاح الصيني (Hsi nao) ـ الذي يعني : « تنظيف المخ » ، وذلك بعد أن حصل على معلوماته من مخبرين صينيين على أثر انتهاء الحرب الكورية . وهكذا اقترن اصطلاح غسل الدماغ بالأساليب الكورية ـ الصينية لتحوير أفكار الآخرين وتنقية أفكارهم من الشوائب الغربية البرجوازية . أما الصينيون أنفسهم فقد أطلقوا اصطلاح « تقويم الأفكار » Thought Reconstruction على محاولاتهم تلك ، واعتبروها برنامجاً تثقيفياً عاماً لا يقصد منه العدو أو الأجنبي لأنه جزء من التربية الاشتراكية للمواطنين الصينيين أنفسهم .

وما لبث أن أصبح موضوع غسل الدماغ مجالاً للنقد والجدل والتمحيص بين شتى المفكرين والعسكريين على السواء ، بالاضافة الى علماء النفس . وتبين للغالبية (عدا الأقلية من أمثال هنتر والقادة العسكريين) ، ان غسل الدماغ الذي زعم أنه جرى على الأسرى الامريكان وغيرهم لم يكن إلا تطبيقاً عسكرياً لظاهرة عامة شاملة جرت وتجري في كل بقع العالم وعلى مر العصور ، وإن ما يجب أن ينتبه اليه المسؤولون امريكان هو : لماذا انقلب واستسلم غالبية الجنود الأسرى للأفكار التحررية ، وما العمل في حالة نشوب حروب أخرى ؟. وكيفية تقوية الصلابة الفكرية لجنديهم ؟. وأصبح اصطلاح غسل الدماغ عاماً شاملاً ، فاستعمل في مختلف ميادين الحياة وأنشطتها من تجارة وفن ودعاية وتربية واجتماع وسياسة . وصار بالامكان نفي الصفة الشيوعية التي كانت ملصقة به أول الأمر ليغدو : « كل وسيلة تقنية مخططة ترمي الى تحوير الفكر أو السلوك البشري ضد رغبة الإنسان أو إرادته أو سابق ثقافته وتعليمه » .. ولما كان ذلك الاصطلاح يحمل معاني آلية أو ميكانيكية أو قسرية ، قد استبدل باصطلاحات أعم وأشمل وأكثر وضوحاً مثل : « إعادة تقويم الأفكار » المذكورة آنفاً ، أو « التحوير الفكري » conversion ، أو « المذهبة » Indoctrination ، أو « الإقناع الخفي Hidden persuasion » .

والحقيقة ان الوثائق والتحقيقات الحديثة كشفت مؤخراً ان علماء النفس الكنديين

الاجتماعي والوظيفة[٤]. أليس هذا « مذهبة » من نوع آخر ، وتحويراً فكرياً طويل الأمد ؟؟.

وقد لا يرضى الإنسان بعقله الاعتيادي الاجتماعي الحكيم ، ويريد أن ينتقل الى عالم آخر مليء بالأحلام والأوهام والسعادة والتيه والهيام والهلوسات . فماذا يفعل ؟ ما أسهل أن ينتمي الى المتشردين من الغجر أو المجرمين أو جماعات (الهيبيز Hippies) ، أو البيتنك Beatniks أو أية زمرة تمارس اللاانتماء وتحارب القيم الأخلاقية المتعارف عليها . وعن هذه المصاحبة والانتماء الى المتمردين على المجتمع ، يستطيع أن يحصل على أنواع العقاقير المخدرة لكي يحور دماغه وتفكيره واتجاهاته . وهو لا شك واجد مبتغاه في السوق السوداء .. والأماكن السرية ، وأماكن الدعارة ، حيث يمكنه تناول الأقراص الزرقاء[٥] من حامض اللايسرجيك أو ما يُدعى اختصاراً بـ (ل.س.دي. L S D) . وتتخذ ماكنة فكره أسلوباً آخر وإيقاعاً مختلفاً في الفكر والعمل ، ويفتح (سمسم)[٦] الـ ل.س.دي. عوالم غريبة أمامه تموج بالخيال والرموز والمتع الحسية . أليس هذا « غسل دماغ » من نوع آخر وبأسلوب آخر هو مفعول الأدوية الكيماوية والعقاقير ؟

ويقع شخص آخر ـ دون أن يدري كيف ، ولماذا ـ يقع فريسة لعادة كريهة يحتقرها ويستنكرها هو وأهله ومجتمعه ودينه . إلا أنه ينساق اليها كما تنساق الفراشة الى لهيب المصباح .. لا يردعه ألم ولا يصده تأنيب ضمير أو قوة إرادة أو نصيحة عزيز . وقد تكون تلك العادة القبيحة أو الاجرامية سرقة أي شيء من المحلات العامة (جنون السرقة) بالرغم من غناه وثروته .. وقد تكون ملاحقة النساء والبنات والتحرش بهن والاعتداء عليهن جنسياً .. وقد تكون الرغبة الجامحة لارتداء ثيابهن والتزين بأدواتهن .. الخ من عادات أو إدمان على الخمر والأفيون . ذلك النوع من الأشخاص هو مريض نفساني بدون شك ، ويمكن أن تمر عليه جلسات ومعالجات نفسية ـ عقلية ، وربما يحتاج إلى إجراء عملية دماغية .. إلا أنه يخرج بعدئذ بنفسية جديدة وبعقل آخر وبدماغ متزن يراعي تعاليم المجتمع ويتجنب المشاكل والشذوذ والانحراف . أليس هذا العلاج النفسي هو تحوير للدماغ المريض وقلبه إلى دماغ صحيح ؟؟.

وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية ، تجمعت لدى الأطباء النفسانيين معلومات هائلة عن السلوك البشري وظواهر غسل الدماغ والتحول العقلي . فقد جمع (روي سوانك) الطبيب النفساني الأمريكي حالات خمسة آلاف محارب أمريكي أُصيبوا باعياء

---

(٤) د. عمر فروخ ، د. مصطفى الخالدي : « التبشير والاستعمار » ، ص ١١ .

(٥) Blue pills ، وتمتاز بلونها الأزرق الفاتح ، وتصنعها جماعات متفرقة في امريكا وتوزعها على الشباب . وأشهر صانعيها (وسلي ستانلي) الملقب بملك الحامض acid king نسبة الى حامض اللايسرجيك الذي يصنع منه الـ LSD . وقد قبض عليه في يناير ١٩٦٨ .

(٦) إشارة إلى « علي بابا والأربعين حرامي » والكلمة السرية التي فتحت لهم كنوزاً مخفية .

العذارى قد لحن لهم . وامتدت النوبة الراقصة إلى بلجيكا ، وفسّرها بعض رجال الدين بأن « الشيطان قد امتلك الإنسان ، وقيل ان شوارع مدينة (ميتز) امتلأت بنحو ألف ومائتي راقص . وكانت الرقصة تنتقل بالعدوى المباشرة أو بالإيحاء أو بالتعاويذ . أليس هذا السلوك « غسل دماغ » جماعي ؟؟ .

ويذكر (سومرست موم) في كتابه (الدون فريناندو) كيف يعيش (الجزويت) ـ أي الاخوان اليسوعيون ـ حياة مقننة صارمة .. دقيقة وشاقة ، وكيف يمر المنتمي الجديد في أدوار مرسومة ليصاغ صياغة « جزويتية » . وفي تلك الأدوار .. ، يسحق الندم قلبه ، ويرهق الخوف والعار روحه ، وتتجسم أمامه الصور البشعة لآثامه السابقة .. ، يضاف إلى ذلك الجوع والصوم والحرمان من النوم الهادىء . عندئذ .. ، يدرك المنتمي مدى السعادة والراحة في الإيمان بالمذهب الجديد ، فيتحول فكره إلى اعتناقه ..

ولعل التوجيه والتحوير الفكري لا يسلم منه السلطان ورئيس الدولة . فالجماعة التي تدور في فلكه قد تمثل آراء واتجاهات خاصة ، وتكون تلك الجماعة مصدر « اقناع خفي » وتوجيه علمي بطيء ومتواصل . وهكذا كرّر القول والاتهام للرئيس الأمريكي السابق (ل. جونسون) بأنه تعرض إلى إقناع وغسل دماغ من قبل مستشاريه وخبرائه العسكريين في (البنتاغون) ، وإن تصعيد الحرب الفيتنامية أصبح عقيدة راسخة لديه وجزءاً من شخصيته . وقد نجح وزير دفاعه (مكنمارا) من التخلص من تلك الحلقة المحكمة حول رئيسه بالاستقالة بعد أن فشل في تعديل وتقويم نظرة جونسون إلى تلك الحرب . والإقناع الصهيوني الخفي للمسؤولين الأمريكان تجاه فلسطين والشرق الأوسط مثال حي آخر على غسل الدماغ الحديث ..

والدعاية الصهيونية هي سلاح فعال تمارسه الصهيونية في شتى أنحاء العالم لتدخل في عقول الناس والرأي العام العالمي الوهم القائل بأن اليهود شعب مظلوم مسكين لا يروم إلا العيش بأمان في « أرضه الموعودة » ، وإن العرب الأشراس يحرمونهم من ذلك الوعد الإلهي ويريدون رميهم في البحر . والدعاية الصهيونية تمارس الضغط الفكري والسياسي والنفساني على اليهود من غير الصهاينة لإقناعهم بضرورة الهجرة إلى فلسطين .. ، وهي تستخدم لذلك المال والصحافة والإغراء والوعيد ..

وبلغت نفقات الدعاية التجارية على البضائع في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٥ ١٥٥٠٠ مليون دولار !! . وليست الدعاية التجارية إلا ممارسة للاقناع الفكري لكي يقبل المستهلك على شراء البضاعة . وهي تجذبه بل « تقوده » إلى الاقتناء بأفانين التكرار والإغراء بالهدايا والحيل الإعلانية . أليس هذا نوعاً من غسل الدماغ ؟؟.

والبروباجنده Propaganda اصطلاح لاتيني يدل على « الأسلوب المخطط لنشر الفكرة أو العقيدة أو الأخبار » . وقد اشتقت الكلمة من الأصل اللاتيني للفعل Propagare ، بمعنى «تكثير النبات بواسطة زرع أقلام النبتة في الأرض» . ولما

بحيث تبلغ عدد (احتمالات) العمليات الحسابية ـ السلوكية بالبلايين[٧].

مع كل هذه الحقائق تندفع الولايات المتحدة الامريكية وتليها بريطانيا ـ التي استفادات من حرب ايرلندة الشمالية ـ وكندا والمانيا الغربية وجنوب افريقيا في ابحاث ابتكار اساليب تغيير الأفكار والاتجاهات والسيطرة على الدماغ . فما بين الأعوام ٩٥٣ ـ ١٩٦٣ قامت المخابرات المركزية الامريكية بحوالي (١٥٠) مشروعاً تجريبياً في حقل غسل الدماغ ، وجرى صرف (٢٥) مليون دولار على مشروع واحد منها كان قد بدأ في عام ١٩٦٣ وانتهى عام ١٩٧٣ وانفضح أمام الكونغرس الامريكي عام ١٩٧٦ ، وذكرتـه الصحف الامريكية بالاسم الرمزي (العصفور الأزرق) .

---

(٧) Young, programs of the Brain. 1978.

الأُسُس النفسّية والفسلجيّة

للهيْمَنة عَلى الفِكر

ان من يريد أن يؤثر فينا ، عليه ان يسبر أغوارنا ليكتشف المواضع الحسَّاسة والضعيفة فينا ليدغدغها أو يتلاعب بها أو يهاجمها وفق غاياته . وسبر الأغوار هذا يتطلب معلومات وفيرة في علوم الفسلجة والنفس والأمراض العصبية والاجتماع . والذين يحاولون التأثير فينا يجاهدون في الحصول على أجوبة شافية لكل تصرفات الانسان : لماذا نعمل هكذا ؟ ولماذا ندخن ؟ وكيف يقع اختيارنا على نوع واحد من الدخان ؟.. لماذا نقتل أو نقتتل ، ولماذا نحب ونكذب ونخون ؟.. ولماذا يحب الأطفال تناول أطعمة ينبعث من مضغها صوت طقطقة أو زقزقة أو تهشم ؟.. ولماذا ... ولماذا ؟؟.

وقد رأينا في تمهيدنا وسنرى ، أن عمليات التحوير الفكري كانت قائمة منذ أقدم العصور وجارية على مر السنين . إلا أنها اكتسبت من العلم الفسلجي الحديث ونظريات علم النفس مزيداً من الأسلوب العلمي والتنقية المهذبة والتخطيط المتقن . فالعلم الحديث فتح آفاقاً جديدة للتطبيق والبحث والتجربة ، وفي الوقت ذاته فتح عيوننا على الماضي وفسر لنا كثيراً من حوادث التاريخ ، فستة أو سبعة عقود من عمر علم النفس ألقت أضواء بعيدة المدى على المستقبل والحاضر ، وكذا على الماضي السحيق ، وجعلت بإمكاننا أن نتفهَّم ما جرى ويجري على العقل البشري من مؤثرات .

لذا ، أصبح من الضروري أن نتفهّم الأسس النفسية والفسلجية الحديثة والعلوم الاجتماعية ليصبح في مقدورنا استيعاب آلية غسل الدماغ القديم والحديث معاً . وبدونها ، يغدو فن الإقناع والتحوير الفكري أشبه بالسحر أو السر المغلق . ومن يتتبع ما كتب عن غسل الدماغ يلمس دون عناء اختلاف الكتاب والباحثين في الاستناد على هذه المدرسة النفسانية أو تلك ، أو على نظرية فسلجية أو اجتماعية محضة لتفسير عملية التحوير المذهبة . ولعل اختلافهم يرتبط بالتزاماتهم نحو مدارسهم التي ينتمون إليها ، أو المنحى

اللعاب إذا ما رأت الطعام قريباً وهي جائعة . وكانت الخطوة أو المادة الأولى من تجاربه هي :

(كلب جائع ـ يرى الطعام ـ فيسيل لعابه) .

وهذا السلوك أو الفعل لا إرادي ـ غريزي لا يمكن السيطرة عليه من قبل الكلب ذاته ـ أي غير مشروط الاستجابة . وقام بافلوف بالتجربة التالية :

الكلب الجائع في قفص . يَقرع له جرس . ثم ، وبعد لحظات فقط من قرع الجرس ، يقدم له الطعام الذي يسيل له لعابه . ويعيد التجربة ويكررها . ويدرك الكلب أن قرع الجرس يعقبه دوماً تقديم الطعام . فيرتبط حافز (صوت الجرس) بمعنى (الطعام) ..، وبذلك يؤدي صوت الجرس إلى افراز اللعاب حتى لو لم يقدم الطعام بعدئذ . وهكذا وجد بافلوف أن صوت الجرس أصبح حافزاً اصطناعياً للكلب يؤدي إلى (استجابة) هي افراز اللعاب. وبهذا نكون قد «اختلقنا» رمزاً جديداً في عقل الكلب لنشير إليه بمعنى الطعام وافراز اللعاب، أي اننا أوجدنا فعلاً انعكاسياً جديداً «مشروطاً » بصوت الجرس ومرتكزاً على القاعدة الأولى الانعكاسية «غير المشروطة » وهي رؤية الطعام . أي أصبح لدينا السلوك التالي : (كلب جائع ـ يسمع الجرس ـ فيسيل لعابه) .

وأثبت بافلوف أن بالامكان استبدال صوت الجرس بشيء آخر يقوم مقام الحافز الاصطناعي مثل : ضياء أحمر ، أو وخزة إبرة على الظهر ، أو تيار كهربائي بسيط .. الخ الخ . وهكذا استطاع بافلوف بناء سلوك حديث يستند بالأصل على سلوك غريزي موروث . وكل ما تقدم يمهد لفهم الخطوة التالية لموضوعنا .

تفنّن بافلوف في تجاربه ، ولم يكتف بالجرس واللعاب أو الحوافز الأخرى ، بل تفنن في التوقيت وعدد الدقائق واللحظات التي تمر ما بين الحافز المشروط (الاصطناعي) والاستجابة وتقديم الطعام . ثم ربط الحافز المشروط الأول بحافز ثان جديد ، كالتسلسل الآتي : (كلب جائع ـ رنين الجرس ـ ضوء أحمر ـ تقديم الطعام) ، أي انه جعل الرمز الثاني (الضوء الأحمر) مبنياً على الرمز الأول (رنين الجرس) ومؤدياً بالنتيجة إلى افراز اللعاب . ثم تلاعب في الفترات ما بين حافز وحافز ، ثم استبدل الكلاب بعضها بالبعض الآخر ..، ثم تصرف في درجة ذبذبة الجرس وشدته . وراح يجري عشرات التجارب الأخرى حول نفس الموضوع حسب المنهج التالي :

١ ـ الكلب المعتاد على درجة صوت معينة ، يجابهه بصوت مرتفع جداً ، أو خافت جداً ..

٢ ـ أو يجابهه بذبذبة وعلو صوت تكاد تشابه الأولى فيوقع الحيوان في حيرة وشك وتردد ..

٣ ـ أو يكرر التجربة دون تقديم الطعام ليبقى جائعاً منهكاً ..

٤ ـ أو يسلّط عليه ضياء باهراً مع رنين الجرس الاعتيادي ، فيرتبك الحيوان

« المزاج المتحفز القوي » . Strong Excitatory .

٢ ـ المزاج الدموي Sanguine ، وهو ما دعاه بافلوف في حيواناته بـ « الحيوي » lively أو ذوي « المزاج الموزون » .

وكلا المزاجين أعلاه يمتازان بحدة الانفعال والاستجابة والتصرف العدائي المعاكس للحافز . وتكون استجابة الصفراوي حادة اعتباطية لا ميزان لها، أما استجابة الدموي فهي حادة أيضاً، لكنها هادفة ومقصودة ..

٣ ـ المزاج البلغمي Phlegmotic ، ويقابله عند حيوانات بافلوف « المزاج الهادىء Calm Type .

٤ ـ المزاج الميلانخولي Melancholic ، ويقابله عند الكلاب المزاج « المثبط الضعيف » Weak Inhibitory .

وكلا المزاجين الأخيرين يستجيب للحوافز الخارجية بسلبية وبرود وتثبيط . والكلب من أحد هذين المزاجين يتجنب المشاكل والمواقف المقلقة . فإذا ما جوبه بموقف عنيف أو تعرض جهازه العصبي لحافز حاد أو « مشدة » استجاب بالجمود والتثبيط أو « بالشلل الوقتي المرعب » .

ولاحظ بافلوف أن جميع أنواع الكلاب بأمزجتها الأربعة قد تلجأ إلى الاستجابة السلبية ـ أي الجمود والهدوء والانهباط الدماغي ـ إذا ما جوبهت بحوافز أقوى من قابلية أجهزتها العصبية . وهي استجابة وقائية يلجأ إليها الدماغ كحل أولي للصدمات الواقعة عليه . وهذا الخط الدماغي يكون الملجأ الأول والسريع عند الحيوانات ذوات الأمزجة « الضعيفة المثبطة » ـ أي الميلانخولية لدى الإنسان ـ . غير أن الشدائد قد تستمر أو تزيد .. ، فتلجأ الحيوانات إلى خط دفاعي آخر هو « التثبيط الحدي » للدماغ ، وسنأتي على شرحه بعد قليل . أما ما يمكننا اجماله قبل التطرق إلى الخطوط الدفاعية وردود الأفعال لدى أدمغة الكلاب فهو ، ان المحيط والطباع الشخصية للحيوان عاملان حيويان في تقرير انماط السلوك التي يلجأ إليها ، وان الغرائز ـ كالجنس والحاجة إلى الطعام ـ تتكيف بصورة مستمرة بالنسبة لتقلبات البيئة . ومع أن الحيوان يرث طبعه ومزاجه ، فإن التجارب وظروف المحيط تضفي تحويراً وتعديلاً على نمط الأفعال الشرطية .

وفي سنة ١٩٢٤م ، وقعت في مدينة لينغراد حادثة عرضية كان لها الأثر الفعال في تاريخ الفسلجة وعلم النفس وفن غسل المخ : في إحدى غرف مختبرات بافلوف في لينغراد كانت هناك مجموعة من الكلاب ذوات العادات والانعكاسات المستحدثة (المشروطة) التي اكتسبتها بالتجارب المختبرية . وكانت الكلاب في أقفاصها عندما حدث فيضان لينغراد الشهير عام ١٩٢٤ . وانساب الماء من تحت أبواب المختبر .. وارتفع في أقفاص الكلاب السجينة حتى بلغ رقابها ....، فتملكها رعب شديد ، واستبد بها الهيجان والاضطراب ..، وكادت أن تموت غرقاً..لولا قدوم أحد مساعدي بافلوف في اللحظة الاخيرة ليخرجها من

بحيث أن العادات أو السلوك الملقن للحيوان يزول من ذاكرته أو «يغسل دماغه » ،فيبقى بلا حول ولا طول، ويصبح اشد حساسية لتقبل عادات جديدة .

واستطاع بافلوف تقسيم الكلاب بصورة عامة إلى صنفين كبيرين بالنسبة لتحملها الصدمات والشدائد المحيطية . فالصنف الأول يشتمل على المزاج الحيوي والهادىء ـ أي البلغمي والدموي ، وهو الصنف الذي يقاوم كثيراً ولا ينهار بسرعة . والصنف الثاني ، ويشتمل على المتحفز القوي والمتثبط الضعيف ـ أي الصفراوي الميلانخولي ، وهو الصنف الذي ينهار لأقل شدة . وكذلك الانسان .. إذا مرَّ بحالة من الإرهاق والتوجُّس والقلق ، وإذا ما استمرت تلك الحالة المزعجة أو أمعنت في الضغط والشدة ، فإن حالة الانهيار أو الهسترة تسيطر عليه ويكون عرضة لتقبل الإيحاءات والأفكار والتوجيهات التي ينفر منها أو يتردد في قبولها لو كان على حالته الطبيعية . كما أن حالات التثبيط الحدي Transmarginal inhibition تنسيه عاداته القديمة أو تطمسها إلى درجة الانعدام ..

ويعتقد بافلوف بعد كل هذا ، أن الدماغ البشري ـ والحيواني ـ في حالة توازن بين التحفز والتثبيط .. أو في نوعين من الفعاليات : تحفزية وتثبيطية معاً ، وهما في حالة توازن وتلاحم آني . وعلى عكس ما قاله شكسبير من أن « الفرد الذي في يده النار لا يمكن أن يفكر في القوقاز المتجمد ... » ، أثبت بافلوف أن الفرد الذي يركّز حواسه وأفكاره على المنطقة المتجمدة ، يستطيع أن يمسك النار بيده ولا يشعر بها . أي أن التركيز والتحفيز في ناحية يزيل أو يعزل ناحية أخرى من وظائف المخ . وعلى تلك الظاهرة علَّق الفسيولوجي الكبير (شيرنجتون) بأن بافلوف قد أوضح كيف أن الشهيد المسيحي يمكن أن يموت حرقاً على الصليب وهو سعيد . وأبَان بافلوف أن بقعاً من الدماغ تنتابها حالة التثبيط الموضعي ، وقد تؤدي إلى أعراض الهستريا المتنوعة كفقد البصر الوقتي أو فقدان الذاكرة أو الشلل الجزئي . وهذا التفسير يطابق نظرية فرويد ويوفر لها أساساً فسلجياً . وأوضح بافلوف أيضاً ، أنه إذا ما انتابت مساحة معينة من مخ الحيوان حالة القصور الذاتي والتحفز المستمر ، فإن استمرارية حركية متكررة يقوم بها الحيوان كضرب يد الفاحص بالكف أو سحب إحدى الرجلين بصورة آلية متتابعة . وهذا السلوك يشابه استمرارية وتكرار بعض الأفكار عند الانسان ، كأفكار الوسوسة والحصر القهري compulsive nourosis ، إذ يشعر الشخص مثلاً برغبة ملحّة في غسل يديه عشرات المرات ، أو تكرار فكرة معينة أو كلمة نابية أو كافرة أو مقطعاً من أغنية في دماغه في كل مناسبة وغير مناسبة . وترسخ هذه العادة الجديدة ، ويكون من الصعوبة اقتلاعها إلا بالعلاج النفساني الطويل المثابر . ويفسر هذا أيضاً كيف أن الإنسان إذا ما مرّ بتجارب تحويرية صارمة فقد يخرج منها بأفكار راسخة عميقة ، كأن يصرح بعضهم أنه « وجد الله ، ودخل الإيمان إلى قلبه .. » أو أنه قرر أن يكون نباتياً في طعامه ، أو انه اصبح عضواً مخلصاً في جمعية أو هيئة ..

الأفكار والعادات والاتجاهات المبنية كلها على عمليات الانعكاسات الشرطية بمفعول « التكرار » و « المصاحبة أو الاقتران » .

٢ ـ السلوكية الحديثة والقديمة ..

إن تشبيه الإنسان بالحيوان لا يعني المطابقة الكلية بجزئياتها ، بل المطابقة العامة التقريبية . ومن هذه المطابقات خرج بعضهم بقوانين سلوكية للانسان . ففي البداية ، كان بافلوف وسيمينوف ..، ثم استوحى منهما (واتسون) نظريته في السلوك التي يقول فيها أن الإنسان يتصرف كرد فعل للحوافز ، وإن السلوك عبارة عن مجموعة استجابات مبنية واحدة على الأخرى كالأفعال الشرطية عند الحيوانات . ومن ثم أُجريت تعديلات كثيرة على السلوك الميكانيكي الآلي لتظهر نظرية السلوك الحديثة على يد العالم النفساني (هل) Hull ورفقاؤه ميللر وتولمان .. الخ . والنظرية السلوكية الحديثة المستمدة من سلوكية واتسون تقول بأن الإنسان « يتعلم » بالطريقة التي ذكرها بافلوف ـ أي بالأفعال الشرطية المتكررة ..، إلا أن النظرية تضيف على ذلك عامل « الانفعال » فالإنسان يتعرض لتجارب حياتية ويكتسب عادات ، لكنه يغير من سلوكه واتجاهاته بمفعول الحوافز والدوافع التي يصادفها ، ويتم كل ذلك على مستوى الشعور والعقل الواعي . ومن هنا برزت مدرسة جديدة في « العلاج السلوكي » على يد (وولب) Wolpe في جنوب افريقيا ، و (آيزينك) Eysenck في انكلترة .. وملخصها : أن المرض النفسي (كالخوف من عبور الجسور أو الانحراف الجنسي الخ ..) هي مجرد (عادة) سيئة « تعلمها » الفرد خلال حياته كما يتعلم العادات الحسنة الأخرى ، وإنه يمكن أن نزيل تلك العادة و « ونضع » عادة صحيحة أخرى في محلها بطريقة التطبع الشرطية وبأساليب مخططة في مختبر العلاج النفساني أو المستشفى . وسنأتي على ذكر أهمية السلوكيين ونظرية التعلم في فصول قادمة عندما نتطرق الى عمليات التحوير الهادفة .

٣ ـ الفرويدية .. وسيكولوجية الأعماق :

بينما تفرغ بافلوف وواتسون وهل للشعور وقشرة الدماغ الخارجية ، وإلى التعلم والتطبع ..، اتجه فرويد إلى اللاشعور والعقل الباطن . ولا يمكننا استعراض نظرية فرويد ومدرسته الواسعة لأن ذلك يقتضي منا كتاباً آخر ، إلا أننا نكتفي بابراز ما يهم « التحوير الفكري » من تلك النظرية وتطبيقاتها .

افترض فرويد وجود عقل هائل لا نشعر به في وعينا لكنه دائم الفعالية والنشاط ، وسماه « اللاشعور » ومن مظاهر فعاليته وجود الأحلام .. والغرائز .. والدوافع الحسية .. واللذائذ الجنسية .. والاستمتاع البدائي .. والسلوك اللا إرادي الشاذ . ويرقد في اللاشعور الجزء الأولي من شخصية الإنسان أو (الهو) . فالهو Id إذن هو الجزء الجنسي المتوحش البدائي الطفلي المتعدد المطاليب والاهواء من شخصيتنا ، وهو الذي لا يعرف غير المتعة وغير اشباع النزوات . وهو مجموع غرائزنا الموروثة على مر الأجيال ..، بل لعله

الاثم في الانسان ويضيق عليه في اللوم والتأنيب . كل ذلك والطفل لا يزال في السنين الخمس او الثماني الأولى . ولذلك أكد فرويد على أهمية السنين الأولى في مستقبل الإنسان النفساني . إذن فالـ (هو) يريد ... والـ (انا) عاقل متروي ... والـ (انا الأعلى) مثالي متزمت ... والإنسان موزع بين كل هؤلاء . فإذا طغى أحدهم على الآخرين ، وإذا ما دارت المعركة بينهم ، كان الفرد فريسة القلق .. والقلق شعور بالخوف، الموهوم وعدم الارتياح . والقلق يستدعي العلاج والكفاح ، لذلك يلجأ (الانا) إلى عدة حلول وسط أو « حلول سلمية » وقتية لإزالة القلق وتهدئة الأوضاع واحلال السكينة والسعادة . وتكون الحلول النفسانية لملافاة القلق والتهديد Frustration هي واحد مما يلي :

١ ـ الكبت : أي دفع المشكلة برمتها إلى اللاشعور لترقد في زوايا النسيان إلا انها لا تنمحي ، أو لعلها تستيقظ وتريد الخروج إلى الوعي مرة ثانية .

٢ ـ التبرير Rationalisation : أي أن يقوم الانسان بعمل ما ويبرر سلوكه بالمعاذير . والمثل المعروف « من لا يصل عنقود العنب يدَّعي أنه حامض .. » هو أبسط إيضاح لتلك الآلية النفسانية للتخلص من المحرجات والمصاعب . وكذلك من لا يستطيع مقاتلة المصارع يقول انه سفيه والأجدى تركه وشأنه .

٣ ـ الإسقاط Projection : أي أن يعكس الإنسان ما في نفسه على عالمه الخارجي فيرى تلك الصفات في غيره أو كأنها آتية من غيره ولا علاقة لها بنفسه . فالخادمة العجوز تخاف الاعتداء عليها جنسياً وتتجنب الرجال أو تتوهم رجلاً مختفياً وراء سريرها .. أما الحقيقة فهي وجود رغبة جنسية مكبوتة لديها هي لو اقترب منها رجل فعلاً . كذلك الفرد المشحون بالحقد والكره نحو أحد أفراد عائلته أو أحد الناس لا يرضى أن يُقال عنه إنه إنسان عدائي وحقود فيسقط عداءه على عالمه الخارجي لاشعورياً ، وعندئذ يرى نفس الأشخاص وكأنهم يريدون الاعتداء عليه وتدميره (كما يحدث في مرض البارانويا مثلاً) .

٤ ـ الإزاحة Displacement : أي أن الذي يرمي إلى هدف ما ويريد تحقيقه قد تعترضه شتى العوارض ، فإن لم يتغلب عليها عوّض عن هدفه بشيء آخر . وهكذا يكون موضوع الكره أو الحب قد أزيح من محله الحقيقي في الفكر وانصب على هدف ثان كبديل عنه ـ أو على كبش الفداء .

٥ ـ الاقتداء أو المشابهة Identification : أي أن الفرد يتخذ صورة أو هيئة شخص آخر ويتصرف على نسق سلوكه . فالضعيف يتشبه بالقوي ، والطفل يحاول تمثيل صفة أبيه أو أستاذه أو صديقه ، والطفلة تتقمَّص تصرفات أمها أو إحدى قريباتها التي تحترمها . أي ان المثال الأعلى للفرد أو موضوع حبه أو شخصية الاعجاب لديه يتقمَّصها الفرد في ذاته فيصبح مثال الأنا الخاص به Ego - ideal . فالمماثلة ليست إلا محاكاة وتقليداً ـ التقليد في حدود الوعي ، لكن الاقتداء في حدود اللاشعور ـ والنتيجة سواء..

٦ ـ التعويض Replacement : أي أن يتجه الفرد إلى أهداف ورغبات وأنشطة

الانسان هي حب التعالي وتأكيد الذات . ويأتي تأكيد الذات والقوة بشـتى السبل : بالشهرة ، أو المال ، او القوة الجسدية ، أو العلم او الجمال . ومتى ما تهددت تلك الرغبة ولم ترتوِ ، شعر الفرد بالنقص . ومجرد « الشعور بالنقص » يدفع بالإنسان إلى محاولة السيطرة والعلو. إلا أن الفرد قد يتهالك وينسحق ولا يجرؤ على تحمل الصعاب ، فيصاب بـ « عقدة النقص » التي تشله وتجعله فريسة الأمراض والقلق والسلوك الشاذ . وعلاج ادلر لمرضاه يكون عن طريق إرجاع الشعور بأهمية الذات . وما ذكره ادلر في نظريته يعيده (نيتشه) في نظريته عن « السوبرمان » . وكان نيتشه مصاباً بعقدة النقص فأشبعها بنظرية « العلو » والغطرسة والقوة .

٦ ـ ماكدوجل .. والنظرية الغائية :

كلنا يعرف أن للإنسان حاجات أو « غرائز » لا بد من إشباعها .. لكن ، ما هي تلك الغرائز والحاجات ؟ وكم تبلغ عدداً ؟. اختلف علمـاء النفس والاجتماع والحيـاة في تحديدها : فهي حاجات جنسية ولذة وموت وحياة عند فرويد ، وهي ميل للعداء والتحطيم عند (ميلاني كلاين) ، وهي السيطرة والتعالي عند ادلر ، وهي حاجات حياتية وحاجات ميتافيزيقية صوفية عند يونج . إلا أن العالم الاجتماعي النفساني مكدوجل البريطاني الجنسية اعتبر أن في طبيعة الإنسان حاجات أو ميولاً أو نزعات .. تدفعه إلى اتخاذ سلوك وتصرف معيّن . واستبدل اصطلاح النزعات Propensities بالغرائز ، وتقدم بقائمة من تلك الحاجات الطبيعية ـ الموروثة ـ في الإنسان وهي : نزعة البحث عن الطعام(أي الجوع) ، ورفض بعض الحاجات (أي القرف) ، وحب الاستطلاع (أي الفضول) ، وتجنب المخـاطر (الخـوف) ، والعراك أي (الغضب عنـد المجابهـة) ، والرغبـة الجنسية (التزاوج) ، والعناية بالصغار (الأمومة) ، وحب الجماعة (نزعة القطيع) ، والتعالي (تأكيد الذات) ، والرضوخ القسري (الطاعة) ، وصناعة الأشياء (البناء) ، وجمع الأشياء (حب التملك) .. الخ .

ومع أن نظرية مكدوجل فقدت قوتها وخطـورتها بحلـول نظريـات علم النفس الاجتماعي الحديث ، فإن سيكولوجية الدعاية التجارية قد اعتمدت عليها أيضاً كما سيأتي ذكره .

٧ ـ علم الجهاز العصبي والدماغ :

قد يستغرب البعض إذا قلنا إن في داخل كل انسان « ساعة » تعمل بذبذبة خاصة وميقات خاص . والأصح القول إن لكل جهاز في الجسم ساعته الخاصة ذات رتابة وإيقاع وتوقيت خاص . فللتنفس سرعة معينة وكذا لضربات القلب .. ولحركة الامعاء شيء من الايقاع ، وفي المرأة توجد دورة الحيض .. وللأحياء ـ من إنسان وحيوان ـ ساعات يقظة وساعاتُ نوم . وحتى بعض الأمراض لها دورات غريبة كالجنون والكآبة الدورية والتهاب البريطون والتهابات المفاصل ونوبات الصرع . كذلك نجد في الحيوانات دورات عديدة تؤثر

Coca الذي يحتوي على مادة (الكوكايين) يتداوله الناس ليدخل إلى قلوبهم السرور وإلى عضلاتهم القوة وإلى دماغهم الشعور بالعظمة والفعالية .. فيزدادون نشاطاً وحيويـة ويندفعون إلى أعمالهم بخفة حتى لو كانت تسلق الجبال واجتياز الطرق الوعرة .

ونبات (القات)[١٠] في اليمن وغيرها يحتوي على مواد ملطفة تشبه مفعول الأفيون وتدخل الانشراح والاسترخاء والبعد النسبي عن الهموم . وفي أمريكا الجنوبية كان القرويون يتناولون نباتاً من فصيلة الصبّار Cactaceous والحاوي على مادة (الميسكالين) التي تنتقل بالدماغ إلى عوالم حالة غريبة تتحور فيها الأحاسيس العادية إلى أغرب الظواهر والمرئيات ، وعندئذ يمارس أولئك القرويون حفلات راقصة حالمة مليئة بالأعاجيب . وقد جرب الكاتب الانكليزي الشهير (الدوس هكسلي) هذا النبات بنفسه ووصف ما طرأ على عقله ومخيلته من تجارب حسية حادة ، ثم وضعها في كتيب شيق سماه (منافذ الاحساس)[١١].

وتوصل علماء آخرون إلى اكتشاف مشتقات من حامض اللايسرجيك L. S. D. الذي يؤثر في الأحاسيس والأفكار ويحور من نظرة الانسان إلى العالم والناس ويؤدي إلى حالة تشبه الجنون الفصامي (الشيزوفرينيا) .

وهكذا جمع الإنسان على مرّ القرون والأحقاب ذخيرة من العقاقير الطبيعية ذات التأثير المحوّر للمخ والتفكير . ثم تطور علم العقاقير والكيمياء العضوية والحيوية ، وبدأت المختبرات تجمع النباتات وتنقيها لتستخرج منها المواد الفعالة أو تحضرها اصطناعياً بشكل حبات وأقراص وابر ... كما تفنّن العلماء في استحضار مشتقات أخرى منها لها نفس المفعول على العقل البشري . ويجب ألّا يغرب عن بالنا أن أقدم « عقار » طبيعي - صناعي كان ، ولا يزال ، هو الخمر ! تلاه الحشيش والأفيون .

وحيث اننا سنتناول مفعول الأدوية والعقاقير في مختلف المواضع من هذا الكتاب ، فإن ما يهمنا ههنا هو التأكيد على آلية الدماغ والتحوير الفكري والحسي الناتج عن مواد كيماوية ظهرت مؤخراً بفضل (علم العقاقير النفسية) الحديثة ، وكيف انها فتحت آفاقاً جديدة في البحث عن سر الأمراض العقلية وأسبابها وعلاجها . ونذكر من هذه العقاقير على الأخص مركبات حامض اللايسرجيك (ل. س. دي.) والميسكالين ، والسيلوسيبين Psylocybin ، ومشتقات الفينوثيازين Phenothiazines ، والمسكنات والمهدئات Tranquilizers ، وطاردات الكآبة Anti - depressants .

٩ ـ المدارس النفسية والتحليلية الأخرى ..

تشعبت الآراء وتوسعت ميادينها بعد فرويد وأدلر ويونج ... فابنته (أنّه) توسعت

---

(١٠) محمد السيد ايوب ، (اليمن بين القات وفساد الحكم) ، دار المعارف (اقرأ) ١٩٦٣ .
(١١) Huxely, A : (1960) . « the doors of perception ».

ولا يمكننا استعراض ما فعله ويفعلـه علم النفس الاجتماعي ، لكننـا نكتفي بمقتطفات مفيدة ترتبط بموضوع كتابنا هذا . فقد تبين أن الإيحاء أسهل منفذ إلى عقول الناس . ودلت التجارب على أن الصغار والشباب هم أكثر عرضة للايحاء من الكبار والمعمرين ، وهي حقيقة يعرفها مروِّجوا الشعارات والجمعيات المتعددة الأغراض . وتزداد قابلية الإيحاء من الرابعة إلى الثامنة من العمر ، ولعل السبب يكمن في أن لغة الطفل تبدأ بالتكامل في تلك الفترة ، كما أن « الطاعة » والرضوخ لآراء الأبوين والانا الأعلى (نظرية فرويد) تمهد لهم إطاعة أفراد وأفكار وإيحاءات أخرى . ولا يبدأ الطفل بالتحرر من قيود الإيحاء إلا عندما تتكامل ذاته وتنضج ويدرك أن الأبوين ليسا بعظيمي القدرة أو المعرفة كما توهم أثناء طفولته (تبلور الأنا واستقلاله عند « أنّه فرويد ») .

ويتضح تأثير الإيحاء في التجربة التي قام بها في أمريكا كـل من سوروكـين وبولديريف Sorokin and Boldyreff . فقد قاما بعزف اسطوانـة لقطعة مـوسيقية من السمفونية الأولى لبرامز على ١٤٨٤ طالباً ثانوياً وجامعياً . وكانت القطعة الموسيقية المعزوفة في الاجتماع الأول ثم في الاجتماع الثاني الذي تلاه هي نفسها بالضبط . لكن العالمين الاجتماعيين قدما القطعة الأولى على انها « وصلة موسيقية عالية .. دقيقة .. وجميلة ، تسمو بكثير على القطعة القادمة التي سيجري عزفها بعد قليل .. » . وفي الجلسة الثانية قدما نفس القطعة على انها « تقليد مبالغ فيه للقطعة الأولى .. خالية من الجمال والتعبير .. » . وقد اعتبر ٩٦٪ من الطلاب القطعتين مختلفتين فعلاً ، واعتبر ٥٩٪ منهم أن القطعة الأولى أجمل . ولم يدل ٢١٪ برأي ، أما ١٦٪ فلم يوافقوا على أن الأولى أجمل من الثانية . وبالأحرى فإن ٤٪ فقط من مجموع ١٤٨٤ طالباً وطالبة لم تنطل عليهم عملية الإيحاء تلك !! .

كذلك أوضح علم النفس الاجتماعي أن الفرد يكتسب من جماعته وثقافته المحلية نظرة خاصة إلى غيره ويلصق به « هيئة خاصة » تصبح « الهيئة الدارجة » او الفكرة السائدة (المعروفة) عن هؤلاء الأشخاص أو الأجناس . فالمعروف ان « للزنجي » شكلاً وصورة في العقل الأبيض الأوروبي تختلفان عما هما في عقل الأبيض الأمريكي أو الأفريقي الجنوبي . كذلك الرأسمالي واليهودي والمجرم بهيئة ما في مجتمع ما . وقد يصعب تبديل تلك الانطباعات بالمناقشة أو الاقناع . وقد قام السير تشارلز كورنج في انكلترة بدراسة توضح أثر الانطباعات . وكان كورنج يعارض فكرة (لومبروزو) التي تدعي أن للمجرمين سحنة وهيئة جسمية مميزة يمكننا بها تشخيصهم عن غير المجرمين . لذلك طلب من أحد الفنانين أن يرسم بعض المجرمين في سجون إنكلترة من ذاكرته ـ بعد ان رآهم شخصياً قبل فترة وجيزة ـ . وخرج الفنان بتصاوير « إجرامية » تختلف عن أصحابها الحقيقيين ! .

فتأثير الجماعة والمجموع أعمق وأشد على اتجاهات الفرد العضو فيها . وقد حاول

٥ ـ مقاييس إنجاز الاعمال ..

٦ ـ مقاييس الشخصية : لمعرفة طباع وأمزجة واتجاه ومشاكل الشخصيات موضوع الاختبار . وهي استبارات متعددة يعتمد أغلبها على آلية « الاسقاط » النفسية ولذلك سميت بالاستبارات الإسقاطية Projective techniques .

ونعدد أدناه أهمها :

آ ـ اختبار رورشاح لبقع الحبر Rorschach test .

ب ـ اختبار « فهم الموضوع » TAT (Thematic Apperception) .

ج ـ اختبار « زوندي » Zondi .

د ـ اختبار « التمثيل الدرامي » أو السايكو دراما .

هـ ـ اختبار تداعي الكلمات الحر (من ابتكار يونج) .

و ـ اختبار رسم الأشخاص .

ز ـ اختبارات المواقف والمصاعب ..

٧ ـ دراسة واختبار الجماعات ..

١٢ ـ علم الانسان (الانثروبولوجيا) والثقافات البشرية :

جاءت دراسة الثقافات القديمة والبدائية المنتشرة في بقع كثيرة من المعمورة بمصادر غنية للمعرفة أهمها أن المرض والشذوذ مفاهيم نسبية . فما نعتبره إثماً أو عاراً في مجتمعنا يُعد حلالاً أو واجباً في مجتمع آخر . أي أن الشذوذ ليس في (السلوك) ذاته ، بل في اتجاهات الناس أو نظرتهم إليه . ولذلك أشارت كل من (مرجريت ميد) و (روث بندكت) M. Mead and R. Benedict العالمتان البشريتان منذ أوائل سنة ١٩٣٠ إلى أهمية « الثقافة الاجتماعية »[١٤] وأثرها الخطير في تجارب الإنسان وتكوين أفكاره واتجاهاته . وقد درست هاتان العالمتان ثقافات بشرية متعددة عريقه في القدم كما درس غيرهما كثيرون من علماء الأجناس ، وانتهوا إلى أن مفهوم « الطبيعة البشرية » يختلف في كل بقع العالم الثقافية . فمفهوم « الرجل » في قبيلة تشامبولي Tchamboli في (غينيا الجديدة) هو أن يكون وديعاً أنيساً رقيقاً .. يعتني بزينته ومظهره وبأطفاله .. أما الرجل في القبيلة العربية فهو المحارب .. الشجاع .. المسيطر ، الذي لا شأن له بالأطفال والبيت . وأفراد قبائل آرابيش Arapesh من سكان غينيا الجديدة أيضاً مسالمون متواضعون جداً .. تهزهم أية علامة أو بادرة من غضب أو تفاخر أو مكابرة ..، بينما أفراد القبيلة المجاورة لهم المسماة موندوكومر Mondugumer لا يعرفون غير الحقد والعداء والعنف والمشاكسة وحب القتال .

---

(١٤) الثقافة Culture ، يقصد بها ههنا مجموعة المفاهيم والمعرفة والتقاليد النابعة في بيئة وجماعة خاصة تكسبه « هوية ثقافية » مميزة .

الشمبانزي ـ أقرباء الإنسان ـ واستطاع التحكم بثورانها وهياجها أو بتحفيز واثارة هدوئها(١٥).

١٤ ـ علم النفس العسكري Military Psychology :

ويقصد به تطبيقات فروع علم النفس والاجتماع والفسلجة والانتربولوجيا المذكورة آنفاً لخدمة الاغراض العسكرية والمحاربين والروح المعنوية ، فهو علم نفس (تطبيقي) بالحقيقة ، وهو علم نفسي (تجريبي) أيضاً لأنه يتولى احياناً القيام بأبحاث وتجارب لاثبات نظريات واستنباط حقائق جديدة . ونجد في علم النفس العسكري الاختصاص بالمجال العسكري وبالقيادة والجماعة والحرب النفسية وكيفية اختيار المحاربين الكفوئين وسبل المقاومة والصمود والكفاح وتصعيد المعنويات وكيفية دحر العدو وتعجيل استسلامه ، واساليب الاستجواب والاقناع وكسب المرتدين الخ .

* * *

وأخيراً ، فإننا بعد هذه العجالة والإيجاز في استعراض ميادين علم النفس والاجتماع والأجناس البشرية ، يمكننا أن نتفهم الآلية التي يطبقها الإنسان على الإنسان لتغيير اتجاهه وأن نجد تفسيراً مقبولاً لما جرى من تحوير فكري في الأزمان الغابرة . ومن العقم الاعتماد على نظرية واحدة ، إلا أننا لا نغالي إذا قلنا إن نظريات بافلوف وفرويد وتلاميذهما وعلم النفس الاجتماعي تطغى على ما عداها . أما من يرمي إلى تحقيق غايته في تحويل الأفكار فيلجأ إلى كل ما في جعبته من وسائل .

---

(١٥) عبد المحسن صالح ، (مستقبل المخ) ، ص ٨٧ ـ ١٢٨ .

كان دعاية « لا شعورية » مستوحاة من التقاليد والأفكار السائدة حينذاك ، ولذلك بدا وكأنه منحاز ومتفرغ للحقيقة الكاثوليكية .

وكانت الامبراطورية الرومانية لا تعير للدين اهتماماً قدر اهتمامها وحرصها المتزايد على الحفاظ على « سمعة الدولة » . وقد نفى الامبراطور أوغسطس الشاعر (أوفيد) بسبب قصيدة وهفوة ، بينما رفّع الشاعر (فرجيل) إلى مرتبة « المواطن » الرفيعة وظلّله برعاية الدولة ، إذ كانت معظم قصائده مدحاً ودعاية له وللامبراطورية وتهجماً على الأفكار والميول الجمهورية السابقة . وغضب الأمبراطور (كاليجولا) على أحد الكتاب عام ٣٨م لما أشتم من بعض سطور كتاباته رائحة الغمز والقدح فيه ، وقيل انه أمر بحرقه حياً !.

وحصل (هيرودوتس) على لقب « أبو التاريخ » بسبب ما سطره من تاريخ غذّى الحضارة البشرية ، إلا أنه وصف أيضاً بـ « الصحافي المأجور » للدولة الأثينية ، وهو وصف لا يمكن أن يمر على علاته دون مناقشة وتمحيص فما كان يعتقده هيـرودوتس دونّه .... ، ودون كثيرون غيره من المؤرخين ما آمنوا به وما كان سائداً في عصرهم دون تحيز مقصود للدعاية أو لترجيح فكرة على أخرى .

ويزخر التاريخ العربي والإسلامي بأمثلة على تدوين تاريخ وحديث وأدب يستشفّ منها الدعاية لجهة والاساءة لاخرى ، ونخص بالذكر مجموعة الأحاديث النبوية الموضوعة عمداً فأصبحت تربو على عشرات الآلاف ، منها ما يخدم الأمويين ومنها ما يؤيد العلويين ومنها ما يسمو بالعباسيين ، ومنها ما يؤيد دعوة الشعوبيين ..، وكثير غيرها لا تعد ولا تحصى ، هذا بالاضافة إلى عمال وقضاة الخلفاء وخطبهم المتملقة ، وإلى الشعراء المادحين والمنتفعين . يقول طه حسين : « .. والقصاص الذين كانوا يتحدثون بأمر الفتن في البصرة والكوفة فيرسلون خيالهم على سجيته ، ويتعصبون للقبائل المختلفة من العرب ، ولعلهم كانوا يأخذون المال من أولئك وهؤلاء ليحسنوا ذكرهم ويعظموا أمرهم ويذكروا لهم من المآثر ما كان وما لم يكن ، ويرددوا في هذه المآثر من الشعر ما قيل وما لم يقل »[١٦].

وظاهرة التأثير الاجتماعي والمحيط على الفرد ليست من خواص القرن الحالي ، فقد كان الفرد منتمياً دائماً وأبداً إلى جماعته وثقافته . غير أن مفكري القرون الماضية لم يلتفتوا بامعان إلى المجتمع بل نظروا إلى الإنسان كوليد نفسه أو « الإنسان الذي يصنع نفسه » أو « الإنسان البطل » . ومن هنا ذاع المفهوم الخاطىء بأن « الأبطال فقط كانوا صناع التاريخ . وان الفرد جزيئة تافهة فيه .. » . ويقتضي الانصاف ألا نغفل المؤرخ الاجتماعي العربي ابن خلدون الذي أبرز القوى الاجتماعية والنفسية في حركة التاريخ ، فهو يذكر مثلاً في مقدمته :

« .. النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه ...، فإذا انتحلت جميع

---

(١٦) طه حسين ، (الفتنة الكبرى) ، جزء ٢ ، ص ٩٢

« الإله لوا » ينزل ويحل في الشخص من أفراد تلك القبيلة أثناء ممارسته لشعائر الرقص ، وعندئذ يتصرف « المحلول فيه » أو « المأخوذ » كما يتصرف ذلك الوثن أو الإله ذاته ـ أي كما يأمره به . وينتاب الفرد نسيان وقتي ، فلا يتذكر ما يحدث له في تلك الفترة ، وكيف تصرّف . غير أن سلوكه يبدو للآخرين معقولاً ومقدساً مهما كان غريباً أو شاذاً . ويذكي قسيس الفودو الهياج والحماسة والإيحاء في الراقصين بالقرع المتزايد على الطبول أو بتغيير نغمة الإيقاع ..

وفي سنة ١٩٢٩ ذهبت (مايا ديرين) إلى هايتي لتدرس وتصور حفلات الفودو ، ثم نشرت معلوماتها في كتاب « الفارس المقدّس »[١٩]. وقد وصفت مفعول الطبول والإيقاعات على دماغها هي ، وكيف تملكتها الآلهة (ايرزولي) آلهة الحب ، وكيف بدأ جسمها يتلوى ويرقص على قرع الطبول لحين ارتمائها متهالكة : « أصبحت جمجمتي طبلاً .. كل ضربة فيه تدفع بساقي هذه أو تلك إلى الأرض .. وملأ الغناء أذنيّ .. واخترق رأسي .. وكدت أغرق في بحار من الأصوات .. ولعل محاولة الفرد التخلص والمقاومة ضد سحر الرقص وجاذبية الإيقاع تدفعه إلى مزيد من السحر والانجذاب فالوقوع في ما يودّ تجنبه !. وقد حاولت (ديرين) فعلاً أن تقاوم في حفلات الفودو .. وأدارت ظهرها الى الراقصين ، وصمّمت على المقاومة بعد أن تسربت الأنغام إلى خلايا جسمها وتمازجت الأصوات مع مخها .. لكن ، ما لبثت أن استسلمت للرقص وهي مبهورة . ولنتركها تصف ما حدث لها : « .. وسرعان ما قرع الطبل .. وإذا به يشد على ساقيّ ـ اليسرى أولاً .. وإذا به يديرني مرغمة إلى الراقصين مرة أخرى . القرع يذيبني في الجماعة .. وإذا بي أجدني مندفعة كالقذيفة عبر المسافات الشاسعة المترامية .. وإذا بقدمي تـرتكـزان على الأرض ولا تلبثان أن تتراخيا وترتفعا بي في الجو .. إلى أين ؟ لا أدري ، وإلى متى ؟ وكم من المرات ؟. لا أدري .. » . وقد امتلك روح الفودو مايا ديبرين ثماني مرات ، وأغمي عليها .. ولبثت ساعات حتى استعادت وعيها .

وفي افريقيا الغربية ، سجل العالم الانثـروبولـوجي النفساني م. جـان راوش M. J. Rouch فيلماً خاصاً عن قبيلة (سونجاي) التي تعيش على ساحل العاج وتمارس الرقص على دقات الطبول . وكان يسودها الاعتقاد لا بحلول الأرواح القديمة فيهم ، بل بحلول الشخصيات الحية مثل شخصية حاكم المستعمرة أو كبار ضبّاطه من ذوي النفوذ التحويري في سكان المنطقة الأصليين . والأغرب من كل ذلك اعتقادهم إمكانية حلول الأشياء غير العاقلة فيهم أيضاً ، كماكنة القطار البخارية !.

ويصف جوستاف بولندر G. Bolinder كيف ترسخ تعاليم ومثاليـات الثقافـات البدائية والقبلية في أدمغة أطفالها الناشئين : « يؤخذ الأطفال بعيداً عن آبائهم وأمهاتهم

(١٩) Deren. M. (1953). (Divine Horseman), p. 86.

كيف أن الرقص عند بعض المجتمعات البدائية يستبدل بشعارات وطقوس أخرى لها نفس المفعول . ففي شمالي غينيا الجديدة مثلاً وبين كثير من قبائل استراليا ، يستخدم (الختان) كأول خطوة إلى تأهيل وتحوير أفراد القبيلة الصغار . وتسود بينها الفكرة القائلة إن وحشاً اسطورياً يبتلع الفرد ثم يمجه أو يتقيئه ، وإن صوت الوحش يأتي مع همهمة وصفير « الخشبة الدوارة »[٢٠] وتفسر عملية الختان بأنها لدغة أو « جرح » أحدثه الوحش نفسه أثناء لفظه له أو قذفه من بين فكيه . ويترك الأطفال والصبيان بعد الختان بضعة اشهر وحيدين ، وتحرم عليهم رؤية الفتيات أو لمسهن . ويعيش الصبيان في كوخ مستطيل يمثل أحشاء الوحش . فإذا ما انتهت الحفلة وأعيد الصبيان بعد « تخرجهم أفراداً صالحين محترمين .. استقبلتهم القرية بالزغاريد ودموع الأفراح وكأنهم رهبان تخرجوا حديثاً من تجربة وتمرين عسير ، أو كأنهم مهتدون جدد . وهنا تجلى فكرة « الابتلاع » ثم لفظ الفريسة من الروح أو المارد المصحوبة بالرهبة والخوف والصوت العاصف وألم المبضع في الختان . ويذكر ذلك الصوت العاصف أفراد القبيلة بالوحش مثلما تتذكر حيوانات بافلوف الفيضان الكبير كلما لمحت ماءً يسيل أو يترقرق ..

والختان عملية شعائرية قديمة جداً ، يقال إنها ترجع إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد في مصر الفراعنة . وكانت تقتصر على الكهنة ، ومن ثم عممت على المحاربين ، وانتشرت بعدهم إلى عامة الذكور والاناث . ومن غرائب شعار الختان انها كانت مؤلمة جداً ، إذ يفضل قص الجلد بقطعة صخرية حادة بدلاً من السكين المعدنية أو المبضع الأقل إيلاماً نسبياً . وعملية الختان البدائية تلك تذكرنا بما يجري لدى اليهود والمسيحيين والاسلام من ختان أو تطهير أو تعميد . فالختان في الشرق الأوسط يحتفل به ويصخب ويكون مرعباً للأطفال لما يجري أثناءه من صراخ وزغاريد وقرع الدفوف أو الطبول وأحياناً إطلاق العيارات النارية (في الأرياف) ويميل الناس الآن إلى تجنيب الأطفال آلام الختان بإجرائه على الرضع وفي المستشفيات تطبيقاً للسنة الجارية . وللختان نظرياته ومبرراته البدائية والنفسية ، وأهمها انه يرمز إلى «إراقة الدماء » من أجل الآلهة أو العقيدة ، أو إلى اقتطاع جزء من الجسم كتعبير عن الخلود ..، أو إلى « التضحية » الشعائرية ..، أو إلى كونه إجراء يؤهل الفرد الصغير لدخول طبقة أو زمرة الكبار المعتبرين ولاتمام انتمائه الكامل لجماعته[٢١]. أما طقوس « التعميد » Baptism أو التطهير في الكاثوليكية فقد كانت موضوعة للبالغين ، إلا أنها تجري الآن حتى على الرضع ، ولها شعائرها الخاصة أيضاً . وقد استعيض عنها أحياناً بطقوس « التحقيق » أو التأكيد confirmation . ويمر الصبي

---

(٢٠) آلة خشبية مربوطة بحبل تدار بسرعة كبيرة فوق الرؤوس فينتج عن دورانها صوت يشبه العاصفة أو الثور الهائج .

(٢١) الانسكلوبيديا البريطانية (١٩٦٧)، مجلد ٥ ص ٧٩٩ .

فالمنتمي الحديث إلى ذلك المذهب يوضع تحت مراقبة ورعاية مجموعة من الكهنة المتحجري العواطف وتحيط العزلة بالقادم الجديد ويغمره صمت ثقيل . ثم يسقى من شراب معرق .. فيتصبب منه العرق غزيراً . ثم يغفو في كوخ معقود من الأغصان ويوضع على سرير من الأوراق والأزهار .. وتنبعث موسيقى عذبة .. ويعد لتناول « ثمرة الحياة » ، وليختار بين الطريق الحق أو المسلك الباطل . وعندئذ يلقن أسرار العقيدة وفلسفتها بعد أن يتطهر بالنار والماء ، وبعد أن يتم له ذلك .. يحضى المنتمي الجديد بكلمة السر ويسمح له بمعاناة أعظم وتجربة أعمق ، ليستطيع بعدها أن يتلقى مزيداً من الأسرار الخاصة بكاهنة المعبد (ديمتر) . وأثناء تلك التجربة الخطيرة ، عليه أن يمتنع عن تناول اللحوم والثوم والباقلاء والسرطان والبيض وأنواعاً معينة من السمك ، ويبقى صامتاً طاهراً نقياً بعيداً عن الممارسات الجنسية .. ولا يشرب إلا الماء المقدس ، ويستحم في ماء البحر ويتناول المسهلات . عندئذ يسرع الكهان في اجراء طقوس « الموت والحياة » عليه : يتعرى الكاهن الجديد في المعبد ويقدّم إلى « الحاكم » الذي ينطق بحكم الإعدام عليه . ويبادر أحد المساعدين إلى اقتياده نحو منحدر يؤدي إلى كهف مظلم يمثل عالم الموت وما تحت الأرض حيث يسمع صراخ وعويل « الملعونين » . وتترآى له أشباح مخيفة من وحوش وأفاعي . وفي أثناء ذلك ، تهاجمه أيدٍ خفية وتلطخه بالقاذورات فلا يستطيع الفرار .. لأن أسواطاً نحاسية تلاحقه من الخلف . ثم يؤمر بالاغتسال في بركة ، ويتطهر ثانية تمهيداً للمحاكمة الثانية . وهنالك ، يحكم عليه بالقصاص وينفذ فيه « العقاب » حالاً على النحو التالي : يمسك من شعر رأسه .. ويطرح أرضاً .. وتضربه « العفاريت » دون أن يجرأ على الدفاع عن نفسه . فإذا ما بلغت به المهانة واحتقار الذات إلى الدرجة المطلوبة ، بادره الكاهن السري برفع معنوياته وتلطيف معاناته بجرع من شراب مأخوذ من (نهر النسيان) Lethe لكي ينسى الماضي بما فيه . ويؤخذ بعدئذ إلى دائرة سحرية فيدور حولها ويدور بتؤدة وجهد ... ويدور .. إلى أن يتمكن من الانفلات من سحرها بعد أن يتلقى وحياً أو إشارة من الالهة نفسها بأنه بعث من جديد ومنح اسماً جديداً يختلف عن اسمه المعروف سابقاً بين جماعته . فإذا ما « ردت إليه الحياة » ، خرج إلى فسحة مضيئة مبهجة ، وارتدى مسوحاً جديدة ، وتناول الحليب والعسل ، وشارك جماعة المتنورين و « الحكماء » . وينتهي الاحتفال بأن يشترك في « الزواج المقدس » ليرقى إلى قمة الاسرار . وهو زواج لا جنسي يتم في الظلام بينه وبين كاهنة المعبد (ديمتر) .

وقد لاحظ البروفسور جورج تومسون أن عدة كتاب يونانيين وصفوا عين الحالة الإنفعالية والجسمية للمريدين والمنتمين إلى (السر الأعظم) في المعابد والتي تتلخص بالارتعاش والاهتزاز والتعرّق الشديد والتشويش الفكري والألم والذعر والصدمة على الدماغ ... ثم الحبور الممزوج بالحذر والاضطراب . وما يجري في (كورنث) وفي (تروفونيوس) من طقوس وشعائر يشابه كثيراً أسرار معبد (يوليسوس) الآنفة

محل كان . ولذلك طلب أحد أشراف روما الإذن من الامبراطور (كاليجولا) أن يسمح له بإجازة كي يسافر الى انتيسيرا ليعالج هناك . وربما كان المعالجون النفسيون من الجنس اللطيف . وكان مفعول العقاقير النباتية تلك خليطاً من التخدير والإسهال. وبعامل الصوم والاسهال والتخدير والإيحاء المستمر من المعالجات .. يحدث ما يشابه العلاج النفسي الحديث بالأدوية والتخدير والإيحاء. ويذكر المؤرخون دايوسكوريدس Dioscorides وبليني Pliny وبوزانياس Pausanias ان المرضى المصابين بالهذيان والجنون والشلل والميلانخوليا كانوا يعالجون هناك ، وان العلاج يبلغ درجة من القسوة والإنهاك قلما يطيقه أحد أو يجرأ على تجربته . ولما طال مكوث عضو مجلس الشيوخ الآنف الذكر ..، أرسل له الامبراطور كاليجولا سيفاً - كأمر رمزي بالانتحار - وكتب له يقول : « .. إذا كانت عقاقير أنتيسيرا لم تنجح معك لحد الآن ، فالأحرى بك أن تجرب إسالة دمك .. » .

والحروب القديمة - كالحديثة - عرّضت الانسان إلى شدائد جسيمة ونفسية ، وجعلت دماغه فريسة التحول السريع أو الانهيار . ويذكر المؤرخ سوتونيوس Suetonius في كتابه (تاريخ اثني عشر قيصراً) ان أحد قياصرة روما كان يمتلك فصيلاً منتخباً من حملة الصقور الجارحة . وكان يفاخر بشجاعتها ويباهي بإقدامها وإخلاصها . وفي المعارك الطويلة المرهقة التي دامت أكثر من عشر سنوات في بلاد الغال (فرنسا) ، اصيب محاربان من حملة الصقور بأعراض « هستيرياالمعركة » . ولما حاول القيصر ايقافهما وردّ الاتزان اليهما ، هاجمه أحدهم بالصقر الذي على يده ..، أما الثاني فقد ترك الصقر بيد القيصر وفرّ هارباً ...

أمثلة من التاريخ الديني :

وعرف الإنسان قبل عشرات القرون مفعول الشعور بالإثم والندم والخطيئة على الدماغ .. وعرفه شعوراً مرهصاً وشدة ساحقة تؤثر في فعالية المخ . والشدائد على أنواعها تجعل المخ قابلاً للالتقاط والإيحاء فالانعطاف من إتجاه إلى آخر في المذهب والعقيدة.

وقد ارتكب اليهود خطيئتهم الأبدية ضد السيد المسيح ..، اعتقلوه وحاكموه ونفذوا فيه الصلب الوحشي . ولاحقهم الشعور بالخطيئة على جنايتهم تلك . ومرّت عقود .. وانتشر الإيمان بالدعوة المسيحية في ربوع فلسطين وحواليها . وفي كتاب أعمال الرسل والحواريين فصول وأمثلة كثيرة على أثر الانفعال والشعور بالخطيئة والرهبة في تحويل الكثير من النادمين إلى الإيمان بالتعاليم المسيحية الانسانية . ويقال ان القديس (لوقا) هو الذي كتب فصولاً عن أعمال الرسل والحواريين ، وأوضح من خلال شروحه حقائق فسلجية - نفسية عن عملية التمذهب والتحول الفكري لأنه كان طبيباً أيضاً ومن جملة ما ذكر : انه لما صعدت روح المسيح إلى السموات العلا ، ومرت السنون ..، وشرع القديس بطرس بعد زمن يعظ الناس على جبل الزيتون ..، اعتنق الديانة المسيحية في يوم واحد ثلاثة آلاف من

شعب واحد بعد فترة من احتكاك وتنافس . وهكذا وجد الدين الوثني الأول للاغريقيين جنباً إلى جنب مع المذهب الديونيسي . كذلك عاشت حركة ويسلي الدينية (الميثودست) مع الدين الأرثوذكسي التقليدي في انكلترة . إلا أن الطريقة التي تنشأ فيها الحركة الفكرية والمذهبية والكيفية التي يدخل فيها الناس إلى جماعة ما وينضوون تحت لوائها قد تتم أحياناً بطريقة جماهيرية حادة . ومن بعدها تتخذ وتواظب على عملية المذهبة والتحوير المنظم الهادف . وقد رأينا في الجماعات البدائية ثم بين المذاهب القديمة كيف كان الصوم والجوع والإرهاق الجسمي والعقاب والألم وإدخال الرعب إلى القلوب ، ثم تنظيم عمليات التنفس بطريقة (اليوجا) ، والتطبيل والتزمير والرقص والغناء والنشيد الرتيب ، واستخدام السموم أو العقاقير العشبية ، والبخور .. التي تثير العواطف الحادة من قلق وغضب وصراع عقلي وشعور بالرهبة والاحساس بالخطيئة والقابلية الشديدة على تقبل الايحاء والتعاليم والأفكار الجديدة .

الاندفاعات الجماعية الوبائية :

ومن الأمثلة الصارخة على الإيحاء العام الشامل الذي يخرج عن إرادة وسيطرة الأفراد هو « هستيريا الجماعات » . وقد تنشأ النوبة آنياً وتلقائياً ، وقد تنتهي بعد أن يكون موضوع النوبة قد انغرس في عقول المئات والآلاف من الناس .

والرقص البدائي الشعائري مثال على الإيحاء العام وسيطرة روح الآلهة على المحتفلين . وقد ثبت من تخطيط الدماغ أنه إذا سلطت على المخ أضواء أو أصوات - عن طريق الحواس - بالطبع فقد تؤدي،أحياناً إلى حدوث نوبات صرعية إختلاجية والرقص والترتيل والقرع الرتيب كلها حوافز من هذا النوع تؤدي بالعقل إلى حالات وأدوار التحفزات المذكورة في تجارب بافلوف على الكلاب . فإذا ما صاحب الرقص تناول الخمر أو العقاقير الخاصة ، كان الانهيار العقلي والجسمي أكثر احتمالاً ، وأصبح الإيحاء أسرع نفاذاً .

ويذكر (ج. ف. هيكر) في كتابه (أوبئة العصور الوسطى) نفس الظواهر عن الرقص الجنوني الذي انتشر بين سكان أوروبا بعد الطاعون (الموت الأسود) في القرن الرابع عشر الميلادي . يقول هيكر : « .. وعندما كانوا يرقصون .. فلا هم يسمعون ولا يبصرون ولا هم يستجيبون إلى الحوافز الخارجية . تتراءى لهم الرؤى والهلوسات والأرواح التي يهتفون بأسمائها بين حين وآخر . فإذا ما أفاقوا ، قال بعضهم إنهم أحسوا كما لو انهم غمروا في أمواج من الدماء وكان عليهم أن ينتفضوا عالياً هلعين .. » . واستمر جنون الرقص وانتشر ، ولم يدر أحد كيف يعالجه إذ كانت الكنيسة وحدها المختصة بذلك . إلا أنه في بداية القرن السادس عشر نظر إليها البعض كمعضلة وظاهرة شاذة كما فعل

عن الفعل الجنسي المكبوت[٢٨] .

وتلعب الغرائز المكبوتة دورها في النوبات الجماعية الهستيرية التي تجتاح الأديرة أو المؤسسات المحدودة . ويعطينا الدوس هسكلي مثالاً تفصيلياً في قصته (شياطين لودن)[٢٩] على ما حدث في دير في فرنسا في القرن الثامن عشر عندما بدأت إحدى الراهبات بالمواء كالقطط .. فتبعتها أخرى ، فأخريات ..، حتى أصبحن جميعاً قططاً تموء . ولم يتوقفن عن ذلك حتى تهددهن بوليس الأمن . كذلك انتشر جنون الرقص في أديرة هولندة وألمانيا وايطاليا . وكان الطابع الجنسي فيه واضحاً ، إذ لم يقتصر الرقص على الهز والصياح ، بل تعدّاه إلى العض والتعري والكشف عن أعضاء الجسم والتكشير واقتلاع الشعر من جذوره ، وحتى النباح الجماعي .

التبشيــر :

والتبشير لأي دين كان ما هو إلا محاولة للتأثير في جماعة وتبديل اتجاهاتها ومعتقداتها الأولى إلى المذهب المبشر له . وقد اصطدم التبشير دوماً بالتقاليد والعقائد البدائية والطقوس الراسخة التي أتينا على ذكر قسم منها . وللأحلام خطورتها في العقل البدائي كما لها مغزاها في علم النفس الحديث . وتتجلى خطورة الأحلام في تقرير نجاح أو فشل أعمال البعثات التبشيرية أحياناً . ويذكر (سندكلر) في كتابه (أنبياء البانتو في جنوب افريقيا) كيف كانت القبائل البدائية الافريقية تعلق أهمية قصوى وحاسمة على الأحلام . والمبشر المسيحي يستخدم أحلام البدائي ويجسدها له بشكل يساعد على التبشير والمذهبة . ويذكر المصدر ذاته كيف أن بعض البعثات التبشيرية فشلت وأهينت وافتضح أمرها بسبب ولع الافريقيين وإصرارهم على مغزى الأحلام ونوعيتها مما أثار دهشة تلك البعثات وصدمها ، إذ أنها كانت تعتقد أن نجاح التبشير يعتمد على الإرادة والعقل والانقلاب الروحي في المنخرط الجديد بينما اتضح لهم بعدئذ أن المسألة كلها تعتمد على علامات و« نذر » وتفسيرات ورموز تتجلى للبدائيين في أحلامهم !!. وكان من جملة تلك العلامات التي يتوقعها الافريقي أن تتراءى له في أحلامه لكي يقبل على اعتناق المسيحية هي : الأضوية ، الملابس اللماعة ، جماعة من المسيحيين على الضفة الأخرى من النهر يشيرون اليه بالعبور نحوهم ..، ثم طول أو قصر العشب الأخضر ..، أو تفاصيل دقيقة أخرى في الملابس ..

وقد حصل التبشير على زخمه واندفاعه مع ظهور البرجوازية فالاستعمار منذ عام ١٧٦٥م في فرنسا وغربي أوروبا فبريطانيا ، واصبح قوة هامة تلعب دوراً في الحياة الاجتماعية والسياسية لما يمتلكه أو يستخدمه من مؤسسات تعليمية وطبية ودينية

---

(٢٨) Brown, C. G. (Techniques of persuasion), Penjuin, P. 229

(٢٩) Huxely, A; (The Devils of loudin).

الجوكولاته : فالسكر والكاكاو والمعاجين .. مع بعض الروائح ، تمزجها الآلة .. وتعرضها لحرارة وضغط ورطوبة خاصة .. ثم تقطعها وتصوغها بأشكال معينة ..، ثم تغلفها بأنواع الأوراق الملونة الجذابة ، فإذا بها (شوكولاتة السعادة) أو (بون بون الأفراح) أو (ملبس العافية) !!. وهذا تشبيه ظريف وساخر بالطبع مع مغالاة ميكانيكية . ومن جملة المغالين في تلك الآراء الميكانيكية وليم سارجنت W. Sargant والدوس هكسلي ، إذ يعقّب الأخير بقوله : « .. لا يوجد أي انسان مهما بلغت ثقافته وتمدينه أن يحتفظ باتزانه وقابليته النقدية إذا ما أصغى طويلاً إلى طبول الافريقيين أو أغاني البدائيين أو ألحان الويلز . ومن المسلي جداً والمثير حقاً لو أخذنا بجماعة من مشاهير الفلاسفة المنتقين من أشهر جامعات العالم ، ووضعناهم في غرفة حارة مع دراويش مراكش أو قبائل هايتي ، واختبرنا مدى احتمالهم ومقاومتهم ـ بساعة توقيت ـ تحت تأثير الأصوات والترانيم الصاخبة الايقاعية النفاذة . كل ما يمكنني التنبؤ به انهم ـ بعد فترة مناسبة سوف يشرع فلاسفتنا بالغناء والصراخ والقفز والرقص مع الجهلة والبدائيين . أما من قاوم منهم تأثير ذلك ، فإن نصيبه بدون شك غسل دماغ من نوع آخر وإجهاض عصبي مستمر ينتهي بالتحويل المطلوب . » . وفكرة هكسلي تلائم نظرية العالم النفساني الفرنسي (بودوين) الذي يقول : « عندما تفرض فكرة ما نفسها على عقل إنسان إلى درجة الإيحاء ، فإن كل محاولاته الإرادية لمجابهة تلك الفكرة قسرياً ومقاومتها تسير على عكس ما يشتهيه ويتمناه عقله الواعي ، وقد تزيد من حدة وتكرار تلك الفكرة .. » . ونجابه ذلك أحياناً في حياتنا اليومية عندما نريد أن نتذكر شيئاً ما بجهد وإلحاح فإنه يمتنع علينا بعناد . أما إذا استرخينا وأطلقنا لذاكرتنا عنان الحرية إذا بذلك الشيء يقفز إلى مستوى الوعي . وقد واجه سارجنت كما واجه هكسلي نقداً لوجهات النظر تلك ولاعتبارهما العقل البشري أشبه بالعجينة سهل الصياغة والقولبة للمذهبة والتحوير . وسنناقش هذه المعضلة مع المناقشين بعدئذ .

أمثلة من التاريخ العربي :

وطالما نحن بصدد الحديث عن المذهبة في القرون الغابرة ..، وحيث أن وسائل الاقناع وكسب الرأي العام وتحويل الاتجاهات هي من جملة التحوير الفكري أيضاً .. فلا بد أن لا نغفل شيئاً من التاريخ العربي والإسلامي القديم ونأتي بنتف منه استكمالاً لهذا الفصل . وقد كانت الفتنة والنزاع منذ أيام الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية سبباً في ظهور فرق سياسية ـ دينية متعددة ، راحت كل واحدة منها تعمل على لمّ أتباع لها ومؤيدين لوجهات نظرها ومبادئها . ولم يتم ذلك بدون وسائل إقناعية وإعلامية للتأثير في الناس وتحوير اتجاهاتهم . ونحن نخالف بعض المؤلفين الغربيين الذين يؤرخون ظهور الدعاية في أيام نابليون بونابرت ..، بل لعل الاعلام الرسمي والتثقيف الشعبي ومحاولة التأثير في الرأي العام بدأ بصورة واضحة في أيام حكم الأمويين . أما ما قبل ذلك التاريخ فقد كان

ولما أتى العباسيون ، انقلب الأمر وأصبح الاعلام والدعاية معاكساً لما جرى عليه . فالأحاديث الموضوعة أصبحت تذم الأمويين وتعلي من شأن العباسيين . وفي كتاب (الخلفاء) للسيوطي فصل بعنوان « الأحاديث المنذرة بخلافة بني أمية » ، وبعده فصل بعنوان « الأحاديث المبشرة بخلافة بني العباس » !! مما يدل على تكييف الأحاديث ووضعها خدمة للاعلام الرسمي آنذاك . وانساق الشعر في دروب الاعلام وانعكست عليه خلافات العباسيين والأمويين والعلويين ، وروّجت كل فئة لفرقتها وجماعتها . وقد كان أهم ما حارب به العباسيون الأمويين التأثير في المؤرخين حتى يصبغوا الأمويين بلون قاتم مظلم ، والعباسيين بلون زاهٍ ناضر .. ووضع الخلفاء الأولون من بني العباس وآلهم البرنامج للمؤرخين في الطعن في بني أمية ، فسار المؤرخون على منهاجهم وتوسعوا في تكميل خططهم . منها ما أشاعوا عن الوليد بن يزيد من أنه : « أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة » وهو قول لا يسيغه العقل من خليفة للمسلمين مهما بلغ فسقه وفجوره ، ومن أن هشام بن عبد الملك دعا حماداً الشاعر وأمر جواريه أن يسقينه ، فما زلن يسقينه حتى ذهب عقله !... ولم يكن هشام يشرب ولا يسقي أحداً بمحضره مسكراً . وتقرب المؤرخون بذكر محامد بني العباس وإعلاء شأنهم ، وعوقب من تعرض لذكرهم بسوء .

وجدّ علماء السوء في وضع الأحاديث لتأييد هذا الاتجاه ، كما جدّوا قبل ذلك في تأييد اتجاهات أخرى . ووقف العلويون موقفاً مناقضاً ومناهضاً للطرفين لما رأوا من العباسيين من سوء المعاملة ، ومن الأمويين من قبلهم على السواء ، فانتقدوا الطرفين وأذاعوا مساويهم . وكانت النتيجة اضطراباً في الرأي العام الإسلامي والعربي وانقساماً فيه والتباساً في الأمور على المؤرخ الصادق والمتفرج المحايد .

أمثلة من فرق أخرى : الشعوبية ، الاسماعيلية ، الحشاشون .

ظهرت فئات وفرق وجماعات مختلفة في التاريخ العربي والاسلامي كان لها بعض الآراء والمبادىء فيما يخص الخلافة أو الإمامة أو العصمة أو العروبة والعجمة ، واتخذت التحريف أو التطرف أو التفرقة مساراً لها . وقادها على التوالي أشخاص مغامرون ذوو طموحات معقدة وملتوية الدوافع . ولأجل الاحتفاظ أو زيادة أعدادهم وغرس افكارها واتجاهاتها فيهم لجأ الى إحاطتهم بأسوار من الاعراف والتعليمات والبرمجة التي تضمن بقاءهم وكيانهم ونشر دعوتهم،ويلاحظ ان اكثر تلك الفرق ترعرعت في جو من الصراعات والانشقاقات في الدولة العربية ـ الإسلامية ، وكانت تنتعش وتقوى أو تجد لها السند في بلاد فارس ... ونذكر منها (الشعوبية) و (الراوندية) و (الباطنية) و (البابكية) و (البابية) .. الخ ..

أ ـ والشعوبية : تيار اتخذ من الدين ستاراً له وعبّر عن نفسه بطريق الأدب والدين والسياسة . واصبح هذا التيار مجالاً واسعاً ومرتعاً خصباً للحاقدين والحاسدين والزنادقة والمتنكرين للقومية العربية .. فكانت الشعوبية مظهراً للانتهازية السياسية . ولم

من راقب الناس مات هماً   وفاز باللذات الجسور

ومن رآه شاكاً في دينه أو في الميعاد أو الثواب والعقاب صرح له بنفي ذلك وحمله على استباحة المحرمات » . ومن هنا يتبين لنا ان الإسماعيلية كانوا مستعدين لاعتماد أي أسلوب ممكن لتحوير فكر المدعو وغسل دماغه وتشكيكه ثم كسبه الى صفهم . وفي رسالة وجهها أحد زعماء الإسماعيلية إلى واحد من دعاته يقول له فيها : « أدعُ الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منه رشداً فاكشف له الغطاء » .

وهكذا نجحت الإسماعيلية في استمالة الآلاف في مناطق متعددة وجعلت منهم على مر القرون أطوع من البنان ، يضحون بكل غال لارضاء زعمائهم وتقديم الهدايا اليهم بما يعادل عشر مدخولاتهم وبما يعادل وزن زعيمهم ذهباً .

وفي عهد الدولة الفاطمية ، اصبح الاعلام اكثر تنسيقاً وتنظيماً ، فقد كان اساس الدعوة الفاطمية ـ كما رأينا ـ الدعوة والدعاية بأوسع معانيها سراً وجهراً مع دقة في اختيار الأساليب المختلفة التي تناسب العامة والخاصة ، والجاهل والعالم ، والمتدين والملحد ، والغبي والفيلسوف . وقد وضع (ابن هانيء الأندلسي) أول خطوات « الإعلام الرسمي » وهو بالمغرب عندما اتصل بالمعز فاتح مصر ومؤسس القاهرة[٣٧].

وسنأتي على تفصيل التنظيم الإعلامي لدى الفاطميين ، لكن الحكاية التالية توضح مدى ادراكهم لأسس الحرب النفسية والتحرك العسكري الناجح والسيطرة على الآخرين بالمعرفة الصحيحة والدقيقة لأخلاق وطباع الناس المستهدفين مثلما يجري الآن من قبل الأنظمة التي تجمع كل صغيرة وكبيرة عن الشعوب والأمم والدول الأخرى . فقد قال (المقريزي) في (خططه) أن أم الأمراء (والمراد بها أم الخلفاء والدة المعز لدين الله) وجّهت من المغرب صبية لتباع بمصر مع وكيلها ، وكان ذلك على سبيل التحسس (أو التجسس) لمعرفة أخلاق البلاد والعباد ، فعرضها بألف دينار . فحضرت إليه في بعض الأيام شابة على حمار وساومته الصبية على ستمائة دينار ـ فإذا هي بنت الإخشيد سلطان مصر ـ كان قد بلغها خبر الجارية فلما رأتها شغفتها حباً فاشترتها لتستمتع بها . فعاد الوكيل إلى المعز وأخبره بما وقع ، فأحضر الشيخ وأمر الوكيل فقصّ عليه خبر ابنة الاخشيد مع الصبية الخ ، فقال المعز : انهضوا الى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء فإن القوم قد بلغ بهم الترف الى ان صارت امرأة من بنات الملوك تخرج بنفسها وتشتري جارية تتمتع بها وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم . فقالوا السمع والطاعة ، ونهضوا ـ وكان الفتح[٣٨].

---

(٣٧) احمد امين ، (ظهر الاسلام) ، جزء ١ ، ص ٢٠٦ .

(٣٨) مصطفى نجيب ، (حماة الإسلام) ، جزء ٢ ، ص ١٠٢ .

وسائل الإقناع وغسل الدّماغ

١ ـ الاتجاهات .. والرأي العام
٢ ـ آلات التحوير الفكري .. قديماً وحديثاً

وجدنا أن حرباً على الدماغ ومن أجل الدماغ تدور رحاها في كل بقع العالم ، وكل برهات الحياة ، وبين شتى الجماعات البشرية ، منذ أقدم العصور وحتى الآن . وللحرب الدماغية آلاتها وفنونها وأحابيلها . وقد كانت تلك الوسائل والفنون تجريبية وعفوية في القرون الغابرة ، فأصبحت الآن ـ بفضل العلوم النفسية والفسلجية التي استعرضناها ـ، أصبحت تقنية منسّقة ومخططة وعرضة للدرس والتغيير والتطوير المستمر . وأصبح من البديهي أن نتطرق لتلك الوسائل المؤثرة في المخ البشري لتديره وتسيّره في الاتجاه المطلوب . ولما كانت تلك الوسائل جميعاً ترمي إلى تغيير الإتجاهات والرأي العام والفردي ..، فقد غدا لزاماً علينا أن نعرف شيئاً عن ماهية الاتجاهات والآراء ، وكيف تتكون وتتطور، وما هي أركانها .. وكيف يسير التغلغل فيها وتحويرها ، ثم الوسائل المتبعة في ذلك قديماً وحديثاً ..

الاتجاهات .. والرأي العام :

لما كانت وسائل الإقناع والمذهبة ترمي إلى تغيير نظرة أو عقيدة أو سلوك في الإنسان واستبدالها بأخرى ..، فيجدر بنا أن نعرف مسبقاً كيف تكونت تلك الفكرة الأولى ، وكيف اتخذ ذلك الفرد وضعية ونظرة ما تجاه أي مظهر من مظاهر حياته الواقعية أو المثالية .

وقد عرفنا أن من العبث افتراض « طبيعة بشرية » واحدة يشترك فيها كل الناس في كل أنحاء المعمورة ، لأن كل مجتمع أو ثقافة محلية تمتاز بصفات تختلف عن أخرياتها . وينجم هذا الاختلاف عن العادات والمفاهيم السائدة فيها وليس بسبب اختلاف في الوراثة أو التركيب الفسلجي . فالاسبان لا يتصرفون كالانكليز ..، والفرنسيون غير الألمان .. وغير الروس .. وغير الأمريكان ، والعرب ليسوا كالصينيين . وتتصل هذه الفوارق بجذور تاريخية ومحيطية وتقليدية ودينية عميقة . فالطفل الناشىء في ثقافة معينة هو كالمادة الخام يصوغها الكبار في قالب خاص ، ويغرسون فيها الاتجاهات والأفكار السائدة في تلك الجماعة . ولا شك أن « للطينة » التي يصنع منها الكبار هيئات صغارهم أثراً في الصياغة

وكل ما يتبع ذلك ويترتب عليه من سلوك نحوها ، هو ما نعني به « الاتجاهات » . ويعرّف جوردن البورت الاتجاهات بما يلي : « حالة عقلية ـ عصبية من التهيؤ ، تؤثر في استجابة الفرد لكل المواضيع والمواقف ذات الصلة به » . ويعرفها (بوكاردس) : « هي الميول أو النفور من عامل محيطي اكتسب قيمة ما تجاه الفرد » . « .. فردّ الفعل لدى فرد أمريكي أبيض تجاه الزنوج يتوقف مثلاً على عدة عوامل منها إذا كان يعيش في الولايات الجنوبية أو الشمالية من الولايات المتحدة ! وكذا يصطبغ اتجاه وشعور أي فرد نحو ظاهرة أو حدث أو أناس آخرين بصبغة الصداقة والعطف ، أو النفور أو الارتياح ، أو السيطرة والتعالي ، أو الخضوع والاستكانة ، أو الاحترام والتبجيل . وقد جاءت هذه الاتجاهات بنتيجة تجارب حياتية مسبقة منها العقابية ومنها المكافئة ، ومنها اللذيذة أو الناجحة أو الفاشلة . ولنأتي بالمشهد الآتي :

يقرع جرس الباب ، وتركض الطفلة إلى الطارق المجهول ، ثم ترجع إلى أمها ليجري بينهما الحوار التالي :

ـ ماما ، سيدة في الباب تريد مواجهتك ..

وتذهب الأم وتعود لتقول لطفلتها مؤنبة :

ـ لم تكن بالباب سيدة !.. انها امرأة زنجية ، ولا يدعى الزنوج بألقاب سيد أو سيدة !..

وهكذا تعلمت الطفلة الأمريكية البيضاء درساً طرياً ، واتخذت من بعده « إتجاهاً » خاصاً نحو الزنوج . كيف تتكون الاتجاهات إذن ؟ وكيف تصبح موضع الاهتمام الشديد في العصر الحديث ، وفي حياة كل إنسان ؟ .

كذلك تتكون الاتجاهات في افراد المجتمع القديم تجاه الافراد المهاجرين أو القادمين الجدد ، والى يومنا هذا . وقد تحدثت الصحف والاذاعات الأمريكية وظهرت تمثيلية مسرحية تشرح كيف ان الفرد الأمريكي ينظر الى الصينيين الجدد باحتقار ويعتبرهم طفوليين واتكاليين ويطلق عليهم اصطلاح (القادم من الباخرة) Just off the board . وكانت التمثيلية بهذا العنوان ذكرتها اذاعة (صوت اميركا) في تشرين أول ١٩٧٩ واشارت الى انها ترمي إلى تغيير هذا الاتجاه نحو القادمين الجدد وتبيان حالتهم النفسية ووضعهم الانساني .

كيف تتكون الاتجاهات ؟

تتكون الاتجاهات وتنضج بخطوات وتطورات عديدة أهمها ما يلي :

١ ـ في فترة نمو ونضج الطفل العقلي في السنين الخمس أو الست الأولى .

٢ ـ بالمصاحبة مع أشخاص وجماعات وهيئات ـ رسمية أو غير رسمية ـ تؤثر فيه باستمرار .

٣ ـ التجارب الشخصية الحادة والنادرة خلال حياة الفرد (والتي ذكرنا أمثلة

فالمستوى البسيط (الضحل) يقتصر على آراء عابرة يصرح بها الفرد في مناسبة ، وقد يؤمن بها أو لا يؤمن بها ، كأن يمتدح الشاي الذي قدمته له زوجة صديقه ، أو أن ينتقد موقفاً خاصاً اتخذه الممثل الفلاني أو المطربة الفلانية أو الزميل الفلاني .

والمستوى الثاني ، عندما نكرر ذلك الرأي لمدة طويلة وبفترات متفاوتة ، كأن نصر على رأينا في ذلك الممثل أو تلك المطربة أو ذاك النوع من السيكاير . ويعتبر هذا المستوى من الاتجاه بمقام رأي خاص أيضاً .

والمستوى الثالث (المتوسط) ، عندما يتخذ الرأي مواقف متجانسة ، كأن يكون الفرد ممن يصرح بالرأي القائل إن حقوق الزنوج يجب أن تكون متساوية مع حقوق البيض في أمريكا ، وأن يعيد ذلك الرأي في مناسبات متعددة . أو ان يؤيد كفاح الأفريقيين في المستعمرات والحكومات البيضاء العنصرية للحصول على حقوقهم الشرعية في أرضهم ، أو إن ينتقد حكومة جنوب أفريقيا لموقفها اللاإنساني البربري تجاه السكان الأصليين ..، أو أن يعارض فكرة الحد من هجرة سكان جزائر الهند الغربية إلى انكلترة مثلاً ..، أو أن يكرر بأن الصهيونية مخادعة للشعب الأمريكي وذات نفوذ على الحكومات الأمريكية المتعاقبة ، أو أن يقول في كل مناسبة أن الحرب الفيتنامية تصعّدها الولايات المتحدة خلافاً لكل القيم الانسانية .. الخ الخ . وهذا المستوى من التفكير والاتجاه يدل على وحدة وتجانس عام ومتكرر .

والمستوى الرابع (العميق) من الاتجاهات هو ما دعاه (آيزنك) بالاتجاه الاجتماعي الأولي ، أي الذي يتخذ صورة عقيدة متممة لشخصية الفرد الاجتماعية . وهو اتجاه يتجاذب ويتآزر مع صفات الشخصية الأولية وطباعها ، ويكون اتجاهاً صلباً لا تؤثر فيه قوى الدعاية أو غسل الدماغ إلا بجهد جهيد وتتبع شاق . لنأخذ مثلاً الشخصية « الآمرة » المذكورة في صفحات سابقة : قد تكون امرأة متزمتة .. ومحافظة .. ومطيعة ، مثالها الأب والأم (وكذا أناها الأعلى) . وصفاتها تلك تحبب لها حزب المحافظين ـ في انكلترة مثلاً ـ . لذلك ، فهي تحضر اجتماعات الحزب ، وتردّد آراءه ، ولا تلبث أن تكوّن لها اتجاهاً صلباً جامداً ينعكس على حياتها وبيتها ..، وفي تأييدها للقوانين العقابية الصارمة ..، وفي تأييدها لحكم الاعدام ضد جرائم القتل ، وكذلك في اعتقادها إمكانية الجمع بين القط والكلب !. كل تلك الاتجاهات متجانسة وملتصقة بشخصيتها ، فهي اتجاهات عميقة ـ عقائدية .

والدعاية ، وغسل الدماغ لا تستطيع أن تغير من صفات الشخصية المركزية . فالانطوائي والاجتماعي والمتزمت والمدقق والمحافظ والحيوي والكسول يبقى كما هو . أما الأفكار المكتسبة والاتجاهات والألفة نحو ظاهرة أو حدث (ذات المستويات الثلاثة الأولى) فهي التي تتعرض أكثر للتبديل والتلاعب . ولا ينجح رجل الدعاية في ابدال الاتجاهات ما لم يدرس المجموعة والوسط (الثقافة) الذي ينتمي إليه الفرد ، إذ أن الانتماء يقرر

من العامة ، فقال ثمامة : « وما العامة ؟.. والله لو وجهت انساناً على عاتقه سواد ومعه عصا ، لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ،؟ وقد سواها الله بالانعام .. » . ثم قال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً . والله يا أمير المؤمنين ، لقد مررت منذ أيام بشارع الخلد ، فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو ينادي : هذا الدواء لبياض العين والعشاء والغشاوة والظلمة وضعف البصر . فنزلت عن دابتي ودخلت في غمار تلك الجماعة وقلت : يا هذا ، أرى عينيك أحوج هذه الأعين إلى العلاج ، وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلم لا تستعمله ؟ فقال : أنا في هذا الموضع منذ عشر سنين ، ما مرّ بي شيخ أجهل منك ، فقلت وكيف ذلك ؟ قال : يا جاهل أين اشتكت عيني ؟ قلت لا أدري ، قال : بمصر !. فأقبلت علي الجماعة وقالوا : صدق الرجل . وهمّوا بي ، فقلت : والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، وما تخلصت منهم إلا بهذه الحجة . وضحك المأمون »[٤٢] وهكذا كان ثمامة يحقّر العامة ورأيهم ويحمل الخليفة على ألا يعبأ بهم باعتبارهم عقبة في سبيل مذهب الاعتزال .

والحكاية تلك يمكن أن ندلّل بها على خطأ رأي العالم ثمامة من ناحية أخرى ، لأنه لما احتقر واستنكر وجود رأي للعامة .. واجهه رأي مضاد من قبل تلك الجماعة ، فتخلص من رأيهم بالحيلة !. وكان ذلك اعترافاً ضمنياً بوجود رأي للجماعة » . وكان الأصح لو قال إن رأي العامة يمكن أن تضلله دعايات وتهريجات الدجالين بسبب من الجهل والسذاجة ، وهو إن صح في تلك الحقب فلا يصح الآن إلا في المجتمعات الجاهلة أيضاً .

ونستدل مما تقدم ان مجموعة الآراء المتجانسة تشكل رأياً عاماً لا ريب فيه ، وله من الفعالية والتأثير المتبادل على الفرد الواحد بحيث يستطيع أن يحور من اتجاهات الفرد ويجرّه إلى المشاركة عاطفياً وعقلياً في الموضوع المقصود . وقد فشل علماء الاجتماع في تغيير اتجاهات البيض نحو السود لأن « الرأي العام » للبيض تمادى في تحيزه تجاه السود والانتماء إلى المجتمع الأبيض لم يفتح بصيرة الأفراد البيض إلى أحوال ومشاكل الزنوج المزرية فلم يبدلوا من مواقفهم الأولية تجاههم . لكن التثقيف الجماعي نجح في تبديل اتجاه البيض أكثر من التثقيف الفردي . وعلى هذا القياس جرت مؤخراً عادة نشر الدعاية الصحية وغيرها بالوسائل الجماعية ، كأن تلقى محاضرة قصيرة مثلاً على مجموعة من الناس ، ثم تتبعها جلسة مشتركة تدور فيها المناقشة العامة ، وتصبح بذلك « الحقيقة » المرجوّة ملكاً للجماعة ، إذ أن المناقشة والمشاركة كشفت لهم تلك الحقيقة .

ومثال آخر على مفعول الجماعة والرأي العام على الفرد الواحد ، ما حدث في الحرب العالمية الثانية . إذ أُلقيت محاضرات عديدة على الأمهات في انكلترة تحثهن على إطعام

---

(٤٢) احمد امين ، (ضحى الاسلام)، جزء ٣ ، ص ١٥٢ .

ودرجة اتصاله بالجماهير . ويضع الأستاذ العربي دكتور مختار التهامي[٤٣] التعريف التالي : (الرأي العام ، هو الرأي السائد بين أغلبية الشعب الواعية بالنسبة لموضوع أو اكثر يمس مصالح هذه الأغلبية مساً مباشراً ، أو يشغل بالها ، ويحتدم فيه الجدل والنقاش في فترة معينة .) . وبذلك اعتبر الرأي العام كرأي للأغلبية تجاه موضوع معين في ظرف معين ، وفي ذلك مرونة وشمول موفقان .

وقد يتجانس الرأي العام المحلي مع رأي عام في قطر آخر وآخر .. وآخر حول موضوع عالمي يسود بين أغلبية شعوب العالم ويشغلها في فترة معينة تجاه قضية أو قضايا تَهمّ تلك الشعوب بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وعندئذ يغدو « رأياً عالمياً » . وقد أصبحت هيئة الأمم المتحدة منبراً برلمانياً عالمياً للتعبير عن الرأي العام العالمي بغض النظر عما يتخلله من نفوذ وتيارات خفية تمارسها الدول الاستعمارية لكسب أو تحوير الرأي العام . كذلك ترتفع أصوات الرأي العام العالمي في المؤتمرات الكبرى للدول غير المنحازة ، أو عن طريق المثقفين الانسانيين ذوي المكانة والشهرة العالمية كما فعلت محكمة « برتراند راسل » تجاه بعض المعضلات والمآسي العالمية وكما يتم عن مقررات محكمة العدل الدولية .

كيف تتغير الاتجاهات والرأي العام :

الإجابة على هذا السؤال يتوزع بالحقيقة على مواضيع كتابنا هذا ـ أي غسل الدماغ بصورة عامة ـ لأنه ، كما ذكرنا في أول الفصل أن الآراء والاتجاهات في الثلاثة مستويات الأولى هي التي تتعرض للتغير السريع ، بينما تكمن الصعوبة في زعزعة وتحويل العقائد . الا ان بامكاننا ايجاز سبل تغيير الاتجاهات والرأي العام بالأسس التالية :

١ ـ تغيير الاطار العام : أي المرجع والمنبع الذي يستقي منه الفرد اتجاهاته ، ويشمل هذا الإطار : الجماعة (أو الفئة والحزب) ، الاصدقاء المقربين ذوي النفوذ ، المحيط العائلي ، المفاهيم والقيم والتقاليد العامة في المحيط أو المنطقة أو المحلة .

٢ ـ تغيير موضوع الاتجاه : أي تطويره حسب ثقافة الفرد وسعة ادراكه ، كما في المثال التالي : إن رأي بعض قطاعات الناس في رجال الشرطة حسّاس ويتراوح من الحذر الى الخوف الى عدم الارتياح والكراهية . ولاحظ علماء النفس ذلك في أمريكا لأن رجال الشرطة لهم آراء خاصة أيضاً تجاه الجمهور . فاجروا المحاولة التالية لتغيير اتجاهات وشعور الجهتين نحو بعضهما بعضاً بعقد اجتماعات مشتركة وتوعية وتوجيه اسئلة وتحليل الاجابات لمعرفة مدى نجاح العملية . وحدث فعلاً تغير ملموس في اتجاهات المجموعتين[٤٤] .

٣ ـ وسائل الاعلام والتوصيل (وسنتطرق اليها بعد قليل ..) .

---

(٤٣) د. مختار التهامي ، (الرأي العام والحرب النفسية) ، ص ٢٢ .

(٤٤) Adams and Broadman (Adrances in Experimental Psychology). p. 177.

للتدليل على عملية التوصيل والنشر - توصيل الفكرة إلى الغير ونشر القضية المعينة إلى كل من يهمه أمرها أو يجب أن يهمه أمرها . وقلنا ان (البروباجنده) اصطلاح لاتيني الأصل قصد به أصلاً التكثير النباتي بالأقلام ، ثم اكتسب معنى النشر والتوصيل - أي الدعاية .

وقلنا أن الدعاية تكتيك قديم اتهم بها هيرودوتس وغيره من المؤرخين ، كما مارسها الشعراء العرب كواجب تجاه قبيلتهم وعصبتهم . وكان سوقا عكاظ والمربد عند العرب ميداني دعاية وتوصيل لا شك فيهما ، وكذلك كان الحال في (الفوروب) أو السوق اليوناني . إلا أنه بعد التطور الحضاري ، أصبحت البروباجنده عملية تأثير في الناس وليست مجرد عملية نشر وتوصيل . وحيث أن التأثير يرمي إلى هدف ما ..، غدت الدعاية وكلمة (البروباجنده) ذات وقع سيء لدى الكثيرين . وتكاد تجمع أغلبية الناس أن الدعاية في العصر الحالي اكتسبت صفة قبيحة هي غير ما قصد بها أولاً من مجرد النشر والهداية والتوصيل . ومن المعاني الاضافية العصرية للدعاية هي ما تنطوي عليه من كذب .. وخديعة .. وتحريف .. وانحراف بعقول الغير لصالح الجهة القائمة بالدعاية .

ولعل هذه المعاني القبيحة للدعاية جاءت منذ بداية الحرب العالمية الأولى التي استعملتها في الأغراض السياسية والحربية . كذلك تضمنت الدعاية معنى غسل الدماغ ، ثم شملت كل نشاط يقوم به فرد أو مجموعة أشخاص لنقل معلومات غير مرغوبة وغير سارة أو صادقة لآخرين . فالدعاية إذن مخططة ومحدودة الغايات والنهايات ، ولا يمكن تشبيهها « بالمناقشة » أو « ادخال المعرفة » إلى عقول الآخرين لتغييرهم . كان سقراط يناقش تلاميذه بشكل أسئلة متبادلة متسلسلة ليروا الحقيقة بأنفسهم من خلال الجدال ذاك . ولم يكن سقراط رجل دعاية ، بل فيلسوفاً يرمي إلى تغيير عقول طلاب المعرفة واتجاهاتهم نحو ما هو أوسع وأعمق . فليس كل ما يبدل اتجاه الناس هو دعاية ..، لكن كل دعاية ترمي إلى تبديل اتجاهات وأفكار الناس .

ويعرف العالم النفساني - الاجتماعي (كيمبال يونج) الدعاية بما يلي : « هي استخدام مقصود ومخطط للرموز عن طريق الايحاء والوسائل النفسية المماثلة ، يرمي إلى تغيير وتسيير الآراء والأفكار والقيم والاتجاهات ..، ومن ثم إلى القيام بعمل في الاتجاه المدبر له . وقد تكون الدعاية علنية واضحة أو سرية مكتومة ، وتحدث ضمن إطار من البيئة الاجتماعية والثقافية التي لا يمكن أن تنجح بدونها . » . ويضيف العالم النفسي (دووب) على نفس التعريف السابق تقريباً بما يلي : « .. ان نشر الآراء يعتبر دعاية من قبل جماعة أخرى إذا كانت غير عادلة أو قبيحة ، أو غير ضرورية .. » ..

ولا ينطبق مفهوم الدعاية الكريه على وسائل الأعلام للصالح العام أو التثقيف الصحي والشعبي . إلا أن الدعاية لا شك تنطبق على مفهوم التعليم والتثقيف . فالتثقيف والتربية أسلوب موضوعي مجرد ، يقدم الحقائق على ضوء العلم السائد في تلك الحقبة من الزمن . أما جوهر الدعاية فهو محاولة تبديل اتجاهات الناس ، وفي مسالك قد لا تكون

والتلفاز ، لذلك أطلق عليهم اسم الناشدين أو (النشّادين)[٤٧].

وتتجلى أهمية الكلمة وخطورتها في الدعوات المذهبية والفكرية . ففي العصر العباسي الأول نجد أن المعتزلة وعلى رأسهم واصل بن عطاء قد لفّوا حولهم رجالاً كثيرين ، وبعث بهم واصل إلى شتى البلدان ليدعوا إلى مذهب الاعتزال وينشروه بين الناس . وكان ناجحاً في تأسيس جمعية وتنظيمها ووضع خططها . ويقول الصفدي : « ومن وقف على طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار علم قدر ما كانوا عليه من العَدَد والعُدَد .. » ، فالداعي والمبشر والمفكر يحاول أول ما يحاول ايصال أفكاره إلى الغير وإقناعهم بها وتكرارها ، فإدخالها إلى قلوبهم وعقولهم ، فتحوليهم وكسبهم إليه . ويصف عبيد الله بن زياد الخوارج فيقول : « فكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع »[٤٨] مما يدل على سحر بيانهم وشدة تمسكهم بعقيدتهم .

أما الشعراء والرواة فكانوا جرائد هوائية أو « مذياعاً » متنقلاً أدّى أدواره المشهورة . وأصبح من المسلّم به أن يكون لكل دويلة وحاكم وخليفة شاعر « ناطق باسمه » يذيع أخباره ومآثره الحقيقية منها والمفتعلة . ومن سحر الكلمة والشعر ، نذكر قصة الشاعر الجاهلي العربي الأعمى (الأعشى) الذي كان يرتاد سوق عكاظ كل عام[٤٩]. فقد كان المحلّق الكلابي وزوجته مهمومين لانجابهما بناتاً فحسب ، وأصبح أمر تزويجهن مسألة ثقيلة . واقترحت زوجته أن يتعرض للشاعر الأعمى ويكرمه لعله يفيدهما بشيء . وذبح المحلق ناقته الوحيدة إكراماً لضيفه ، وعرف أن له ثماني بنات وتبعتهن كبيرة . فلما حلّ موعد المباراة الشعرية ، قال الأعشى قصيدته الشهيرة :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء دار في يفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها   وبات على النار الندى والمحلّق

ثم نادى : يا معاشر العرب ، هل فيكم مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم ؟، فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها !. ألا يشبه هذا (اعلانات الزواج) الحديثة .. بأسلوب شاعري رفيع ؟ .

ويذكر المؤرخون أن المنصور بن أبي عامر الذي حكم الأندلس ربع قرن ، كان يحيط به في غزواته عدد كبير من الشعراء بلغوا الأربعين في غزوته لبرشلونة وعلى رأسهم الشاعر والكاتب الشهير (ابن دراج القسطلي)[٥٠].

فبالكلام ، استطاع الفرد أن يقنع غيره .والقوة والقسر لا يؤديان مفعول الكلمة

---

(٤٧) عبد الحق فاضل ، (مغامرات لغوية) ، ص ٥٨ .
(٤٨) احمد امين ، (ضحى الاسلام) ، جزء ٣ ، ص ٣٢٤ .
(٤٩) د. احمد زكي ، (البروباجنده) ، مجلة العربي ، العدد ١٠٩ ، ص ١٠ ، ١٩٦٧ .
(٥٠) محمود علي مكي ، (المنصور بن أبي عامر)، العربي الكويتية، ص ١٣٢ ، ١٩٧٧.

تصل الطباعة الشرق الأوسط إلا بعد قرنين من اختراع الطباعة ، وكان ذلك في (دير انطونيوس قزاحيا) في وادي قنوبين شمالي لبنان ، حيث قام بعض الرهبان باستحداث طابعة وامهات حروف كرشوفية وسريانية ليطبعوا عليها . وذلك في عام ١٦١٠م. ثم قام عبدالله زاخر سنة ١٧٢٦ باستخدام طابعة خشبية وأحرف عربية في دير مار يوحنا ، وطبع بالفعل كتاب (ميزان الزمان) في عام ١٧٣٤. أما في العراق ، فقد دخلت الطباعة على يد الوالي العثماني مدحت باشا ، وهو الذي أصدر جريدة باسم (الزوراء) عام ١٨٦٩ .

وهكذا بدأت وسائل النشر والاعلام بالاتساع بعد اختراع الطباعة ، وبعد صدور قوانين الاصلاح الكنسية في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي . فقد شرع البابا جريجوري الخامس عشر في سنة ١٦٢٢ بتأسيس مجمع للاعلام الديني غايته نشر التعاليم الكاثوليكية في أرض الوثنية .،. ثم تبعه البابا (أوربان) . وبينما كانت وسائل التوصيل الجماهيري الكتابية تقتصر على أخبار مخطوطة ظهرت في العصور الوسطى (في القرن الثالث عشر في كل من انكلترة وألمانيا ، وفي القرن الخامس عشر في إيطاليا) .،. إذا بالطباعة تقفز بالنشر قفزة خطيرة تجعلها في متناول الكثير من الناس وتبدأ عصراً جديداً من الصحافة أو « السلطة الرابعة » للمجتمعات الحديثة .

ومع أن ظهور الصحافة كان في أوله بسيطاً . وتأثيرها محدوداً ، فإن الصحافة ووسائل النشر تعقدت ، ولم تكتسب عامية الانتشار إلا بعد ان أصبح التعليم اجبارياً ـ وكان ذلك بعد قرون ، (في انكلترة مثلاً لغاية سنة ١٨٧٠) . وكان للمصلحين الدينيين من أمثال لوثر في ألمانيا وفوكس في اسكتلندة ، وكذلك الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده في الشرق الأوسط ، الفضل في نشر الثقافة والتعليم الحديث بتشجيع قراءة الكتب السماوية واتباع وسائل التربية الحديثة والمناقشة المفتوحة والتفكير الحر ، بالرغم من الاصلاح الديني في أوروبا أدى إلى تقسيم الديانة المسيحية إلى شيع وجماعات أكثر تعدداً مما سبق .

ظهور الصحافة :

ثم ظهرت الصحافة الحديثة . وكانت بدايتها .. تنقل أخبار ووقائع اليوم ، مع إشاعات وحكايات البلد . وصدرت أول جريدة مطبوعة في ألمانيا عام ١٥٠٢م اسمها (نويا زايتونغ) ، وفي انكلترة ظهرت جريدة (الأخبار الأسبوعية) عام ١٦٢٢، وكان أول صحافي بريطاني هو ناثانيل بتلر . ومن بعدهما بدأ سيل من النشرات والجرائد والصحف والكتب التي تحمل آراء وأفكار متضاربة ترمي إلى التأثير في القارىء واقناعه بوجهة نظر الصحيفة . أما الأخبار ، فكانت لها الأهمية الثانوية . حتى معركة واترلو الشهيرة تطرقت إليها الصحف في بضعة أسطر وضاعت بين أعمدة المجادلات والفضائح والأحاديث المغرضة . واستغل بعض الصحفيين تلك القدرة على التشهير وأشهروها سيفاً مصلتاً على رقاب نجوم المجتمع . فلكل فضيحة « ثمن » ! ، ومن لم يدفع يهدد بالتشهير في الصحيفة .

فكاهية خفيفة واخبارية وتثقيفية مبسطة ، منها مثلاً مجلة تيت ـ بيتس Tit - bits على غرار (ريدرز دايجست) العالمية المعاصرة .

صحافة العالم العربي :

وقد امتدت وسائل النشر إلى العالم العربي من خلال الحكم العثماني أولاً ، وعلى كره منه بعدئذ . فحالما تيسرت الحروف المطبعية العربية ، ظهرت الصحف العربية تترى .. أولاها جريدة (التنبيه) التي صدرت عام ١٨١١م في مصر أيام غزو نابليون لها ، ثم تبعتها جريد الوقائع المصرية عام ١٨٢٨م في عهد محمد علي . وصدرت أول جريدة لبنانية (حديقة الأخبار) في سنة ١٨٥٨ ، ومن بعدها (لسان الحال) البيروتية عام ١٨٧٧م. وفي العراق ، كانت أول جريدة رسمية هي (الزوراء) في سنة ١٨٦٩ أصدرها الوالي مدحت باشا . أما أول جريدة عراقية أهلية فكانت (بغداد) وصدرت عام ١٩٠٨ ، وترأس تحريرها مراد سليمان باسم حزب (الاتحاد والترقي) . ويقال إن أول جريدة عربية صدرت في العراق زمن الوالي العثماني داود باشا الكرجي عام ١٨١٦ ، وكانت تطبع بمطبعة حجرية واسمها (جورنال العراق) وتنشر أخبار الولايات والموظفين وأحوال القبائل وامور الدولة العثمانية ، ويؤيد ذلك بعض الرحالة الأجانب مثل (فريزر) و (تيلر)[٥٤]. وصدرت صحيفة عربية في اسطنبول اسمها (الجوائب) لصاحبها أحمد فارس الشدياق ، سنة ١٨٦٠ .

ولا حاجة لاستعراض تطور الصحافة في العالم العربي ، لأننا نبغي فقط ايضاح تطور وسائل الاعلام وتغيير الاتجاهات وتواريخها . ويقتضي أن نذكر في هذا الصدد ان أول ظهور الصحافة العربية أو الواردة من دول أخرى ، لم تكن تخدم آمال ومطالب الشعب والأمة العربية الحقيقية ، وهي بذلك كانت وسيلة للتحوير الفكري وتبديل الاتجاهات خدمة للسلطة أو المستعمر . إلا أنه بظهور الدعوة القومية وتطورها بدأ طور آخر للصحافة الوطنية على الرغم من استمرار الصحف المدسوسة والممولة من جهات أجنبية بالصدور . ولعبت صحف الأحزاب دورها الوطني المشكور[٥٥].

ولإيجاز دور الصحافة الكبير والشامل في تبديل وتحويل الرأي الفردي والعام والعالمي ، يكفي أن نورد ان احصائية اليونيسكو لعام ١٩٦٠ عن الصحف والصحافة خرجت بالارقام التالية :

عدد الصحف في العالم : ٣٠ ألف (بلغت ٥٠ ألف سنة ١٩٦٨) جريدة ، منها ٨ آلاف جريدة يومية تطبع ٢٥٠ مليون نسخة . أما الصحف غير اليومية فيطبع منها ٢٠٠ مليون نسخة . وان ثلث صحف العالم تصدر في أميركا الشمالية ، وثلثها الآخر في أوروبا

---

(٥٤) نعمان ماهر الكنعاني ، (الاعلام..)، مجلة الاقلام، العدد ٦، ١٩٦٧.

(٥٥) فائق بطي، (صحافة الأحزاب وتاريخ الحركة الوطنية)، ١٩٦٩، بغداد.

التعليم اللغوي .. إلى التمثيليات الكلاسيكية والحديثة .. فالزراعة .. فتربية الحيوانات الأليفة .. فالرياضة . ويختار المشاهد ما يريد منها . وتهم الطفل النتائج والعبر وليس ما يجري من قتل وتآمر . فإذا ما انتصر الخير والفضيلة والصدق والاخلاص في مغزى التمثيلية أو الفيلم فذلك هو المهم والمقصود وذلك الذي يؤثر في عقلية الطفل واتجاهاته .

إن كل تلك الآراء لا تنفي مفعولية وخطورة التلفاز في التأثير على الرأي العام في مجالات الاجتماع والسياسة أو في تبرير مواقف الدول الاستعمارية مثلاً من تصرفاتها الخاطئة تجاه الشعوب المتحررة والحركات القومية . ويزداد الاهتمام بوسائل الاعلام الاذاعية والتلفزيونية بعد نكسة حزيران ، فقد بلغ مجموع البث التلفزيوني في الجمهورية العربية المتحدة ٣٠ ساعة يومياً والبث الإذاعي ١٢٣ ساعة يومياً ، وميزانية سنوية خمسة ملايين جنيه . وفي آخر إحصائية لسنة ١٩٦٧ بلغ عدد أجهزة التلفزيون في الجمهورية العربية المتحدة ٣٩٩ ألف، ومجموع المشاهدين مليوني نسمة يومياً[٥٦] هذا بالإضافة إلى الجهود المتزايدة في الدول العربية التقدمية كالعراق ، والذي بدأ فيه البث التلفزيوني قبل ٢٥ عاماً ، والذي بلغت فيه اجهزة التلفاز (٧٥٠) الف عام ١٩٧٧ .

خامساً ـ وسائل الاعلام الأخرى :

وتشتمل على المسرح ، والسينما ، والمعارض ، والندوات العامة ، والمؤتمرات المحلية أو العالمية ، ووكالات الأنباء المختصة ، والرحلات ، والمتاحف ، والأماكن السياحية .

فالمسرح يعالج موضوعاً ، ويعرضه ، ويقترح له الحلول ، ويؤثر في مشاهديه بمفعول الإخراج والتمثيل والإضاءة والحوار ..، فهو بالتالي يمكن أن ينفذ إلى قلوب المشاهدين ويحور من اتجاهاتهم . وكان للمسرح دوره في حياة (أثينا الأغريقية) .

وينطبق على الفيلم السينمائي ما ذكرناه عن المسرح مع امتياز السينما عليه بالحركة والشمول والاحتواء على مشاهد أكثر تعدداً وتجدداً . ويسهل تكرار الفيلم السينمائي ونقله وطبع نسخ عديدة منه . وهو يستهوي الصغار والأحداث من الذين لا يمكن أن ينسجموا مع الجو المسرحي وقيوده . ويكفي للدلالة على فاعلية السينما في التأثير على الجماهير ان حوالي ٢١٥ مليون شخص يشاهد الأفلام السينمائية كل أسبوع في العالم . افتتحت أول دار للسينما في باريس سنة ١٨٩٥م.

والمعارض التجارية تخدم الترويج للبضاعة لعدد كبير من المشاهدين وتجذب المسافرين إلى البلد المقام فيه المعرض وتقوم بدعاية للوطن أو تحث أفراد الشعب على التطلع إلى ما هو أحسن وأرقى ..

أما الندوات الخاصة والمؤتمرات ، فهي وسيلة للبث الإنساني . المؤتمرون يجتمعون ، ويتداولون ، ويشاركون « مآدب فكرية » ، ويخرجون بآراء جديدة أو معدلّة ..

---

(٥٦) روز اليوسف ، العدد ٢١٢١ ، ٣ شباط، ص ٣٠ ، ١٩٦٩ .

أن الفرد تروعه كثرة الأخبار فيتيه بها ، فيلجأ إلى الاعتزال والاحتماء بعالمه الخاص لا يهمه ما يجري حواليه . والموقف الثاني ، ما دعي بحالة « التخدير » narcotization ، أي أن الفرد يسمع الأنباء ويقف عندها ويعتبرها الغاية والنهاية دون إجراء أو رد فعل . ولنتصور هذين الموقفين تجاه إذاعة الحكومة والسلطات الصحية عن ضرورة التلقيح ضد شلل الأطفال .. فلا الأول يكترث به أو ينتبه إليه .. ولا الثاني يبادر إلى تلقيح أطفاله أو تنبيه أقربائه وأصدقائه . لذلك أصبح من الضروري أن تتبع الأنباء شروح وتعليقات وندوات توضح وتؤكد الحقائق والمعاني المقصودة في الأنباء والنشرات . فالندوات الصحية المدارة والموضحة من قبل طبيب مسؤول ومختص توضح أخطار شلل الأطفال من ناحية ، كما تزيل عوامل الرعب والهسترة التي تجتاح الجماهير في أيام الأوبئة والكوارث .

واختلف المفكرون في دور الجماهير والإعلام . فالجماهير متهمّة بأنها الهيئة التي لا تساعد على الابتكار ولا على التأمل والتفكير المنتج ، وإنها لا تتقبل الانتاج الفني إلا بصورة سطحية . ويقول أدورنو T. W. Adorno بهذا المعنى ، ان الناس الآن جعلوا من السمفونية الخامسة لبيتهوفن لحناً يصفّرون به على شفاههم ، أي أن الراديو جعل من الانتاج الكلاسيكي بضاعة للاستهلاك لا للفهم . ولا شك ان تلك الآراء تعبر عن أرستقراطية الفنون الإنسانية وعن قاطني البروج العاجية ، لأن الإعلام والتوصيل الجماعي أصبح ضرورة عصرية لا استغناء عنها .

ما هو مفهوم التوصيل الجماعي إذن ؟ عرّفه البعض بأنه : « التوصيل الموجّه إلى مجموعة كبيرة نسبياً من الناس على اختلاف جنسهم وأعمارهم وطبقاتهم ، وغير معروفين لمن يقوم بالتوصيل » . فالمذيع لا يعرف كل من يستمعون إليه .. إلا أن كل من يستمع إليه يشترك مع البقية في اتجاه وانفعال مقارب ، وبذلك يشمل التوصيل مجموعة كبيرة من الناس . ويكون التوصيل سريعاً ووقتياً لأنه يذاع في وقت معين محدود ، فهو إذن يختلف عن الأعمال الفنية الخالدة كاللوحات الشهيرة والأبنية الرائعة والمنحوتات الأخاذة التي تبقى في ضمائر وعقول أجيال متعاقبة .

والكتلة البشرية المقصودة بالتوصيل والدعاية لا يعرف أعضاؤها بعضهم البعض ، ولا تربطهم أواصر مشتركة قوية ـ شخصية ـ .. فهم غرباء فيما بينهم . وبديهي ان أفراد العائلة الواحدة يعرفون بعضهم وكذا الجيران وأصحاب المعمل الواحد .. الخ ، أما الأغلبية فغير متعارفين . والتجمع الكبير في محل ما يضم أفراداً لا تربطهم إلا صلة واحدة هي سبب تجمعهم ـ كمشاهدة سباق أو الاستماع إلى خطاب . وبتلك الصلة يمكن أن تقوم الجماعة بعمل مشترك واحد . وتكون التجمعات موجودة ومتفاعلة مع بعضها إلى درجة قصوى في أيام الأزمات الوطنية أو الثورات الشعبية أو الرعب العام . حدث مرة أن أذاع الممثل والمخرج الأميركي المعروف (أورسون ويلز) قصته بالمذياع عن هجوم سكان المريخ على الأرض .. وكانت نبرات صوته وطريقة إلقائه توحي للمستمع الساذج بأن الهجوم

الاقناع » .. فالدعاية اذن ممارسة للضغط الاجتماعي والحقيقة ان السيطرة الامبريالية والصهيونية الاحتكارية على غالبية الصحف تنفذ بدقة أغراض الدعاية من خداع للرأي العام المحلي والعالمي . ويقول وولتر ليبمان أيضاً بهذا الصدد : « ان البون شاسع بين ما ينشر عادة من أخبار وبين الحقيقة .. » .

ونستطيع أن ندرك خطورة وسائل الاعلام في العصر الحديث اذا استعرضنا الأرقام المسجلة في الولايات المتحدة في الخمسينات من هذا القرن :

١,٨٠٠ جريدة يومية	١٠٠ مليون جهاز راديو
١٠,٠٠٠ جريدة اسبوعية	١٢ مليون جهاز تلفاز
٧,٦٠٠ مجلة	١٥ ألف دار للسينما
٧,٦٣٥ مجلة دورية	٢,٠٠٠ مجلة تجارية

وإذا قارنا هذه الأرقام بما استجد بعد ذلك في السبعينات أدركنا مدى التوسع السريع في هذا المجال وحتى نهاية عام ١٩٧٧[٥٧]:

أ - (٣٠٠) مليون جهاز تلفزيوني منتشر في العالم يشاهده يومياً اكثر من ألف مليون شخص .

ب - اكثر من(٢٥) الف محطة اذاعة ينصت اليها اكثر من(٧٠٠) مليون نسمة يومياً ..

جـ - (٨) آلاف صحيفة يومية يقرؤها (٣٩٠) مليون قارىء

د - ربع مليون قاعة سينما و(٧٨) مليون مشاهد .

ففي مجال التلفاز تعتبر الولايات المتحدة أول دولة تسيطر على اوسع شبكات بث في العالم . وفي تقرير (لليونسكو) ان اكثر من (١٦١) شركة امريكية تمد الدول الأوروبية والآسيوية والافريقية بما يتراوح من ١٠٠ - ٢٠٠ ألف ساعة بث كل عام ، تليها بريطانيا التي تبث حوالي (٣٥) ألف ساعة في العام . وتمتلك ثلاث شركات كبرى ستمائة (٦٠٠) محطة تلفاز داخل امريكا ، وهي ABC, NBC, CBS .

وفي مجال الصحافة تسيطر أربعة احتكارات كبرى على صحف بريطانيا اليومية .وفي المانيا الغربية تسيطر مؤسسة (شبرنجر) على ٦٠٪ من الصحف والمجلات الألمانية . وفي الولايات المتحدة يمتلك محتكر واحد (روي تومسون) اكثر من (٢٠٠) صحيفة يومية وعشرات من دور النشر والمؤسسات الطباعية .

أما إذاعة الخبر العالمي ونقله في العالم فتحتكره اربع شركات كبرى في العالم الرأسمالي هي : (رويتر) و(الاسوشيتد برس) و (اليونايتد برس) و(فرانز برس) ، والخامسة (تاس) في العالم الاشتراكي (روسيا) . وتمتلك هذه الوكالات امكانيات مالية وفنية ضخمة ، وتذيع بعشرات اللغات ولها شبكة مكاتب في جميع انحاء

---

(٥٧) امير اسكندر ، (الحرب العالمية الثالثة في ساحة الإعلام) ، جريدة الثورة العراقية ، ١٩٧٨/٨/٨ .

بضع حقائق تلائم أغراضه ويهمل البقية ، ثم يبني أكاذيبه ودعايته عليها . ومحطة إذاعة اسرائيل والصحف السائرة في ركابها تنفذ هذه الحيلة باستمرار .

٥ ـ الكذب : فمنذ أن موّه رجال الدعاية في الحروب الصليبية الغايات الحقيقية على المجتمع المسيحي نفسه .. ، إلى أكاذيب (جوبلز) الضخمة ..، إلى ادعاء الحلفاء بأن المانيا الهتلرية صنعت الصابون من دهن الأسرى الأموات ..، كان الكذب هو محور تلك الدعايات .

٦ ـ التكرار والإعادة الرتيبة والتعابير والملصقات واللافتات .

٧ ـ التأكيد والمجاهرة بصحة الادعاء .

٨ ـ الاشارة إلى « عدو ما » سواء أكان عدواً وهمياً أو حقيقياً لتقوية معنويات الناس وتجميع عواطفهم العدائية نحو هدف يبعد عن صاحب الدعاية ويخفف عن غرائز العداء لدى الانسان .

٩ ـ الاستعانة بالسلطة أو « المصادر الموثوقة » للتأكيد على ادعائهم ، كما هو واضح في الإعلان التالي : « ألف طبيب يؤكدون أن معجون (×) يجعل من الجلد أكثر رقة وحيوية وجمالاً .. » . فمن أين جاء الألف طبيب ؟ وكيف أثبتوا صفات الحيوية والجمال ؟؟ لكن ذكر « الطبيب » كمصدر علمي يستحق الثقة يوهم الناس بصحة الادعاء !!

١٠ ـ استغلال الظواهر السلبية عند العدو وتوسيع التناقضات الظاهرة .

مدى تأثير الإعلام في الرأي العام :

إن البشرية لا تستطيع ان تقاتل بالذرة لمدد غير محدودة ، ولكنها تستطيع ذلك بالكلمات . فلا شك إذن ان وسائل الاعلام المتعددة تؤثر الى أبعاد ومستويات مختلفة حسب قوتها وظروفها ومدى استعداد واستجابة الفرد والجماعة .

لقد أخرج التلفاز الامريكي الرئيس الأسبق جونسون من الرئاسة بسبب انكشاف الوجه البشع لامريكا في حرب فيتنام ، ثم أسقط الرئيس نيكسون من الرئاسة بعد (فضيحة ووترغيت) . واستطاع فرد واحد يحتكر ويتحكم في الاخبار ان يؤثر في الرأي العام الامريكي . فقد ذكر ان المتوفى (هنري لويس) صاحب مجلات (تايم) و (لايف) و (فورتشن) كان يستلم الأخبار الصحيحة عن حرب الصين بين ثوار (ماو تسي تونج) الاشتراكيين التقدميين و(كاي شيك) المرتبط بالاستعمار والرجعية ، فكان يعيد صياغة واخراج تلك الاخبار وينشرها ضدّ (ماو) ومع (كاي) حتى خدع الرأي العام ألامريكي ثلاثين سنة وبعد فوات الأوان حيث اتخذت امريكا موقفاً معادياً ضد الصين الشعبية الى ان استفاقت مؤخراً وبدأت تتقرب إليها لتفهمها (ولتستفيد من احتكاكها بروسيا السوفييتية أيضاً) . ولقد اعترف بهذه الحقيقة وكشفت الخدعة (تيودور وايت) المراسل

التمذهب .. والتحول الدّيني

يقتضي التأكيد هنا أن التطرق لكيفية المذهبة وللتحولات ذات الطابع الديني والوسائل التي تتبعها مختلف الفرق والمذاهب في العالم ، ليس الغاية منه إلا التوضيح العملي للأسس النظرية في التحوير الفكري . وفيما عدا هذا ، فليس الغاية من هذا الفصل أو الكتاب التأثير في القارىء الكريم أو توجيهه نحو مذهب أو دين معين وتنفيره من آخر . ولم تكن مختلف الأديان السماوية إلا دعوات إصلاحية عميقة تروم سعادة البشر . فالغايات النبيلة فيها تكفي لأن تبرر وسائلها في نشر تعاليمها واجتذاب البشر إليها . وليس من النقيصة ، ولا من الدعاية أن يظهر مصلح ديني يدعو الناس إلى ما يدعو ، ولا من واقع هذا الكتاب إظهار أي مذهب أو دعوة بصورة تتعرض لصلب أفكاره أو صميم دعوته .

إن ما سيجري تفصيله هنا هو « شرح للوسائل » فحسب دون تعرض لمعقولية أو منطقية العقيدة ذاتها ، وهو يجيب على تساؤلات تراود عقول الناس دوماً . فكثيراً ما تساءل أُناس لماذا تحولوا فجأة من حياة داعرة إلى حياة مؤمنة زاهدة ؟. وكثيراً ما تساءل آخرون من الهامشيين عن السر في إخلاص وتفاني جماعة من المنتمين لمذهب معين ؟ ونحن في هذا الفصل ، إنما نحاول شرح آلية تلك التحولات وأسرارها ليس إلا ، دون مساس بلبِّ المذهب مهما كان وأينما وجد . واقتضى التنويه هذا نظراً لدقة الموضوع وحساسيته ، ولحرصنا على تجنب تخديش أي شعور ديني وطائفي ، خاصة واننا نؤمن بضرورة وحتمية الاخوة والتسامح والاتحاد في وجه أية قوة غاصبة أو معتدية . وما سيطلع عليه القارىء الكريم يؤيد ما أود التأكيد عليه ، لأنه سيجد أن الوسائل التي نكشفها تشتمل على مختلف العقائد والمذاهب والاتجاهات منذ العصور البدائية ـ المذكورة في فصل سابق ـ . وسيجد القارىء أن تحليل الوسائل والآليات لا يتضمن أو يلمّح أو يدفع به الى النفور أو الميل إلى أحد منها ، ولا إلى الانتقاص أو التحيز لها ، لأن الاختيار الحر هو فوق كل شيء ، ولأن من رسالة الكتاب هو التنوير والاطلاع ، لا التحوير والتأثير ، وإلا أصبح وسيلة

تهزّهم أغـرب النوائب ، وهم لا يتخلون عن اتجاهاتهم وأفكارهم ولو تعرضوا الى الصدمة الكهربائية ذات الجراحة الدماغية .

وللتدليل على أن تأثير الرئيس الروحي والداعية العبقري لا يقارن بالسحر أو الدجل ، وانه أقرب ما يكون الى آلية العلاج النفسي وإدخال السكينة والطمأنينة الى قلوب التابعين والمستمعين ..، للتدليل على ذلك نورد المثالين التاليين :

في الحرب العالمية الثانية ، يصف الطبيبان (جرينجر وشبيجل) حالة المريض المصاب بعصاب الحرب والذي يحقن في الوريد بمادة (الباربيتوريت) ليعالج بالإيحاء والتفريغ : « .. ويرتسم الرعب على وجه المريض .. ويتصلب الجسم بشدة ، وتتسع الحدقتان .. وتغطي الجلد طبقة لزجة من العرق .. وترتعش اليدان .. ويتسرّع التنفس ويزداد ضحالة . ويصل المريض إلى حالة لا تطاق .. ، فينهار فجأة ، ويرقد دون حراك وبسكون لبضع دقائق .. » .

ويصف (جون ويسلي)[٦٢] ـ سنة ١٧٣٩ ـ ما يحدث في الناس الذين يعظهم : « .. ينتاب الشك والاستنكار بعضهم لما يرونه أو يسمعونه من الصراخ الحاد الذي يطلقه المرء الذي يستشعر قوة الرب ، كذلك الطبيب الذي حسب أن الخديعة والدجل وسيلتنا للإيمان . لكنه رأى بأم عينيه احدى صديقاته وهي تنهار مولولة باكية مما أثار دهشته فاقترب منها ودقّق في كل حركة وخلجة انتابتها ..، ورأى كيف كانت قطرات ضخمة من العرق تتساقط من وجهها ، وكيف كانت ترتعش مفاصلها . ولما خمدت وهدأت ..، لاحظ التغير العظيم فيها واحساسها بالشفاء التام . عندئذ أدرك ان امر الله قد تمّ ، وان ما حدث لم يكن تدجيلاً .. » .

ويستطرد الدكتوران جرينجر وشبيجل في تقريرهما عن علاج المحاربين العصابين بطريقة التخدير والايحاء : « .. ويصبح النائم نشطاً .. والأخرس فصيحاً .. والأطرش نبيهاً سامعاً .. والمشلول المقعد متحركاً مستقلاً .. والمرتعب الذاهـل انسانـاً موزونـاً اعتيادياً.. » .

ويعقّب ويسلي على شكوك الطبيب ذاك بقوله : « .. ويمكنني أن أثبت له كيف ينقلب الأسد الهصور إلى نعجة مسكينة .. والسكير التائه إلى صاح نشيط .. وتاجرة الفحشاء إلى إنسانة طاهرة تستنكر ذكر المتعة والزينة » .

وهكذا تتشابه الأوصاف : أوصاف الطبيب النفساني لمرضاه ، وأوصاف المصلح الديني لأتباعه . الأول يعزوه إلى مفعول العقار على الدماغ ، والثاني إلى مفعول العناية

---

(٦٢) جـون ويسلي John Wesly ، قسيس ومصلـح ديني شهير ، ظهـر في انكلترا وأسس مـذهب النظاميـين (الميثودست) Methodist ، واحدث هزة عنيفة في الحياة الدينية والاجتماعية في انكلترا والعالم المسيحي ، وايقظ الناس من ضلالات عديدة .

عن (أنواع التجارب الدينية)[٦٣]: « هناك وسيلتان لا غيرهما يمكن بهما التخلص من الغضب أو الهم أو الخوف أو القنوط ، أو أي انفعال بغيض : الوسيلة الأولى هي أن نربي فينا عاطفة معاكسة أشد قوة من العاطفة الكريهة . والوسيلة الثانية ، هي أن يدركنا الإرهاق والملل فلا نبدي اهتماماً بها . وفي هذه الحالة تكون مراكز دماغنا الانفعالية قد أضربت عن العمل ويستولي عليها الجمود والبلاهة . وفي هذا الدور نلمس الدليل القاطع على أن حالة الارهاق الوقتي كثيراً ما تسهم في أزمة التحويل والانتقال إلى مذهب آخر » .

و (الإرهاق العصبي) الذي تطرق إليه جيمس هو عين ما أشار اليه بافلوف بقوله إنه « حالة هدم للأنماط والعلاقات العصبية القديمة في الدماغ واستبدالها بشكل جديد ومفاهيم وعلاقات جديدة » . فالصراع الداخلي ، والغضب والكره ، والجد والقنوط ، كلها تزيد استعداد المرء على التحول المذهبي . والقديس أوغسطين الشهير ، كان قبل تحوله إلى المسيحية عاشقاً والهاً ، وكان في خلاف مع والدته التي عارضت ذلك الحب . وأثناء صراعه مع العشق كان يقترب من الإيمان بالمسيحية كما ذكر هو في اعترافاته[٦٤]. كذلك القديس (باسكال) كان غارقاً فـي حب لا أمل فيه مع امرأة من الطبقة الارستقراطية هي أخت صديقه (الدوق روانيه). ويقول العالم الاجتماعي ـ النفساني ثاوليس Thouless إن انفعال باسكال العميق كان عاملاً في تحوله إلى الإيمان بالسماء . وكانت كل من القديستين كاترين (من جنوة) ومدام كايون ، شقيتين في حياتهما الزوجية قبل أن تتحولا إلى التصوف . وكل ما تقدم من الأمثلة يعد مصداقاً لأقوال علماء الدين من المسيحيين أن : نهاية الانسان هي فرصة الله ، أو بالأحرى إن مأزق الانسان واحتياجاته ووقوفه حائراً أمام معضلات لا يدري لها كنهاً أو حلاً ، أو لا يتمكن من المثابرة في كفاحها ، تكون سبباً في دخوله واقباله على الإيمان والتسلح بالعقيدة والهداية .

ولعل في ادعاء بافلوف ان بالإمكان غسل الدماغ وجعله « نظيفاً » خالياً من كل الانطباعات والعلاقات القديمة كثير من المغالاة . فالعقل البشري هو غير العقل الحيواني ، كما أن الشدائد التي سلطها على الكلاب لم تؤد بأجمعها الى عين النتائج المتوقعة . ولعل الأكثر صحة اعتبار العلاقات والأفكار القديمة مطموسة أو ثابتة ، وانها يمكن ان تبرز وتعود الى قوتها وفعاليتها في ظروف مناسبة أخرى . وهكذا ، فإن تحول (شاؤل) Saul الى المسيحية لم يقض على شـاؤل القديم . والقديس الجديد (بول) يحوي ويشير إلى ما في باطنه من بقايا (شاؤل) القديم . ويقول العلامة (يونج) ان ما كان يعتري القديس بول (بولس) من نوبات عصبية وتشنجية ، كانت بالحقيقة عودة لا شـعورية إلى عقدة شاؤل القديمة ـ قبل اعتناقه المسيحية . كذلك يورد ثاوليس قصة السكير الذي كان يعطف

---

(٦٣) William James ; « The varieties of religious experience ».

(٦٤) Saint Augustine ; « confessions of st. Augustine ».

إلا أن الضغط الاجتماعي وعلاقة الفرد بمحيطه فذو تأثير أشد في هذا الاتجاه ، إذ أن الفرد المعزول أو المنبوذ أو المبعد عن جماعته لسبب ما والذي لا يلقى الترحيب من قبلهم ، إنما يعتنق مبادىء وتعاليم أخرى تختلف عنهم . والتأثير العائلي لا شك قائم على اعتناق المذهب أو التحول عنه . فالآباء الذين ينتمون إلى جماعة « العقليين » الملحدين The Rationalists لا نتوقع منهم إنجاب أطفال رومان كاثوليك . كما ان التحول الديني من مذهب الأكثرية المحلية الى مذهب الأقلية لا يمكن أن يتم دون أسباب نفسية معقدة في الشخص ذاته تلجئه الى تلك المبادرة . وهذا لا يعني بالطبع ان شخصية المتمذهب قد أصبح كذلك بفعل الدين الجديد ، بل إن التحول قد يحدث بسبب اضطراب مسبق في شخصيته قبل التحول ، أو قد يكون التحول لدى أناس مفكرين بعيدي النظر عانوا من « حضانة فكرية » طويلة الأمد فقرروا اعتناق المذهب الجديد .

بعد هذا الاجمال لدوافع التحول الديني والمذهبة ، نعود إلى ذكر أمثلة مختلفة على ما كان يجري في بعض الفرق والمذاهب من أساليب يمكن أن تنطبق على النظريات والأسس النفسية وغيرها من آلية الاقناع وادخال العقائد .

حركة التجديد الدينية الانجليكية(٦٥):

ظهرت هذه الحركة الدينية في (نيو انجلند) في مدينة (نورثامبتون) في أمريكا سنة ١٧٣٤م. وكان فارسها وألمع قادتها القسيس (جوناثان ادواردز) الذي اتبع في تعاليمه مذاهب « الكلفانيين والأصوليين »(٦٦). وكان ادواردز يخطب في الناس مدخلاً الرعب الى قلوبهم . يقول مثلاً في احدى خطبه :

« ان الرب يمسك بكم فوق هوة الجحيم كما نمسك نحن بالعنكبوت أو الحشرة الحقيرة فوق الموقد .. إن الرب يشمئز منكم ، فإذا غضب ، فإن لعنته ستحل عليكم وتحرقكم بنارها .. » . ويقول في خطبة أخرى : « .. الجحيم تستعر منذ ٦ آلاف سنة ، وهي تمتلىء كل يوم . فأين هي ؟ .. » إنها على بعد ١٨ ميلاً من هنا ..، وأين طريقها ؟؟.. إلى أسفل مباشرة ـ في باطن الأرض » ..

وكان من تأثير خطاباته في آلاف الناس ان حدثت « اعترافات » علنية جماعية من بين الحاضرين ، ولم يعد غريباً أن يصرخ فرد من بين الحشود وهو أشبه بالمسحور ويصيح : « .. أنا ، أنظر لنفسي كأشد وضاعة وحقارة وشناعة من كل الجنس البشري ، واستحق الكره » .. ولا يمكن لأي شخص آخر ما ، مهما كانت درجة خلاعته وتهتكه ، إذا قارنته بنفسي ، إلا أن يكون أشد ورعاً وأكثر محبة مني . دلّوني وارشدوني .. ماذا أفعل للخلاص ؟ ... » . ويكون الجواب جاهزاً من الواعظ : « لا شيء ! » . فلا يتبقى للفرد إلا

---

(٦٥) Fundamentalist Ghristian Evangelist.

(٦٦) Fundamentalists and Calvinist.

(ادواردز) وأتباعه في ولاية (ماساشوسيت) الأمريكية اندفعوا في هذا الانحراف ولم يستنكروا الانتحار في إطار الاعتراف والتحويل المذهبي ، بل تمادوا في غرس الأفكار الانتحارية في العقول المتهيجة المتوترة الهلعة . وكان الفرد التقي الورع الاعتيادي يستدعيه هاتف داخلي ويقول له : « اقطع حنجرتك .. فرصة نادرة .. الآن .. الآن .. ، انحر .. » .

وقد كان التخويف والشعور بالخطيئة والقلق القاتل وسائل فعالة في أيدي المجددين الانجيليين . وكان ادواردز يعتقد فعلاً بأن الأرض ستتحول يوماً ما ـ ليس ببعيد ـ إلى بحيرة عظيمة أو كرة سائلة من نار يغطس فيها الأشرار . وتشاء الصدف يوماً أن يتوقف شاب في مدينة نور ثامبتون تتبعه شابة مريضة كانت تتوق الى الخلاص . وابتدأ الوعظ وذكر الجحيم والموت والعذاب ..، فإذا بالشباب والكهول والشيوخ ينقلبون إلى مؤمنين بالأحداث العظيمة في العالم الآخر .. « لقد استيقظ الناس !! » هكذا قال ادواردز حينذاك .

حركة جون ويسلي (الميثودست) النظامية :

اقتبس جون ويسلي وأخوه تشارلز أساليب ادوادر وطبقوها في انكلترة.وكان ويسلي أول نشأته واعظاً محدود النفوذ والتأثير . لكنه اكتشف (ويقال بعد إصابته بنوبة من الكآبة) ان العمل الصادق المفيد كفيل بالخلاص ، وان العقيدة والايمان وحدهما هما العنصران الأساسيان في سبيل الخلاص . وقد برز ويسلي على أشدّه في انكلترة بعد الثلاثينات من القرن الثامن عشر . ووصفه أحد كتاب القرن العشرين بأنه : عبقري ...، أوقد شعلة دينية كبيرة ، وجعل كل فرد انكليزي يفكر في خلاصه الروحي قبل حياته المادية ...، ونفخ في الشعب الانكليزي معنوية صلبة أيام الثورة الفرنسية العامة ...، وحدّ من تعاليم (توم بين) المادية ...، وان أتباع ويسلي في القرن العشرين كانوا من مؤسسي ومشجعي اتحادات العمال .. » .

وكان القرن الثامن عشر يدعى بـ « عصر العقل » ، إذ كانت العقلانية رائد الناس قبل الانفعالية . على ان نجاح ويسلي العظيم في ادخال مذهبه وتحويل الناس عن معتقداتهم السابقة لم يكن بالاعتماد على العقل ، بل باستنفار العواطف واللعب على أوتارها . وكان ويسلي يثير كوامن العواطف الى حد هائل ، فيحصل منها على التغيير المطلوب في العقل والمعتقد والمبدأ ، ولولا ذلك لما توصل إلى ما توصل اليه . ولا يزال تلاميذه الآن يرتبكون ويتساءلون كيف أحدث ويسلي ذلك التغيير الفريد في الناس وليس في كلماته وحدها ما ينم عن القوة العظيمة في نفوذه وسيطرته على الأفئدة .

وكان الانقلاب في شخصية ويسلي قد تم في يوم من أيام ١٧٣٨ عندما تعرف على الأب (بيتر بولر) الذي ترأس بعثة تبشيرية في (مورافيا) وفشل فشلاً ذريعاً لأنه كان يعتقد أن الخلاص يأتي عن طريق الأعمال الصالحة قبل الإيمان . وانقلب اعتقاده ذاك

واتبع نفسه الأساليب الوسيلية ، أي بالتخويف والاهتياج الانفعالي اللذين يؤديان إلى هدف واحد هو التحول المذهبي . ومتى ما حصل التحول ، تتلاحق الهجمات والتعزيزات الوعظية لترسخ ذلك التحول . ويتضح هذان العاملان على لسان ويسلي نفسه الذي يقول : « عندما يتزايد الأفراد الذين أدينوا بذنوبهم واعترفوا بها ..، نزيد نحن من حدّة الوجدان والهيام لنجذب غيرهم من الآثمين إلى الحياة الروحية .. » . وحضرت مرة إحدى النساء الساقطات إلى ويسلي وهو يخطب في الناس ، وبدأت تسخر منه وتثير الاضطرابات والصخب في الاجتماع . وظل ويسلي صامتاً هادئاً ، ثم خاطبها قائلاً : إن الرب يحبها . وعقلت المفاجأة لسانها فاهتزت أعصابها ، ونفذت كلماته إلى قلبها ، فغطت وجهها بيديها خجلاً . ويستطرد ويسلي واصفاً ما حدث : « .. والتف إلى الباقين ، فإذا بهم قد ذابوا وانسابوا كالماء ، أو كالرجال الذين خارت قواهم » .

ماكريدي .. والمذهب الكلفيني :

وفي سنة ١٨٠٠م ظهر المتعصب الواعظ الديني القس (جيمس ماكريدي) في ولاية (كنتكي) من الولايات المتحدة الأمريكية ، وبدأ يبشر بالمذهب الإنجيلي الكلفيني بين أتباع كنيسته . وكان العامة في تلك البقعة خليطاً عجيباً من الأشرار وسراق الخيول والمدنيين الهاربين من الجيش والمجرمين الفارين من ولاية أخرى صارمة القوانين . وبدأ ماكريدي يبشر على نمط ويسلي ، فذاعت شهرته . وبعد مضي سنة واحدة على مشروعه الديني الجريء ذاك ، أعلن عن عقد اجتماع عام . وتقاطرت الوفود والناس والعربات إلى محل الاجتماع ، فلم يبق متسع لأحد . وقطعت الأشجار من البساتين لتهيئة محل أوسع للجلوس في محل الاجتماع .

وراح ماكريدي يتكلم ويخطب ويثير العواطف ويشير الى العذاب والآثام . وهو يسير ويتنقل بين الحاضرين هادراً نفاذاً ساحراً . واستمر الاجتماع من يوم جمعة إلى يوم أحد ليل نهار . وجلس الناس في الليالي على أضواء المشاعل !. ومن خلال الخطب المستمرة والترانيم والصلاة، اصيبت امرأتان بنوبة عصبية حادة واغشي عليهما فخرتا على الأرض. وتبعتهما الجموع بالمئات وهم في شبه غيبوبة لمدة ساعات . فإذا ما استيقظوا ، اعترفوا بذنوبهم وأعلنوا توبتهم وخلاصهم .

وفي الاجتماع الذي تلا الأول في عام ١٨٠١ ، كان عدد الحاضرين عشرين ألفاً من رجال ونساء وأطفال . وفي جو متوتر مشحون بذكر الجحيم وعذاب السعير لكل من لا يتوب او يكفر عن آثامه ..، بدأ المئات يتلوّون على الأرض ويهرول آخرون في كل الاتجاهات : الى الحقول والغابات وهم يصيحون « الضياع .. الضياع ! .. » . وأصيب آخرون بارتعاشات عصبية سرت الى غيرهم كالوباء . وقام آخرون بعملية « تمزيق الشيطان » وذلك بأن يزحفوا على أربع أطراف كالحيوانات ، ويبدأ كل واحد بالنباح والصراخ على الآخرين وهم يدورون ويزحفون شذر مذر ساعات طوال . وقام آخرون بعملية قفزة الضفادع ، وذلك بأن

الروحي والحيوية . ولا يزال أتباع هذه الطائفة في ولاية (فرجينيا) يتناولون الأفاعي . وقد توفي أحد القسس حديثاً من لدغة أفعى سامة من ذوات الأجراس . ولما كان قانون الولاية الجديد يمنع تناول الأفاعي التي هي مصدر خطر على الغير ، فقد أدين واحد من أتباع تلك الكنيسة بالحبس لمدة ٣٠ يوماً وبكفالة الفي دولار وغرامة ٥٠ دولاراً[٦٧].

ويستند تناول الأفاعي في الطقوس الدينية إلى قول المسيح في انجيل مرقس(٣٦) : « باسمي سيقذفون بالشياطين .. ويتناولون الأفاعي .. ، وإذا ما شربوا أي شيء سام فسوف لا يصيبهم أي أذى .. » . وتحتفظ هذه الطائفة بالأفاعي في صناديق خاصة . وتتكرر حوادث اللدغ تلك ، وفي إحدى المرات قطعت يد أحد الأتباع بعد لدغة سامة . إلا أنهم يتقبلون الموت كمشيئة الله المحتمة .

٢ ـ الكويكرز أو المهتزون Quakers :

ولما كانت بعض الفرق الدينية المسيحية تمارس الاهتزاز والتمايل أثناء الصلاة والتبتل والشعور بالخلاص والتطهر ..، فقد أطلق على أتباعها بجماعة الكويكرز أو المهتزون . ووصف أحدهم ما يجري في اجتماعاتهم تلك : « الجميع ، من كهول ونساء وأطفال ، يهتزون ويرتجفون ثم يتساقطون والزبد ينبعث من أفواههم .. وأصوات الهدير تتعالى من بطونهم المنفوخة . و .. » . وهكذا رسخت حركة اللاعنف الدينية ودعيت بالاهتزازية نسبة إلى ما كان يجري لأعضائها . ومن أهم تعاليم الكويكرز ، أن الانسان يستطيع الاتصال بالرب مباشرة دون وسيط . وقد استقروا في مناطق متعددة وأثروا واكتسبوا احتراماً بين مواطنيهم ، وزال ذلك الحماس الانفعالي وتلك الشعائر والطقوس الاهتزازية ، واختفت دينامية الحركة لكنها احتفظت بكيانها واسمها على مرّ السنين . والحقيقة أن رؤساءها المحدثين يستنكرون باطناً تلك الآلية القديمة للتحويل والمذهبة . وقد بلغ أتباع هذه الطائفة قرابة ربع مليون في جميع أنحاء العالم ، ثم انخفض الرقم إلى ١٢٣ ألف بعد منتصف القرن الحالي . ومن أتباع هذا المذهب رئيس الولايات المتحدة الأسبق نيكسون . ويقوم رؤساء الطائفة بنشر الاعلانات وكسب منتمين جدد لعقيدتهم .

٣ ـ جيش الخلاص Salvation Army :

أسس حركة « جيش الخلاص » الجنرال بوث ، ودعا إلى الاصلاح والجهاد والكفاح . وتميزت الحركة بالتزمت والنظام الصارم الذي هو أشبه بالنظام العسكري للجيوش . إلا أن الدعوة أصبحت منظمة إصلاحية إجتماعية هادئة ورصينة ونفاذة أيضاً .

وما طرأ على جيش الخلاص من تطور ، حدث لفرق وطوائف أخرى . فقد اختفت المشاهد الجنونية من بعض كنائس (ويلز) الحديثة المحترمة . وكانت فرقة التجديد

---

(٦٧) مجلة (تايم) الأمريكية ، عدد ١ تشرين ثاني ، ص ٣٥ ، ١٩٦٨ .

تملكهم حماس مجنون ، نطَّ بعضهم كما تنط الضفادع أو تصلبت وتكورت وانبسطت وتقلصت عضلات وجوههم ، فتبدو سحنتهم قبيحة أو مخيفة ... أو يرتكزون على أطرافهم الاربعة ويكشّرون عن أسنانهم ويزمجرون أو ينبحون كالكلاب . ومن يتصرف كالكلب ، يمتاز على غيره بالرؤى والأحلام والخيالات والاغماءات وتصور السماء والملائكة والمدينة المقدسة . ويصف (فوكس) اجتماعاتهم الدينية في أمريكا وكأنه يعيد تماماً ما جرى أيام ويسلي في انكلترة : ارتجاف .. وارتعاش يسود الحاضرين ، فنشيج ونحيب .. إلى أن تخفت علائم الحياة فيهم ، وتغدو أطرافهم مقشعرة باردة كأطراف الجثث الهامدة .. ويتساقط مئات من الناس على الأرض دون حس أو حراك .

٦ ـ الاخوان اليسوعيين (الجزويت) Jesuits :

ويمر الإخوان اليسوعيون من رجال الدين في « دورات » تمرينية جسمية ـ روحية ـ عقلية تهيئهم لتقبل وتنفيذ المذهب الجديد . ويقال إن الأسبوع الأول من حياة الراهب الجزويتي يخصص فقط لتمييع وتفكيك العادات والأفكار القديمة إلى أن يبلغ درجة الإعياء . فالندم يعتصر قلبه ، والخوف والعار يسحقان فؤاده ... يضاف إلى كل ذلك الجوع والصوم والحرمان من النوم الهادىء . عندئذ ، يدرك مدى السعادة والراحة في الإيمان والمذهب الجديد .

ويعلّق (سومرست موم) على تلك « الرياضة الروحية » التي وصفها ووضعها القديس (اغناطيوس) في كتاب خاص... يعلق الكاتب الانكليزي الشهير فيقول : « بالرغم من تلك الوسائل العنيفة الصارمة التي تستخدم الشعور بالاثم والعار لتمكين العقيدة ...، فإننا لا نتمالك إعجابنا بما تؤديه من نتائج التبتل وإيمان بالمحبة » . والحقيقة أن كتاب (الرياضة الروحية) نال من التعليقات ما يقارب الأربعمئة . وقال عنه البابا ليو الثامن : « إنه الموضوع الذي اعتبره غذاء لروحي » .

وقد يفقد الانسان من وزنه كثيراً على أثر العذاب النفسي الذي يلازمه أشهراً طويلة إلى أن ينهار وتلين عريكته . لقد لاحظ ذلك وليم جيمس في بحثه عن بعض المذاهب ، كما لاحظها بافلوف على حيوانات مختبره ، إذ وجد أن الذي يقاوم مدة طويلة يفقد من وزنه كثيراً قبل أن ينهار ويتخلى عن عاداته القديمة أو المكتسبة حديثاً .

٧ ـ آراء بعض رجال الدين في ما سبق :

لم ترم تلك الممارسات الانفعالية الصارمة أو العنيفة لبعض المذاهب دون معارضة ونقد وتحليل من قبل رجال الدين الآخرين . وقد آثرت ذكر بعض تلك الانتقادات والتعليقات لإعطاء صورة أوسع لمعركة الاستئثار بالدماغ البشري ، لاعتقادي أن النقد الذي يدلي به أناس مختصون بموضوع ما هو جزء متمم لمعركة الاستئثار بالدماغ لأن الشخصية الانسانية لا يمكن أن تنتقد ما لم تتصف بالاستقلال أو النظرة الموضوعية أو المناعة ضد أو تجاه فكرة أو مذهب معين .

يقول (جون بنيان) : « عليّ قبل كل شيء أن أصدر حكم الإعدام على كل ما يمت بصلة الحياة .. حتى ولو كانت هي نفسي ، أو زوجتي وأطفالي وصحتي ، أو أفراحي ...، وأن أعتبرهم جميعاً أمواتاً بالنسبة لي وأنا ميت بالنسبة لهم . وعليّ أن أضحي بكل شيء ، وأن أتحمل الضرب والجوع والبرد والعرى وآلاف المصائب ، من أجل الرب » .

أمثلة من التاريخ العربية - الاسلامي :

تعددت الفرق والمذاهب الاسلامية بعد الفتنة الكبرى ومقتل الإمام علي (رض) في فجر الإسلام . إلا أن الدعوات الدينية غمرتها السياسة ولم يكن همّها الوحيد اختلافاً على مسألة دينية ، أو بالأحرى إن المسائل الدينية لوحدها لم تكن موضع النزاع والجدال ، بل حملت في مضامينها غايات سياسية وجذوراً قبلية . لذلك يصعب أن نعثر على أمثلة صارخة للتحول المذهبي في الناس على نمط التحول الذي جرى في بعض المذاهب المسيحية الآنفة الذكر . وقد كان الجدل والحلقات الدينية والسجال يدور في المساجد أو بحضور الخلفاء ، وكان جدالاً عقلياً بين الأئمة العلماء والفقهاء ورجال الحديث . وقد نشر المعتزلة أو « المفكرون الأحرار » كما تطلق عليهم المصادر الغربية ، نشروا مذهبهم العقلي بالدعاة والرواة ، ثم تغلغلوا في الحكم على يد المأمون . فانحرفوا بدعوتهم الدينية المنطقية الهادئة المسالمة إلى استعمال القوة والسيف والسلطة لكسب الأنصار وإسكات المعارضين بدلاً من اللجوء إلى سحر الكلمة وفاعلية الكتابة وانفعالية الخطابة .

أما مختلف الدعاوى والفرق والحركات السرية والعلنية للأمويين والهاشميين والعلويين والعباسيين والفاطميين والإسماعيليين واخوان الصفا والقرامطة ، فقد اتبعت جميعها وسائل إعلامية خاصة بها لكسب الأتباع والأعوان والمؤيدين . وكان أبرعهم في التنظيم الإعلامي الفاطميون . وكان مذهب دولتهم شيعياً ، وكانت وسائلهم الاعلامية منظمة بترتيب دقيق أشبه بوزارات الاعلام العصرية تتدرج بشكل هرمي من (الامام) إلى (داعي الدعاة) « باب الأبواب » ، إلى المساعدين أو (الحجج) أو « رؤساء الجزيرة » ، إلى الأعوان أو (دعاة الجزيرة) ، إلى الدعاة المأذونين ، الموزعين جميعاً بترتيب يشابه توزيع أشهر السنة وأيامها وساعاتها[٦٨] . ولأجل نشر الدعوة الشيعية ، تبنّى الفاطميون وسائل تعتمد على الاثارة العاطفية والتشكيك في المذاهب الأخرى ، وعلى المناظرة والكتابة والشعر والأعياد والاحتفالات التي لم يسبقهم إليها أحد من الدول الاسلامية ، بل تجاوزتها أحياناً إلى استعمال العنف والاغتيال[٦٩].

وكان من أوقع الأثر في نفوس المسلمين من بعد القرآن الكريم هي الأحاديث النبوية الشريفة . ولذلك استخدمتها الفرق السياسية المتنازعة للتأثير في اتباعها وفي توجيه الرأي

---

(٦٨) عبد اللطيف حمزه، (الاعلام له تاريخه ومذاهبه)، ص ٥٦ ـ ٦١ .

(٦٩) حسن ابراهيم حسين ، (تاريخ الدولة الفاطمية)، ص ٢١٨ ـ ٢٢٥.

مأساة العرب في الأندلس :

لم تمضِ بضعة اعوام على تسليم غرناطة عام ١٤٩٢م حتى تكشفت نوايا ملوك قشتالة (فرديناند وايزابيلا) تجاه العرب والمسلمين ، وبدأت مرحلة مسلسلة رهيبة سوداء من تاريخ (غسل الدماغ) وتحويل المذاهب والعقائد بشتى وسائل الضغط والاكراه والقسوة كما نوجزه ادناه[٧٣]:

١ ـ الجأ الحكم الاسباني النصراني العرب المسلمين الى السكن والعيش في أحياء ومناطق محدّدة من غرناطة والبقاع الأخرى . ولم يُجدِ ذلك شيئاً لأنها كانت مجتمعات معزولة ومتماسكة ودعيت بالـ (موريريا) Moreria .

٢ ـ ولأن سكان الموريريا المغلقة زادت من اتصال المسلمين ببعضهم وتبادلهم الأفكار والكلام بالعربية وحثّهم على مساعدة بعضهم والصمود ، فقد أعقب ذلك مرحلة من التشتيت والتفريق المخطط .

٣ ـ فدفعتهم السلطات المتعصبة الى الهجرة الى مناطق متباعدة ، وفرقوا الآباء والأمهات عن أولادهم ، والزوج عن زوجته حتى يعتنق المسيحية ويتبرأ من الإسلام .

٤ ـ وظهرت محاكم التفتيش لمطاردة كل ملحد أو مجرم وأدخلوا المسلمين من ضمن (المشتبه بهم) والمجرمين ..

٥ ـ واستخدمت محاكم التفتيش أقسى الوسائل للحصول على الاعترافات ، فادانة المسلم ، فاعدامه أو حرقه علناً . وجرى حرق العشرات علناً في احتفال عام وموكب خاص دعي بالـ(اوتو ـ دافي) auto - da - fé .

٦ ـ واصدروا التعليمات القسرية اللاإنسانية لمحو العروبة والاسلام : كمنع الصلاة ومراسيم الزواج الاسلامية ، أو الغناء العربي ، أو التوجه نحو الشرق (اي القبلة) ، واجبارهم على تغيير الزي والملبس ، وحفلات الرقص والموسيقى العربية .. وحتى الخضاب لدى النساء (صبغ الأيادي والشعر بالحناء) .

٧ ـ وبعدها ، وخلال كل ذلك جرى نفي أغلب المسلمين المتنصرين المشكوك فيهم (وكانوا يدعون بالموريسكيين ـ Moors) خارج الاندلس الى شمال افريقيا أو جنوب فرنسا ، لكنهم بقوا متمسكين بدينهم وعاداتهم خِلسة : مثل احترام يوم الجمعة ، والحمام ، والطهور ، واللباس العربي ، والعمل في اعياد المسيحيين . ورجعوا الى الإسلام عندما وصلوا المغرب .

٨ ـ أما الذين اضطروا للبقاء وتنصروا ، فقد أصدر الامبراطور (شارلكان) قانوناً عام ١٥٢٦ يحرم التخاطب باللغة العربية ، ثم تبعه الملك فيليب الذي أصدر بياناً بمنحهم ثلاثة أعوام فقط لتعلم اللغة القشتالية إذ لا يسمح بعدها بالعربية مطلقاً . عندئذ لجأ

---

(٧٣) محمد عبد الله عنان ، (نهاية الأندلس) ، طبعة أولى ، ١٩٤٩ .

أو صدمة انفعالية ، فإن ذلك البناء الفكري يضطرب ويتفكك ، ويحل محله نسيج جديد يتجه نحو مركز ثقل جديد ويتخذ موقفاً جديداً تجاه الأفكار والأحداث . فإذا ما أصبح النسيج الجديد متيناً قوياً ، فإنه لا يفسح المجال لأفكار غريبة أو جديدة أن تدخل بين ثناياه . فاللحظة العاطفية العنيفة الحادة لها من القدرة الخارقة على احداث تغيير في خريطة النسيج الفكري للانسان . ولا أخال أحداً يجهل مفعول الحب العارم والغيرة والرعب .. والغضب والشعور بالاثم في أي منا . كذلك الأمل والسعادة الجارفة والأمن الروحي يمكن أن تؤدي إلى تحوير فكري . والانفعال العارم قلما يدخل إلى الدماغ ويتركه بدون تأثير ما ! » .

وقد اعترف جون ويسلي دون قصد بالآلية الفسلجية للمذهبة عندما تحدث عما أحدثه هو في آلاف الناس من تحويل ومذهبة في انكلترة التي لم تألف التبدلات السريعة !، اعترف قائلاً : « .. من السهل ان ندرك كيف يكون الشعور القوي بالخطيئة ، والتطلع إلى الرحمة الإلهية ..، والمقاساة المريرة للموت الأبدي .. ومؤثرة في الجسم والروح بحيث تبطل أو تقطع أو تربك القوانين السائدة والتسلسل الاعتيادي لمجرى الأفكار ..، فتؤدي إلى إخراج الطبيعة عن طريقها .. » .

والحقيقة ، انه لولا الخوف والانفعال لما حدث التمذهب في قسم من الناس . وقد كان العميد (فارار) يتجنب ذكر جهنم واخافة الناس بها . وفي أحد الأيام ، خرج عامل بسيط من كنيسته وهو يهرول ويصيح بهرج وابتهاج : أخبار سارة أيها الزملاء !..، العجوز فارار يقول لا توجد جهنم !!. كان ذلك في سنة ١٨٧٨، بعد أن نشر فارار كتابه الموسوم (الأمل الخالد) ، والذي أوضح وشرح فيه خطبه وصلواته التي أداها في كنيسة ويستمنستر ، وانتقد موضوع « العقاب الأبدي » .

وقد اتبع القس (جراهام بيل) في النصف الثاني من القرن الحالي وسائل التخويف والانفعال ليجلب الناس إلى العبادة والدين ، لكنه لم يتبع طريقه ويسلي القديمة ، بل وجد مادة غزيرة لوعظه في وسائل التدمير والابادة الحديثة كالقنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات . قال بيل في احدى خطبه النارية يوماً : « .. أكبر ذنوب أمريكا أنها لا تكترث بالرب . والله وحده قد يمكّن روسيا من تدمير أمريكا . وعندما أنظر إلى نيويورك الجميلة ..، أتصور في الحال كيف ستتهاوى عماراتها وتتهشم ابنيتها إلى رماد . وتعاودني الفكرة دوماً أن شيئاً ما سيهوي على رؤوسنا ما لم نتوجه إلى الرب ونعود إليه .. » .

والذي يبدو ، ان ما تحدثه الممارسات الدينيـة الشديـدة والعنيفة في الجهـاز العصبي ، هو نوع من الشفاء الروحي والنفسي لمختلف الشخصيات البشرية . ويتطرق وليم جيمس إلى أن بعض « تراكيب الشخصيات » تتلاءم مع بعض الطقوس العنيفة الآنفة

ونجا القليل فقط الذين فرّوا الى الغابات[٧٥].

وقد غطت الصحف الأمريكية والعالمية أخبار هذه المأساة في القرن العشرين بأن نشرت تفاصيل حياة (القس جونـز) منذ طفولته وبيّنت نقاط شذوذه العقلي والجنسي ، وأوهامه التي تعتبر في نطاق الخبل والعته ، وكيف كان يقتل المرتدين عن دعوته . ومن الصعب معرفة الحقيقة الخالصة ، لكن هذا المثال المعاصر لا يختلف عن الأمثلة القديمة وهو ان بعض الفرق والفئات تنخدع وتلتف حول شخصية مؤثـرة حادة الطباع ومتطرفة ومندفعة بحيث ينفذون اوامره رهبة وتقديساً وينتحر منهم قرابة الألف خلال ربع ساعة باشارة منه . أيوجد مثال أوضح على (غسل الدماغ) هذا والسيطرة على ارادة الاتباع ؟ تُرى هل ان ذلك يرجع لمجرد الشخصية النفاذة المؤثرة للقسيس الزعيم ، أم للشخصية القلقة والضعيفة للأتباع ؟.. أم بسبب العزلة في منطقة محدودة ؟ أم الرهبة والتقديس ؟.. أم العوامل جميعها ؟..

ان الدعوات والعصبيات المذهبية لم تخل بالطبع من تاريخ دموي عنيف ـ فمن أجل التبشير ، أو الدفاع عن النفس للاحتفاظ بالكيان المذهبي الخاص ، حدثت مآسٍ ومذابح لا يقرها انسان محايد . ونذكر من تلك المآسي : صراع البروتستانت والكاثوليك .. ومذابح (الهكنوت) في فرنسا .. والحروب الدينية في ألمانيا .. ومذابح الكاثوليك في إيرلندة على أيدي جنود (كروموبل) البروتستانت .. وسلسلة النكبات التي حلت بالأئمة العظام من نسل رسول الله محمد والإمام علي بن أبي طالب .. والصراع بين الأمويين والشيعة والخوارج والعباسيين والمعتزلة والحنابلة والشوافع والفاطميين والقرامطة الخ ... ثم الحروب الصليبية .. ومطاردة وقتل السحرة في أوروبا .. وأعمال محاكم التفتيش .. كلها تعكس وتكشف عن صراع العقائد والأفكار العنيف المؤسف . إلا أن الفرد المنتمي الذي كان يعيش في تلك الحقبة نفسها ويتصرف في وسط جماعته وطائفته ، كان يقوم بأعماله وهو بكامل وعيه وإيمانه ، تدفعه العقيدة الراسخة والثقة بشرعية وأحقية اتجاهاته . كان نسيج دماغه مناسباً ومجرى أفكاره سائراً في ذلك السلوك .. لكن من يبرر العنف والظلم والسحق الذي لاقاه العرب والمسلمون في اسبانيا على يد القشتاليين اذا قارنا ذلك بسماحة الاسلام وأمانه تجاه حرية العبادة ؟..

إن ما يستوجب النقد والتصدي والفضح هو كل محاولة أو حركة أو اتجاه يستغل العقيدة الدينية كستار ظاهري لخداع الناس البسطاء أو لتحقيق غايات شريرة تخدم قوى الاستعمار والتفرقة العنصرية والكراهية وعرقلة تقدم الشعوب ، إذ عندئذ يصبح الدين والمذهب أداة أو جهازاً من اجهزة الاعلام والحرب النفسية وغسل الدماغ . وقد طبقت

---

(٧٥) اذاعة (مونت كارلو) في ٢٠/١١/٧٨ ، مجلة (تايم) الاعداد ٤/١٢/٧٨ و١١/١٢/٧٨ ، و(كولمان) في كتاب abnormal psychology ، ص ١٣٠ .

ظواهر أخرى من غسل الدّمَـــاغ
قديماً .. وحَديثاً

لا يمكن حصر بعض مظاهر التمذهب والتحوير الفكري تحت أبواب ثابتة أو مواضيع معينة لتعددها وتنوع أغراضها وتباين وسائلها . لذلك آثرت جمعها في فصل واحد ، ثم التفرغ لشرح كل موضوع على حدة .

العلاجات والاحتفالات الشعبية

كان الجهل بأسباب الأمراض ووجود الجراثيم ان عزاها الناس إلى فعل الأرواح الشريرة وإلى الجن وإلى لعنة وغضب كاهن القبيلة البدائي ، أو إلى الغضب الرباني جزاء المعصية والآثام ولذلك ظهرت شتى الوسائل العلاجية التي ترمي إلى إزالة مفعول تلك اللعنة أو لطرد الروح الشريرة . وكانت القرابين والهدايا للآلهة إحدى الوسائل التقليدية . ولم يخل تقديم القرابين من احتفال خاص « شـعائـري » يجري أثناءه الرقص والدق والترتيل والصياح . والانفعال الشديد يحفز الخلايا الدماغية إلى درجة نسيان أو طرد أو تثبيط العادات السابقة ـ المرضية ـ ، فيستفيق الانسان ويخرج من الحفل ليجد نفسه في حالة يافعة صحيحة وكأن عقله قد « غسل » ومسحت عليه الآلهة بيدها الرحيمة .

ويخرج هذا الشفاء عن نطاق نظرية بافلوف ، ولا عن نطاق نظرية فرويد ، إذ كان فرويد يعتمد على ركن هام في علاجاته النفسية وهو « التفريغ » أو التطهير Catharsis . فالمريض أثناء التحليل النفسي تروح قافلة أفكاره تجوب عقله الباطن وتستخرج الأسرار والغوامض والعقد وتسحبها إلى مستوى العقل الواعي وتواجه الشخص بها ـ أي انها تقوم بعملية تفريغ وتطهير وذلك بفرز وطرد المعضلات المكبوتة وتعريضها إلى شمس الحقيقة والواقع ، فإذا تم التطهير أصبح المريض على دراية بمسببات مرضه وشعر بالصحة والقوة . فالتفريغ النفساني الحديث كتفريغ شحنة كهربائية متجمعة وبعثرتها أو توزيعها للتقليل من أذاها ، وهي كالتفريغ القديم والبدائي الذي يجري في احتفالات وطقوس العلاجات عن طريق الإرهاق الجسمي والرقص والصياح والرتابة الموسيقية والقرع والأصوات العالية . وأقرب مثال على العلاج الشعبي الخرافي ما يجري في حفلات

منتصف القاعة لتكون علامة على مغادرة الجن للمريضة ، لانه إن رضي بمغادرتها فان الجرة الفخارية تنكسر وتتهشم . وتعاد الاجراءات هذه على كل مريضة ، إلى أن يتم تطهيرهن .. ، فتستيقظ المريضة من حالة الغيبوبة العنيفة وهي في حالة هدوء وسكينة . وتتناول من الطعام الذي أعده طهاة متخصصون . ويكافأ الجميع والرئيسة في مقدمتهم بالطبع . أما مطاليب الجن فمتنوعة ومتعددة !.. منها الحلي والخواتم الثمينة والديكة ـ التي يجب أن تسلم إلى الكوديا في اليوم التالي حالاً ـ . وتتوقف الطلبات على أذواق الجن ومنشئهم ! . فالجن السوداني مغرم بحبات اللؤلؤ والخرز مثلاً.. الخ . والجن الذي لا تسرّه وترضيه العطاءات . يكون خطراً جداً .. اذ يرجع إلى الفريسة ويحدث فيها أمراضاً أخبث .

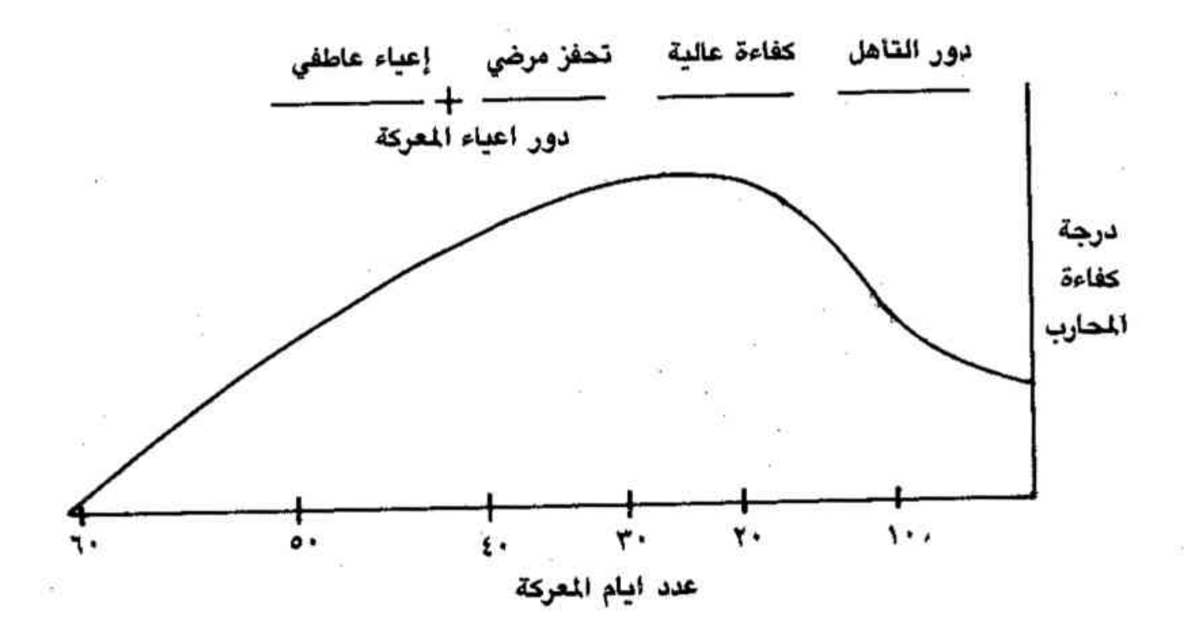
وقد فحص أحد الأطباء النفسيين المصريين (الدكتور أحمد عكاشة) من جامعة عين شمس مائة امرأة حضرن احتفالات الزار وخرج بالنتائج التالية: ٤٣ امرأة لم يشفهن الزار فراجعن المستشفى ـ قسم الأمراض النفسية والعقلية ، أما الـ ٥٧ الباقيات فكن لا يزلن يتعاطين الزار . وكان ٦٣ ٪ منهن متزوجات و٥٢ ٪ من نوع الشخصية الهستيرية ، وتتوزع الشخصيات الأخرى بين أعراض الحصر القهري والقلق وحب السيطرة وانفصام الشخصية (الشيزوفرينيا) . ومن أهم الأعراض التي شكون منها فلجأن إلى الزار كانت: الآلام الجسمية الغامضة (الاطراق والوسوسة) خليط من الكآبة والارق ونوبات الاغماء . ويتضح كيف أن الغالبية من ممارسي الزار مصابون بأمراض نفسية . وقد صرح لي أحد المرضى المصابون بالذهان والجنون الدوري انه من المدمنين على حفلات الموالد والمشايخ التي تشابه في صخبها وانفعالها حفلات الزار من قرع على الدفوف وترتيل وهزّ واغماء ، صرّح بأنه يجد راحة نفسية بعد انتهاء الاحتفال ، وانه يفقد السيطرة على نفسه أحياناً فيبول على ملابسه(٧٨) . كذلك الحال في معظم المجتمعات التي تلجأ إلى العلاج النفسي بالطرق التقليدية الخرافية والبدائية وتعتمد على التهيج والإثارة والإيحاء والايصال للحافة الحرجة والافراغ والتطهير بعد الاعياء الجسمي والتحفيز العصبي الدماغي .

ويذكر الدكتور (لامبو) في نيجيريا ، بأن ٧١ ٪ من الذين يحضرون الحفلات الشعبية ذات الصفة العلاجية هم مصابون بأنواع الأمراض النفسية . فالمريض النفسي إذن أكثر استعداداً للاثارة والإيحاء بالإضافة إلى رغبته الإدارية في الشفاء . ويمكن تلخيص العوامل التي تساعد على شفاء المرضى في حفلات الزار وما يشابهها كما يذكر الدكتور بشير في السودان بما يلي :

١ ـ التهيؤ والاستعداد الكامل من قبل الفرد لهذا الاحتفال وإيمانه به كالسبيل الوحيد للشفاء من مرضه.

---

(٧٨) المؤلف ، دراسة شخصية .



وتتراوح الفترة التي يمر بها المحارب قبل ان يصاب بـ ١٥ ـ ٥٠ يوماً ، متوقفة على عوامل متعددة منها « شخصية المحارب » بالطبع . ويقول سوانك أن معظم المشاة يصابون بدرجة ما من العصاب في تلك المعارك الحديثة ، وان الذين يصمدون إلى النهاية أقلية لا تتجاوز ٢ ٪ . ويؤيد سوانك ادعاء سارجنت من أنه لو جندنا جميع من في الولايات المتحدة الامريكية ووضعناهم عند خط النار الأول لمدة طويلة لانهاروا جميعاً إلا الشواذ من الأدمغة ! .

ويحاول سارجنت أن يجعل من كل التحويرات الفكرية مشابهة لما يجري في المعركة الحربية . فإذا ما تجاهلنا كلمة « المعركة » من المخطط الآنف الذكر ، وجدنا أن أي انسان يمر في أدوار من الشدائد النفسية والعاطفية يتعرض إلى تلك الأدوار ينهار في آخرها ويصبح ذا استعداد لتقبل الايحاءات والأفكار الجديدة ـ وهو ما يحصل في غسل الدماغ . فالدماغ الذي هو في حالة توازن طبيعي بين التحفز والتثبيط الشديدين قد يمر بحالة مستمرة من التحفز الحاد أو التثبيط الحاد ـ أي في أحد طرفي النقيضين ـ وهي الحالات المرضية التي تحدث في المعركة . والأمثلة عليها لا تحصى ، منها : حالة الجنود الذين يصيحون من أثر التهيج الخارق ويهرولون في كل الاتجاهات دون وعي ، أو يتجهون إلى الرشاشات المصوبة نحوهم ليرتموا قتلى انتحاريين.

وحالة التثبيط الوقائي التي وصفها بافلوف في كلابه نجدها في المحاربين الذين يصابون بالاغماء أو الجمود أو فقدان الذاكرة أو شلل الأطراف السفلى أو الذهول والغباء أو الصمم . ويصف السير ادواردز سبيرز ما جرى في الحرب العالمية الأولى عندما كان بعض الجنود يحفرون قبراً لزميل لهم .. فإذا ما سحبوه على وجهه واقتربوا من موضع الحفرة توقفوا ذاهلين أشبه بالنيام.

حوالي خمسة آلاف حالة من عصاب الحرب حدثت بين الجنود الأمريكان في الحرب العالمية الثانية ، وعزاها إلى تأثير الخوف الشديد والمفاجآت الحربية والإرهاق المستمر وشدائد المعركة الحديثة .

ولم تترك تلك الأعداد الضخمة من التحويرات النفسية دون علاج سريع من أجل المحارب نفسه ولصالح المعركة ومآرب الحرب ، وهكذا عولج ضحايا معركة دنكرك الشهيرة ، إذ استعمل الأطباء النفسيون معهم مشتقات مادة (الباربيتون) barbitone كي يسترخوا ويعبروا عن عواطفهم المكبوتة ، واستخدمت نفس الطريقة في مرضى غارات لندن . واطلق على هذه الوسيلة العلاجية بـ « رد الفعل العقاقيري » Drug Abreaction . وكان اصطلاح « رد الفعل » قد استعمله كل من (بروير) Breuer وفرويد منذ علاجهما لحالات الهستيريا ولاحظا كيف تم الشفاء إذا ما عبّر المريض عن حالته وأبرزها إلى مستوى الشعور .

وكانت الوسيلة السائدة في الحرب العالمية الأولى هي التنويم المغناطيسي . وفي كلتا الحالتين ، كانت الانفعالات المشحونة المكبوتة والاعراض العصابية تنفجر وتصل إلى حدود الوعي . والتدفق من الداخل إلى الخارج يخفف من حدة التوتر ويزيل بصمات المرض والاضطراب . لكن رد الفعل بالتخدير أشد نفاذاً وتأثيراً وشفاء من مجرد الايحاء . فالايحاء بالتنويم المغناطيسي يزيل الاعراض ، أما رد الفعل فيزيل مسبّبات المرض .

واستعمل الطريقة نفسها شبيجل وكرينكر في شمالي افريقيا عام ١٩٤٢ ، ودعا الطريقة بالالتئام التخديري Narco - synthesis . واستبدل (بالمر) الانكليزي الايثر بالباربيتون - واتضح لسارجنت بعد استعماله الايثر ان سلوك المرضى يكون أكثر تهيجاً واضطراباً وردود الفعل عندهم أعنف وتذكرهم للحوادث ملتبساً وخيالياً ، كما ان استعدادهم للانهيار بعد التخدير أعنف . وخطر للدكتور (شورفون) بأن الانهيار ذلك يماثل ظاهرة التثبيط الحدّي Transmarginal الذي يحدث في حيوانات بافلوف - أي حالة شلل وفقدان الفاعلية في قشرة الدماغ . فالانهيار بعد الايثر أو بتأثير الصدمات أو الذكريات المؤلمة كالامراض الهستيرية..، يشابه فقدان الكلاب لتجاربها وعاداتها السابقة بعد ان وصلت إلى الغرق في فيضان لينينغراد .واقتنع المرضى - تحت تأثير الايثر - بإيحاء الطبيب ، وراحوا «يعيشون» مرة اخرى تجربتهم القاسية في المعركة : من رعب وحماسة ، وتهيج . وما تلبث تلك اللحظات أن تتبعها حالة الانهيار والاعياء العاطفي وعدم الاستجابة لكل حافز خارجي ، ثم يستيقظون ، وغالباً ما تنهمر سيول من دموعهم وهم يعترفون بأنهم شفوا وتحرروا من مرضهم ، وانهم لا يكترثون إذا ما تذكروا ما حدث لهم.

ولا يحتاج كل مريض إلى هذا الاجراء العنيف، بل يسترخي بعضهم بعد كميات قليلة من الباربيتون . ولا يهم ان استعاد المريض الحالة المؤلمة بالضبط لأن كل ما يماثلها يجعل المريض في حالة من الفوران العاطفي فالتفريغ العلاجي. مثلاً : حالة الجندي في

شباك قطاع سريع لتحفيز دماغه. ويشبّه (دينس هيل) استاذ الأمراض النفسية في جامعة لندن حالة التوتر التي تسبق الصرع بالتوتر الحاصل بين الجمهور المتحفز الذي قد ينفجر إلى مظاهرة كبيرة أو اضطراب عام.. ، أو هو أشبه بالتوتر الذي يحدث في حلقات المشايخ وأصحاب الطرق عندما ترتفع اهتياجات المشاركين إلى اقصاها وتتبعها اغماءات وصراخ وانهيار. ويعتقد هيل ان كل إنسان معرض للصرع، إلا أن لكل دماغ بشري درجة مقاومة خاصة به . فمنها ما يستسلم للحوافز بسرعة ، ومنها ما يقاوم الشدائد إلى حدود لا يمكن تصورها قبل أن ينهار.

العقاقير في عمليات التحوير الفكري

قدم الطب الحديث أمثلة على مفعول العقاقير في « تفريغ » العقد النفسية وآثار الصدمات الحادة التي استعرضنا أمثلة منها في علاج عصاب الحروب . ثم اكتشفت بعدها أدوية حديثة أعمق أثراً وأبعد مدى في التحوير الدماغي لأنها استطاعت أن ترجع المعتوه التائه إلى عالمه الأصيل وحياته الواقعية ، واستطاع غيرها أن يطرد الاكتئاب وحب الموت ويجلب السعادة والحبور والشوق إلى الحياة ، كالأدوية المهدئة والأدوية طاردة الكآبة العديدة.

ثم اكتشفت عقاقير أخرى إذا تناولها الفرد الاعتيادي انقلب تدريجياً ..، وامتدت آفاق خياله وإحساساته ..، وتضاءلت أمامه المحسوسات والأبعاد والأزمان ..، فكأن تلك المادة تحفر في مناجم عقله الباطن وتستخرج ذكرياته وأمانيه إلى دنيا الحاضر . ويروح الفرد يحكي ويفرّغ ما في جعبته من أحاجي ورموز ومعاني تساعد المحلل والطبيب على كشف أعماقه وسبر اغواره . وقد تصل حالة الفرد تلك إلى ما يشبه الجنون الوقتي أو « مثل الجنون » ولذلك دعيت مثل هذه العقاقير باسم (مولدات الجنون) أو (العقاقير المهلوسة) Paychomimetic drugs . ونذكر من هذه العقاقير مادة (الميسكالين) -Mesca line المستخرج من النبات الشوكي Cactaceous Peyòte والذي يؤدي بعد تناوله إلى حالة تصوفية حالمة بحيث تبدو الاشياء التافهة والدقيقة مسائل ضخمة جبارة أمام عقل الفرد ، كما تمتزج شتى الأحاسيس في آن واحد بحيث ينقلب الصوت إلى مرئيات . فطرقة على الباب يحسها الانسان كمجموعة من نقاط ضوئية أشبه بنقاط شاشة التلفاز وهي تتحرك في بقعة معينة من الهواء . كما ينعدم الشعور بالزمن ، وتصبح الذرات روحاً أثيرية تتخلل كل شيء. ويصف الدوس هكسلي تلك الأحاسيس الميتافيزيقية الجنونية عندما تناول الميسكالين بنفسه ليتأكد من مفعوله.

ومن الأدوية الأخرى مشتقات حامض اللايسرجيك L. S. D.[٧٩] . وهو سهل التركيب والصنع ، ولذلك تسرب من المستشفيات والمختبرات الطبية إلى العامة بعد ان

---

(٧٩) D - Lysergic acid Diethylamid

أو يتوهم المدمنون انفسهم ، إذ أن بعضهم يبقى في حالته الجنونية تلك ولا يرتد إلى عالم العقول ، ويصبح زبوناً لأطباء الأمراض العقلية أو نزيلاً في البيمارستانات . وهذا ما يحدث في مدمني الهيروين والمورفين والـ (ل.س.دي.).

إن غسيل المخ بالعقاقير عملية عريقة جداً، بل هي أيسر السبل لتغيير الاتجاهات الشخصية على الاقل . فالخمر عقار قديم جداً لجأ إليه الانسان لحل كثير من مشاكله أو لتخفيف التوتر في علاقاته الاجتماعية او للحصول على « تفريغ » مناسب . ولا تخلو حياتنا اليومية من المناظر المتكررة التالية : الصدر المترع بالأحزان ..، يلجأ صاحبه لتناول بضع كؤوس مركزة متلاحقة،ليحكي لخلّه ما يختلج في فؤاده.والضمير الذي يئن من وطأة سر رهيب..، يحتسي الكأس ليسهل له مهمة الاعتراف أو الخيانة والافشاء.والتاجر الألمعي بطل الصفقات الضخمة ..، يدعو عملاءه إلى وليمة « اجتماعية » ، يدور فيها ما لذ وطاب من خمر ومأكل ومتعة، وتتمّ فيها اعظم واخطر الصفقات. واللاعب « النظامي » الذي عقد لسانه وروّض عنقه في ساحة الملعب والنزال ..، يعود بعد فوزه إلى حفلة خاصة ليأكل ويشرب ويطلق لعواطفه الحبيسة العنان في وسط مقبول ومعزول. والشعب المرهق في حرب خبيثة طويلة ..، يلجأ الى الرقص الجنوني الحر أيام النصر، كما حدث في انكلترة وفرنسا وأمريكا في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية. وكان الرقص الهستيري والسكر والعربدة من حوادث عام ١٩١٨. واحتسى اليونانيون الخمر إحياء لذكرى (ديونيسوس) و(باخوس) ، وهم الذين استعلموا تعبير « التفريغ » Catharsis بدل «رد الفعل » الحديث . فالتطهير او التفريغ إذن حيل فسلجية قديمة لجأ اليها مختلف البشر للتأثير على أنفسهم وعلى غيرهم[٨١] ، وهذا ما حدث لدى (الحشاشين) كما أسلفنا سابقاً.

إن الميسكالين والأيثر والـ (ل.س.دي).والغاز المضحك وحقن الباربيتون والحشيشة والخمر.. ، ما هي إلا وسائل لتخدير الخلايا الدماغية او تحفيزها لكي ينقلب اتجاه العقل وإمكاناته وتقبله للايحاء..، فإذا صاحب تناول العقار ممارسات وطقوس أخرى ، كالرقص والسهر والارهاق والجوع أو الاضطراب في تناول الطعام ، وصلت الخلايا الدماغية إلى حالات التثبط أو التفريغ أو النقيض حيث تنتهي أحياناً إلى جنون دائمي .. أو شفاء عاجل أو تطليق واحتقار للرذائل والاتجاه الى التبتل والورع.

ويذكر وليم جيمس بضع وقائع من التحول الديني بعد فترة عصيبة من الارهاق النفسي والسهر والاعياء أو التسمم بالكحول الذي كاد ان يقتل ذاك الانسان . كذلك يؤيد العالم الفسلجي الروسي (لويبا) Leuba بعد تجارب مختبرية تلك التحولات نحو

---

(٨١) Sargant, W. (The Mind Possessed), qq.
تردد ذكر اسم (وليم سارجنت) كثيراً في هذا الكتاب ، وهو طبيب وعالم نفسي بريطاني له كتاب وابحاث عن (غسل الدماغ) وعصاب الحرب .

« المأخوذين » في الاختلاجات وصرخات الآخرين وهي تعبر عن استغاثة الأرواح المعذبة وكأنهم يجدون الجحيم تفتح أفواهها لتبتلعهم . ولعل هـذه النوبـات وقدرة القسس المجددين والداعين الى الطريقة الاصلاحية (الميثودست) هي التي نجحت في تحويل كثير من الكاثوليك في كورنول الى الميثودية . فالـواعظ الديني يعـزز من حماس المصلـين واختلاجاتهم بكلماته التي تصور لهم آثامهم وتجسم لهم عذاب السعير ، وان ما ينتابهم آنئذ دليل على سوء نياتهم وعدائهم المبطن للمسيح . وفي الوقت المناسب ، يبدل الواعظ من لهجته ونغمته .. ويعود فيذكر رحمة الرب وغفرانه والسعادة والآمال التي تنتظرهم بعد ان يكفروا عن ذنوبهم .. ، فتهدأ ثورتهم وترتسم السعادة والإيمان على وجوههم ، ويعودون من جديد أطفالاً للرب .

وما جرى من هستيريا الجماعة في تلك الحقب يماثل ما جرى بين الجنود أثناء الحربين العالميتين باعتقاد سارجنت . أما ممارسات الجماعات ذات الصبغة الدينية فكانت براهين أخرى على العدوى الهستيرية . ويصف الأمير (يوسوبوف) تأثير الراهب الروسي الداهية (راسبوتين) بمفعول السحر على جماعته وعلى القيصرة ـ . وقد انخرط راسبوتين في طائفة « المتوسطين » أو الـ « خليستيس » Flagellants and Khlystys ، وهم الذين يجلدون أنفسهم بالسياط ويدعون بأنهم ملهمون بسرّ الكلمة المقدسة ، وانهم الذين سيبعثون المسيح من جديد . وكانت تلك الجماعة تقيم احتفالاتها بظاهر من الروحية المسيحية ممزوجة بكثير من الطقوس البدائية المتوحشة والخرافات الحمقاء . ويحضر الاتباع إلى كوخ أو غابة مضاءة بالشموع ، ثم يبدأ الاحتفال أو الـ (رادناي) Radenyi بالرقص والهز الايقاعي المهووس . ويقف رئيس الحفل في الوسط ويهوي بالسوط على كل من يفتر حماسه أو يبرد اهتزازه . وكان راسبوتين أحد رؤساء تلك الاحتفالات .

وفي ايران ، أطلق على الرقص الشعائري وممارسيه اصطلاح « الهزّازون » Shakers أو Tarsa. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ذكّرنا القارىء الكريم بأن بعض الرقصات الحديثة جداً استمدت أسماءها من تلك الممارسات القديمة كالهزّ Shake والتلوّي Twist والرّج Jerk !!

إن القرن العشرين لم يخل من ممارسات وبائية لا تقل مفارقة وغرابة عن مثيلاتها في القرون الغابرة . فمن التناقضات الفاضحة ، ومن الفوضى العميقة داخل المجتمعات الرأسمالية التي تدعي الديمقراطية رياء .. من ذلك الوسط ظهر الأدب الثائر والمتمرد والرافض . كذلك أعلنت جماعات من الشباب الحائر رفضها وتحديها لمجتمعاتها التقليدية بأساليب شتى يمكن أن يوصف معظمها باللاجدوى أو بالانحدار والضياع والتهتك واللامسؤولية . وهكذا ظهرت جماعات متفرقة في العالم الغربي تمارس أنواعاً من الطقوس والعادات والمتع مما لا يتعدى نطاق التحوير الفكري الوبائي . والرقص الحديث ما هو إلا « الرقص البدائي » بإيقاع موسيقي حديث . والشاب المائع والملتوي المهتاج المنكوش

أو العقاقير أو الممارسات العنيفة والطقوس الصاخبة التي تؤدي بـه إلى القلق أو الاكتئاب .. ، التهيج او الوسوسة .. ، الهسترة أو الارتياب أو الغضب أو الاعتداء . فالانماط السلوكية الاساسية للبشر منذ أقدم العصور وحتى الآن هي صفات فسلجية راقدة في جهازنا العصبي .

التأثير الجماهيري في الحروب الصليبية والتبشير

لم تستطع الحروب الصليبية أن تستمر تلك المدة الطويلة بدون إعلام ودعاية وحماس جماهيري من الجانبين المتنازعين . وقد كان الإعلام والحماس الاسلامي يستخدم الخطب والوعظ في الجوامع والمدارس ويستثير الغيرة الدينية والوطنية . واستخدم العالم الغربي الشعور الديني في سبيل تحقيق أطماع دنيوية متشعبة منها : التبشير ، والغزو الفكري والعقائدي ، والغزو التجاري . على أن حدثاً فريداً من سلسلة تلك الحروب المضنية برهنت على مدى عمق الحثّ الجماهيري والوباء السلوكي الذي يجر الانسان جراً إلى اتجاهات مؤسفة ومواقف عقلية شاذة . ذلك الحدث هو ما دعي بـ « حملة الأطفال الصليبيين » :

ففي عام ١٢١٢ م ظهر إلى الوجود « جيش الأطفال » الصليبي . وقد شرع في تشكيله راع صغير اسمه (ايثين) قال انه رأى السيد المسيح عليه السلام ، وادعى انه عيّن سفيراً ليقود الحجيج المقاتلين إلى الديار المقدسة . وما حلّ بذلك الجيش من الأطفال مأساة كبيرة للغاية . فقد لبّى النداء آلاف من الأطفال الصبيان ، واكتسحت هستيريا التطوع كل حي وقرية وبلدة . وبدأ الأطفال يصرخون ويستغيثون ما لم يطلق الآباء سراحهم ليلتحقوا بجيشهم . وتجمعوا أخيراً في ميناء (مارساي) ليجدوا أن (ايثين) لم يتمكن من إدارة البحر وتطويعه .. ، لذلك احتلوا سبع سفن كانت راسية في الميناء حينذاك وأبحروا فيها . وغرقت منها اثنتان وفقد كل من فيها ، بينما اتجهت الأخريات إلى أسواق النخاسة وأصبحوا عبيداً . وهذا مثال على هستيريا الرعاع كان ضحيتها آلاف الأطفال الأبرياء .

ولا نود الربط بين التبشير والحروب الصليبية ، بل يشمل كل محاولة مذهبية لجذب آخرين اليها . كما أن المبشرين للدين الواحد يتنافسون فيما بينهم ويطبقون وسائلهم الاقناعية وفقاً للمذهب الذي يدعون اليه . ويتطلب التبشير أن يبذل المبشر جهوداً ووسائل إقناع نفسية لكسب المنتمين الجدد للمذهب المقصود . ولا ريب أن نفراً لا بأس به من المبشرين كانوا مخلصين لعملهم الروحي الخالص من مكاسب دنيوية أخطأوا في ذلك أم لم يخطئوا . إلا أن خدمة التبشير أحياناً وتمهيده للنفوذ الأجنبي يعد وسيلة لاحـربية ـ سلمية ـ للتحوير الفكري وغسل الدماغ المصلحي . وصلة النفوذ الاستعماري وتغلغله

وصدماته . وهو اعتراف شبه تلقائي . واعترافات الناس الاعتياديين الذين تدفعهم ظروفهم إلى مواقف محرجة اجتماعية كانت أو مذهبية تتم بعد سلسلة من عوامل نفسية تدور رحاها في عقل المعترف . وقد يتم الاعتراف تلقائياً على أثر تحول فكري حاد ، أو قد يكون خاتمة لعملية إقناع بطيء حثيث .

ويبدو أن الاعتراف أو الإفضاء بمكنونات النفس وسيلة للتقرب من المجموع . فالاعتراف يدفع الانسان إلى التعرف على غيره من الغرباء ليفضي اليهم بما يختلج في فؤاده ، وليحكي شيئاً عن مغامراته أو أعماله التي تشبع كبرياءه . ويندفع الغرباء الذين تجمعهم الصدفة في محل أو رحلة إلى سرد أسرارهم بصورة تلقائية لا تتناسب مع الصعوبة والتردد في سردها أمام الأصدقاء والمقربين أحياناً !.

ويقول (هوفر) إن الانغماس والاختفاء في الكتل البشرية يزيل حدود الذات ويرفع عنها المسؤوليات الفردية . فالمسؤولية تقع حينذاك على المجموع ـ على الكتلة نفسها . وهكذا تمت الاعترافات العلنية التي ذكرنا بعضاً منها وسنذكر غيرها . والغريب أن يعترف بعضهم بذنوب لم يقترفوها بالحقيقة ، أو يضخمون ويجسمون هفواتهم أمام الملأ تماشياً مع البقية كما حدث في جماعة أوكسفورد للتسلح الأخلاقي .

وتتم الاعترافات في ميادين الحياة العديدة .. ، منها المفيد للمجتمع ومنها المؤسف والمأساوي :

اعترافات المجرمين الاعتياديين

يسر المجتمع ، وتنشرح قلوب المصلحين ، وتزداد طمأنينة المواطنين .. ، إذا وقتهم الدولة من شرور المجرمين والمخربين . ويتحمل رجال الأمن والمحققون المشاق ، ويلجؤون إلى الحيل النفسية لزعزعة مقاومة المجرم كي يعترف . ومن هذه الوسائل ، يواجه البوليس « المتهم » ويوحي له بأن لديه أدلة كافية لاثبات جريمته . ثم يلجأ المحقق إلى وسائل مغرية للايقاع بالمجرم العنيد وإقناعه بالاعتراف الكامل . وأصعب المعترفين هم المجرمون المحترفون ، وما عداهم فاعترافهم أضمن .

وتحرم القوانين الحديثة في كل دول العالم تقريباً الحصول على اعترافات المجرمين بالعنف والقوة . غير أن المحقق وضابط الأمن ورجل السلطة يريد أن يخدم شعبه ومجتمعه ، ويريد أن يكتشف القتلة واللصوص والمغتصبين ـ بدون عنف . فكيف يتسنى له ذلك ؟.. لقد قدم علم النفس الحديث والفسلجة الدماغية ميداناً جديداً سلمياً لذلك . فالفرد المتهم ، بريء حتى تثبت إدانته . لكن ، إذا كان مجرماً حقاً ـ كما يعرف هو في دخيلة نفسه ـ فإن قلقاً عاصفاً يدور في رأسه .. فهو يشعر بالاثم .. ولعل له شركاء ومحرضين يخاف منهم أو عليهم .. ولعل ولعل . عشرات الـ « لعل » والتساؤلات تطارد عقله المجرم ، وهي نفسها الأزرار الحساسة والمفاتيح السرية إلى مكنوناته . فإذا عرف المحقق كيفية استعمال تلك الأزرار والمفاتيح ، وضخّمها ووسّعها بهدوء وتخطيط ، فإنه

(المرحوم) ربما كان المعتدى عليه أولاً مما حرضه على قتله بالنهاية . ويقول (لي) ان هذه الوسائل « اخلاقية » وترمي إلى حماية المجتمع الزاخر بالمجرمين والمنحرفين . إلا أن المحققين لا يفتقدون وسائل أخرى لسحب اعترافات المجرمين . والكاذب منهم لا بد أن ينسى ما ادعاه قبل يوم أو يومين ، ونسيانه لأكاذيبه يوقعه في تناقضات وارتباكات هي مفتاح السر بيد المحققين . ثم يشجع المحقق المتهم بعطف ولين ان يكتب اعترافه أو « قصته » لكي يبقى نقياً ويبدأ حياة جديدة ...

ويقول أحد رؤساء المحققين المتقاعدين من قوة بوليس مدينة نيويورك : « طريقتي المعتادة في التحقيق هي أن أدع المتهم يكتب افادته كما يحب ويشتهي في أول ساعة من قدومه . وفي اليوم الثاني ، وبعد أن نكون قد جمعنا معلومات إضافية .. ، نستجوبه مرة أخرى على ضوء تلك المعلومات . ثم نبدأ بتحليل أقواله ونكتشف النشاز والمتناقضات في الافادتين . ثم نبدأ باستجوابه مرة ثالثة .. لنكتشف المزيد من التناقضات .. ، ثم نضيِّق على المتهم الخناق بالحقائق المتوافرة لدينا .. ، وندعه يتكلم ويتكلم مراراً يوماً بعد يوم . وأخيراً ، فان كل مجرم حقيقي وكل من له معلومات إيجابية سينهار فجأة ويفضي لنا بكل شيء . ولن يكون التحقيق مجدياً ما لم نجابه المتهم ببعض الحقائق ونقاط الضعف ، ونوسع المفارقات في أقواله ليتشوش فكره ويكتنف عقله الضباب ، ويرمي بسلاح المقاومة . وقد ينخرط باكياً .. لانه فريسة عذاب عقلي باطني وليس من الخارج » .

وللتشوش والارتباك المذكورين آنفاً مساوىء ومزالق أيضاً ، لان الارتباك يمزج الحقيقة بالخيال ـ أي الكذب ، وقد تختلط الحقائق بالخيال والتصورات في نفسية المحقق نفسه . فإذا كان متعباً وعجز عن إيجاد نقاط الضعف ، انحاز داخلياً وأصر على انحيازه اللاشعوري بالحصول على اعتراف ما . ثم ان عقدة الاثم اللاشعورية في أي فرد كان تدفعه إلى الاعتراف .

الاعترافات في الحرب والسياسة

إذا ارجأنا البحث في عملية الاقناع الفكري والتثقيف الاشتراكي الذي جرى في حرب كوريا إلى فصل (السياسة والاجتماع) ، ولأنه تمّ بطرق نفسية غير عنيفة باعتراف معظم الكتاب والمراقبين .. ، فاننا لا بد أن نذكر ههنا ان سحب الاعترافات تعدى إلى النطاق السياسي ـ الاستعماري واستخدم وسائل العنف والاذلال التي لا تختلف عن أية وسيلة استخدمت مع المجرمين العاديين . المستعمر الغاصب لا يلتفت الى وسائل الاقناع النفسية السلمية لأن مفتاح الألم بيده ويستطيع أن يعرّض فريسته لأبشع الآلام في كل لحظة وأي جزء من جهازه العصبي .

وما يحدث الآن في الأرض المحتلة من فلسطين العزيزة على أيدي الصهاينة هو أقرب مثال على ذلك . فالاسرى من الفدائيين والمعتقلين من السكان العرب في سجون إسرائيل يتعرضون الى شتى ضروب التعذيب والارهاب والتنكيل والحرب النفسية والعقاقيرية

الضحية ، وبذلك يتم الاعتراف أحياناً . وقد نقص وزن بعض المعتقلين في الجزائر من ٧٠ إلى ٤٥ كغم . وقد تموت تلك الشخصية البشرية قبل أن تنبس ببنت شفة .. ، وقد تحتفظ بنبضة الحياة وشعلتها وتظل تقاوم وتتحدى على الرغم من كل شيء . وكانت صلابة الثورة ، وعزيمة الكفاح ، وطاقات التحرر هي مصدر القوة وينبوع الغذاء للعقل العربي الثائر . ولم يكن العنف في الحقيقة أنجح طريقة ولن يكون ، وهو واقع الحال في أرضنا المحتلة .. ، فإن كل تلك الوسائل لم تثبط همّة العربي المؤمن بحقه في الأرض السليبة .. بل زادته إصراراً وثباتاً وصلابة لا يؤثر فيها الموت والاستشهاد .

إن سلسلة الاجراءات التحقيقية تزيد من قابلية الفرد على تقبل الايحاء والادلاء باجابات عشوائية ، وإلى ورطات ومزالق ، ليقع في المصيدات التي ينتهزها المحقق الوحشي . ولعل التحفز الشديد في الجهاز العصبي يمتد ويعبر الى الطرف الثاني - أي إلى درجة التثبيط الحدّي ، فيصبح الفرد سلبياً ومطاوعاً ، ويعترف البريء بذنوب لم يرتكبها ، أو يقتنع باتهامات هي من ابتكار المحقق نفسه !. وفيما بين تلك الحالات النفسية للضحية ، يتصرف المرء ويتكلم بمجموعة متناقضات وتقلبات ..، أو انه يعزل عقله عن المؤثرات الجسيمة الواقعة عليه ، فيحتفظ بتماسك ذهنه الأصيل ويسترجع طاقة المقاومة ، ويتخلص من « الحيص بيص » أثناء إجاباته أو محاكمته . وهنا يبرز عامل الايمان بالرسالة التي يحملها الأسير ، فهي الدرع الواقي من كل تحوير فكري . وكمثال من مئات الأمثلة على الصلادة والتماسك العربي أذكر قصة المناضلة الفلسطينية (عبلة شفيق) : فقد اعتقلت وهي حامل في تموز ١٩٦٨ . ونقلت الى عدة أماكن من الأرض المحتلة .. ، وعذبت بوحشية .. ضربت بالسياط .. حرقت بالسجاير أهينت .. وضعت بصحبة المنحرفات الاسرائيليات .. سلط عليها التيار الكهربائي ، ولم تعترف .. ولم تنهار .. حتى أعيدت الى الضفة الشرقية .

أما المناضلة الفلسطينية (فاطمة برناوي) التي قضت عشر سنوات في سجون اسرائيل الرهيبة فقد قالت : « انني لا انكر انني بكيت ..، لكني رفضت طلب الرحمة من العدو » . ثم شرحت بتفصيل بعد ان أبعدت عن أرضها المحتلة كيف كان الصهاينة يعاملون السجينات العربيات بأقسى الضغوط النفسية والبدنية ، فقد يضعونهن مع المجرمات الصهيونيات الساقطات ، ويمنع عنهن الاستماع الى الاذاعة والقراءة أو حتى الدندنة بلحن ، ويكون العقاب بالسجن الانفرادي ، إضافة إلى ان معظم السجينات مصابات بفقر الدم والتهاب المفاصل وقرحة المعدة .

صفحات قاتمة من تاريخ سحب الاعتراف :

يسجل التاريخ جرائم وعار الصهيونية والامبريالية في تعذيبها المعتقلين والأسرى ، وهي أبشع وأظلم ما في التاريخ من صفحات . لكن يجب أن لا ننسى أن حوادث أخرى وقعت قبل قرون وعبر المسيرة الحضارية للانسانية سجّل فيها التاريخ أيضاً مدى الأخطاء

وبتهديد الفاتيكان بالاعدام وتهمة الهرطقة ، اضطر العالم (غاليلو) الى الاعتراف بأن الارض ثابتة ولا تدور حول الشمس ، لكنه ظلّ يردد مع نفسه بتهكم : « ولكنها مع ذلك تتحرك ..! Eppur, Se Mouve » ، وبهذا الاعتراف القسري صدر عنه عفو أو « ايقاف تنفيذ » عام ١٦١٦م، ولكنه منع من الدفاع أو الحديث أو ممارسة التعليم . وبقي معتكفاً في داره حتى مات في (فلورنسه) باعتباره كافراً . وحتى نهاية عام ١٩٧٩ ، طلب قداسة البابا من مجمع الكرادلة الكاثوليك إرجاع حقوقه وانصافه لأنه لا يقل عبقريةً عن (اينتشتين) الذي أقيم له احتفال احياء لذكراه وتمجيده آنذاك ..

وكان الوعاظ الميثودست من أتباع ويسلي في القرن الثامن عشر يصاحبون المجرمين العادين المحكوم عليهم بالإعدام ، ويجالسونهم في عربات الإعدام التي تنقلهم من السجن إلى ساحة الموت لكي يستحصلوا منهم على « الاعتراف » بالذنوب حتى تدخل السعادة إلى قلوبهم والإيمان إلى عقولهم فيتقبلون الموت باسمين منشرحين أثناء انتقالهم إلى الآخرة . ولعلّ من دواعي السخرية والعجب أن نجد في القانون الانكليزي مائتي جريمة عقابها الاعدام علناً ومنها سرقة أموال لا يقل عددها عن خمسة شلنات (ربع دينار) !!، وذلك حتى عام ١٨٠٠ م . ومن داوعي العجب أن تجد امرأة فقيرة سرقت خمسة شلنات وهي تقاد في عربة الاعدام وهي راضية سعيدة ـ لأنها انتهت لتوها من اعترافها للقسيس الميثودي .

ولعل من المنافذ السهلة للاستئثار بالدماغ البشري هي ما يدور فيه أحياناً من أفكار خبيثة أو شريرة . والحضارة المعاصرة لا تحاسب الفرد على أفكاره الشريرة إذا بقيت في حيز جمجمته ومخّه ، لكن القانون يعاقب على الأفعال فقط ، أي على مدى تنفيذ الأفكار الشريرة . ويبدو أن رجال المذاهب أو جماعات التحقيق التي عملت في محاكم التفتيش وحاكمت جان دارك .. لم يؤمنوا بهذه القاعدة العادلة ، بل جعلوا من الفرد آثماً فعلاً لمجرد تفكيره بها . وسيطروا بتلك الطريقة على عقول الغير واستحصلوا اعترافات من آخرين . ولولا شعور الفرد بالاثم ـ لما جرى في ذهنه من أفكار خبيثة ـ ، لولا ذلك الشعور لما ارتعب أو انتابه القلق أمام قضاته . ولعل بعض المبشرين الكاثوليك اتبعوا القاعدة الثانية تلك ـ أي إن الأفكار الآثمة تستدعي اللوم والعقاب والاستغفار . وربما استندوا في ذلك على تعاليم القديس ماتيوس الخامس (متّى) (Gospel Text) الذي يعتبر الأفكار الشريرة على قدم المساواة والخطورة مع الأعمال الشريرة .

كذلك جرى الاضطهاد والتعذيب والسجن والقتل منذ عهد المأمون فالمعتصم فالواثق ، وذلك بسبب أزمة المعتزلة وقولهم بخلق القرآن . وكانت تلك الحقبة امتحاناً عسيراً للناس والفقهاء والعلماء أشبه بمحاكم التفتيش الآنفة الذكر . وما أكثر ما اعترف بعضهم بخلق القرآن رهبة وخوفاً .وكان المقاومون قلة وعلى رأسهم الامام أحمد بن حنبل(٨٦) .

---

(٨٦) احمد امين ، (ضحى الاسلام) ، الجزء الثالث ، ص ١٥٢ .

جثتاهمـــا مخفيتين في منزله في لندن . واعترف تيموثي بذلك ، ولم تكن اعترافاته حقيقية .
وبعد ثلاثة أعوام ، اكتشف نزيل آخر في ذلك المنزل بقايا جثث اخرى مخفية وراء أحد الجدران. وانتهت تحريات البوليس في الدار الى اكتشاف ست جثث نسائية اغتيلت قبل سنوات . وقدم الى المحاكمة شخص يدعى (كريستي) اعترف بقتله الجميع !. وتبين ان كريستي كان صديقاً حميماً لايفانز المسكين ونزيلاً في نفس الدار الذي قطنه ايفانز أثناء قتله زوجته وطفله . وأصبح من المنطقي وشبه المؤكد ان كريستي لا ايفانز هو القاتل الحقيقي للجميع . وقد أثارت القضية كثيراً من الجدل والمناقشة والاستنكار . وكتبت عنها الصحف وصدرت حولها بضعة كتب وتقارير . وكل ذلك يدل على ان بساطة وربما غباء بعض المتهمين « يغسل دماغهم » ويربكهم ويدخل في اعتقادهم ما يوجهه اليهم المحقق من إيحاءات . وقلما يوجد الآن من يعتقد بأن ايفانز قتل زوجته حقاً . على أن ما حدث له ولعقله المحدود القابليات أدى بالنتيجة الى اعترافه الارادي . وقد وجد ايفانز بالحقيقة زوجته وهي مجندلة في بيته ، فارتعب وانهار . وعميت بصيرته في تلك الدقائق الرهيبة ، فولّى هارباً شطر (ويلز) . وهنالك اعترف لبوليس ويلز بأنه لم « يقتل » بل « تخلص » فقط من الجثة . وفي الطريق الى لندن وهو في قبضة البوليس ، استلمه ضابط آخر أخبره أن طفله وجد قتيلاً ومخفياً أيضاً . فكانت صدمة أخرى فوق صدمته . وفي غـرفة التحقيق ، توالت سلسلة « الأدلة « الموهومة : قطعة حبل .. غطاء مائدة ، بطانية .. قطع من ثياب زوجته وطفله . ومن خلال الأسئلة والاتهامات تشابك نسيج خيالي لقصة أو حادثة ، وأصبح للنسيج كيان راسخ في عقله المنهار « المغسول » من توالي المفاجئات .. فراح يروي قصة ذلك النسيج وكأنه حدث فعلاً . وتأكد ذلك بعد مراجعة اعترافاته وأسئلة المحققين ، إذ وجد الباحثون ان قسماً من الأجوبة ما هي إلا « صدى » لاتهامات النيابة ، فكانت أشبه « بطبع » آراء المحقق على دماغ المتهم عن طريق الايحاء والتحوير الفكري .

وقضية الطبيب (سمثرست) الذي اتهم بقتل زوجته بالسم مثال آخر على الايحاء المتبادل في التحقيق بين الأطراف المعنية : النيابة والشهود والمحلفين . فقد شهد البروفسور تيلور أستاذ السموم ، شهد بأنه عثر على آثار مادة الزرنيخ والقصدير في معدة القتيلة . وشهد ثلاثة أطباء آخرون عالجوها بأنها كانت مصابة بأعراض تسمم قبل وفاتها . ولما كان رصيدها في البنك ألفي جنيه استرليني ، وزوجها طبيب يستطيع تقديم السم لها وتمريضها كل ساعة ،وللفائدة المادية التي يمكن أن يجنيها من وفاتها ، فقد اتجهت كل الأنظار والاتهامات ضده . وقد وصف أحد المحامين المشاهدين والمتتبعين لجلسات المحاكمة ونزاهة اجراءاتها بأن : « كل من وجد داخل قاعة المحكمة كان مسحوراً بشعور ملحّ بأن الطبيب سمثرست قتل زوجته . حتى المحلفون والشهود وممثل الاتهام بالطبع .. » . واختصاراً ، فان الصحافة وزملاء المتهم من شتى أنحاء القطر واعتراضاتهم لم تغير من قرار المحلفين بأنه « مذنب » !. وفي فترة التحضير للاعدام ـ وهي ١٥ يوماً ـ، جاء البروفسور تيلور

ففي فترة الحملة على السحرة ، أُحرقت الآلاف منهن بعد اعترافهن بجريمتهن . وقد تبين بالحقيقة أن الأقلية القليلة منهن فقط كن يزاولن السحر والاجرام وينتمين فعلاً إلى مهنة السحر . أما الأخريات من الآلاف فقد اعترفن بقتل الأطفال وارتكاب المخالفات الأخلاقية والدينية دونما إدراك لحقيقة أقوالهن . فالتحقيق الصارم ، والجو المرعب والارهاق ...، أدخل في روعهن صحة الاتهامات الموجهة اليهن - أي بغسل الدماغ !!. وكانت اعتراضات وانتقادات (يوهان واير) لتلك المحاكمات في سنة ١٨٥٣ مثار غضب وانفعال رجال الدين . ولم تجد اعتراضاته منع آلاف من حوادث الاعدام والحرق للساحرات المزعومات . ويقال إن مجموع ما أُفني من الساحرات في ظل « التاج البريطاني » فقط كان حوالي ٤ آلاف ساحرة . وكانت الاتهامات غريبةوعجيبة. وكمثال على نوعية الاتهامات ما ادعاه (ماثيو هوبكيز) في سنة ١٦٤٤ من أنه يستطيع تشخيص الساحرة من علامات خاصة فيها : مثل الفالول ، والبقع العقربية على الجلد Moles and Warts والتي تستعمل كحلمات إضافية يرضع منها العفاريت (أطفال الجن) !. وبتلك العلامات فقط أعدمت ستون ساحرة في مقاطعة (ايسكس) خلال سنة واحدة . وكان ماثيو وغيره عشرات يتقلدون منصباً رسمياً هو « ضابط مباحث السحرة أو « كاشف السحرة » !. وقد وصف أحد القسس الجريئين ما يجري في أثناء التحقيق مع الساحرات من فظائع ، واستنكر العلامات « الاثنتي عشرة » الموهومة التي تستعمل لتشخيص وإدانة أي انسان بتهمة تعاطي مسحر . وأدناه وصف مختصر لمحاكمة الساحرة : « تؤخذ الساحرة المشتبه بها - التي قبض عليها المفتش أو الأهالي - إلى غرفة صغيرة لتجلس على مسطبة خشبية في وسط الغرفة . وتقاطع أرجلها وتقيد أحياناً إذا قاومت . ثم تراقب وهي جائعة دون طعام أو نوم لمدة ساعات إلى العشرين ساعة . وفي تلك الساعات يفترض المحققون أن أطفالها الشياطين يأتون ليرضعوا منها . ويفتح ثقب في باب الغرفة ليدخل منه العفريت الصغير . وبما أن العفاريت يأتون متنكرين بأية صورة كانت ، فإن المراقبين يكنسون الغرفة دوماً ويلاحظون وجود حشرة أو عنكبوت ليقتلوه حالاً ، فإن لم يقتل ...، فمعناه إنه هو عفريتها بالذات !. وتصور ماذا يحل بامرأة مسكينة كهلة أو عجوز تجلس على الخشب دون حراك ويجمد الدم في عروقها ، دون نوم أو طعام . إنها ستكره الحياة « وتعترف » لكي تنهي عذابها وتموت . فاليزابيث الشحاذة ، اعترفت أن عفريتها يؤذي الأغنام ...، وألين العجوز اعترفت أن شيطانها يضاجعها بضع مرات في الأسبوع مثل الرجال.. وجويس اعترفت أن شيطانها يقتل النعاج...، وقالت (آن) إن عفريتها يرضع عفاريت آخرين !!. وهكذا انتهت قصة السحرة : بضع عشرات منهن خدعن العامة بالدجل وغسل الدماغ ، وبضعة آلاف من الناس راحوا ضحية نوبة « اصطياد » وقتل هستيرية .

الدماغ » . وللأحلام أهميتها عند الصهاينة الذين يحاولون « اخراجها اصطناعياً » في أتباعهم لكي يبرزوا ما فيها من دعوة الى حركتهم والأمل الكبير المرتبط بها . والسذج فيهم يرون في أحلامهم « الاصطناعية » ما يؤكد دعوة الصهيونية الخبيثة . وبهذا الاسلوب وغيره تسيطر الصهيونية على أفرادها بقوة وضغط . والتابع لها يطاوعها كالدين المنسكب في قالب خاص .

ولعل وسائل الوقاية والتصلد ـ التي سنذكرها في فصل قادم ـ تستمد جذورها من طقوس الدين اليهودي . فالعقيدة اليهودية تديرها جماعة من الرؤساء يطلق عليهم اسم (سانهدرين) Sanhedrin أو « مجمع » أو « مجلس اليهود الأعلى » . وتتمّ إدارة وسيطرة المجمع الأعلى عن طريق جهازين محكمين :

الجهاز الأول ، بالاحتفالات والطقوس الكنائسية .

والجهاز الثاني ، بواسطة المعابد أو مجامع اليهود . Syngogue System والاحتفال الكنائسي السنوي إجباري ، لأنه عيد ديني . ويسبق العيد صوم « الكفّارة » The fast of Atonement وهو اعتراف بالإثم الشعبي . ويتبع ذلك احتفال عيد المظلة أو « عيد الخيمة»Tabernacles ، الذي يذكرهم دائماً بالخيم التي سكنها المهاجرون اليهود الذين غادروا مصر الفرعونية . وتتخلل عيد الخيمة (السكوّث) الأناشيد العاطفية والتراتيل والرقص والحبور الذي يغمر قلوبهم ويعمرها بحب الله !. ويتبع ذلك « عيد الأسابيع » Weeks أو عيد « الفصح » Passover ، حيث تنتاب الجماعات نوبة دينية غامرة وعارمة . وخلال تلك « النوبة الجماعية » التي تسكرهم وتهيج أفكارهم وتقبلهم للايحاءات ...، تبدأ سلسلة من المواعظ والتعاليم « الشرطية » المخططة ، وتفاسير معينة للألواح والتوراة ...، والاعترافات المتلاحقة بالآثام والذنوب في يوم الكفارة ...، كل ذلك ساعد اليهود على لمّ جماعتهم وتكتلهم وانعزالهم المرضي خلال ألفين من السنين .

فالاجتماعات المتكررة هي عملية بناء « انعكاسات شرطية » وطبعها في فكر اليهود وتجميد أفكارهم في قوالب معينة من المبادىء والأفكار والاتجاهات . ولا شك أن درجة « التصلب » وتقبل الايحاء في أية جماعة تعتمد على بناء شخصية الفرد . لكن العقيدة اليهودية أحاطت الفرد اليهودي بكماشة خانقة أفقدته حرية التصرف والتفكير تقريباً ، وذلك بالوسائل الوقائية الأخرى من انعزال اجتماعي ، وسكن في أحياء خاصة من المدن والقرى (الجيتو) Ghetto ، وتضخيم الشعور بالاضطهاد والظلم من قبل الآخرين ، والتخويف من الابادة والاعتداء . وبهذا التهديد النفسي الخفي الابتزازي سيطر القواد والرؤساء على الأفراد بطريق غير مباشر .

والمثقف اليهودي المندمج في محيطه ووطنه يدرك تماماً أحابيل الصهيونية ، ويحاول أن يوضح للرأي العام اليهودي والعالمي أن الصهيونية حركة عنصرية.وكمثال على ذلك

الاساليب الصهيونية في تغيير الاتجاهات

قبل ان ندخل في دقائق الاساليب الصهيونية في الخداع وكسب المؤيدين وتغيير الاتجاهات والمعتقدات ، نود ان نبين ان الراي العام العالمي قد أدان الصهيونية كحركة عنصرية بوثيقة دامغة وقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠/١١/١٩٧٥ ، وهو القرار الذي لطم الصهيونية على وجهها وأفقدها صوابها . ومع ذلك فانها لا تزال موغلة في أساليبها القديمة - والمستحدثة في التحرك في ثلاثة محاور متناسقة :

أ - الاول : الاقناع الفكري والضغط النفسي على أتباعها وعلى اليهـود في العالم من المستقلين .

ب - الثاني : الحرب النفسية والاعلام الموجه من الأمة العربية .

ج - الثالث : الاعلام والدعاية المخططة لتضليل وكسب الرأي العام العالمي هنا وهناك ..

ولا شك ان الدعاية الاولى للصهيونية هي الولايات المتحدة الامريكية . وقد اختلط الامر الآن بحيث غدا من المعقول والمنطقي التاكيد ان الصهيونية هي التي تسيّر امريكا أو تسير معها جنباً الى جنب ولنس وراءها . وأوجز أدناه بعض اساليب الدعاية الصهيونية لاعود فاكملها في القسم الثاني من هذا الكتاب - ان شاء الله - عند الحديث عن الوجود العربي في معركة الفكر :

١ - يقول (الفرد ليلنتال) مؤسس جمعية (يهود العالم ضد الصهيونية) في حديث له ادلى به الى مجلة (الف باء العراقية - العدد ٥١٤ في ٢٦/٧/١٩٧٨) أن الصهيونية تزيف الحقائق التاريخية وانها تلجأ الى البذاءة والرخص في الهجوم على اعدائها والى الاعتداء والاهانة لكل من يعاديها ، ويعتبر أن ضررها على اليهود في العالم مثل ضررها للعرب .

٢ - تحاول الصهيونية اقناع الراي العام الامريكي والعالم أن صراعها مع العرب امتداد لصراعها مع النازية ، ومع ذلك فهي لم توقع على اتفاقية منع انتشار الاسلحة النووية وتثير ضجة كبيرة لان العراق يعمل على استخدام الطاقة النووية للاغراض السلمية ، وتعدى ذلك الى ممارسة القرصنة وسرقة الراديوم والبلوتونيوم من مخازنها .

٣ - توسع الصهيونية من نفوذها وتغلغلها في السلطة الامريكية والدول الموالية لها بالوسائل التالية[٩٨]:

أ - حصر النفوذ المالي والاقتصادي بيدها عن طريق البنـوك الكبرى (مثـل امبراطورية بنك لازار) في امريكا واستخدام الضغوط والرشاوى والصرف على الحملات الانتخابية الأمريكية والمرشحين المؤيدين لها .

---

(٩٨) إيزاكس ، (اليهود والسياسة الأمريكية) ، ص ٨ و٣٩ .

من يهود قوم موسى (ع) الـذين كادوا ان ينقـرضوا . ويقـول العلامـة (ريبلي) W. Z. Riply في كتابة (سلالات أوروبا) Races of Europe : « ان تفاخر اليهود بنقاء السلالة هو خرافة .. » .

٦ - ويقول (حكماء صهيون) ان القاعدة الأولى في العمل هي : « إعمل بسرية واياك ان تكشف عن حقيقة عملك » . وتتجلى قابلية الخداع والتضليل في بعض الاحزاب والمنظمات التي تعتبر نفسها « تقدمية » في اسرائيل لكنها لن تتخلى عن فكرة الوجود الاسرائيلي والاستيطان كما اتضح ذلك في خطط ونوايا منظمة (ماتسبن) الاشتراكية و(راكاح) الشيوعي . أما الذين رفضوا (صهينة) التقدمية فقد انفصلوا عنها مثل (ن . فاينشتوك) التقدمي المتحرر الذي هجر اليسار الصهيوني وعاد الى موطنه بلجيكا للعمل من خلال تنظيم بلجيكي ضد اسرائيل[٩٩].

٧ - تهتم الصهيونية العالمية بأي اجراء تتخذه دولة ما - روسيا مثلاً - تجاه اليهود السوفييت المنشقين عنها والباقين في روسيا وتحاول التأثير في اعمال (منظمة العفو الدولية) ، بينما تتجاهل وتشكك فيما تقوم به من تعذيب لآلاف المعتقلين العرب في الأرض المحتلة - ومنها سجن (النفحة) الرهيب في النقب .

٨ - تحاول الصهيونية خلق النمط المثالي والنموذج السامي (للبطل الصهيوني) - ذلك الاسرائيلي الذي يتلقى أوامر الحرب والقتال دون تردد ونقاش أو ادراك لجوهر القضية . ودراسة قدري حفني (تجسيد الوهم) الصادر عن مركز الدراسات الفلسطينية تتطرق الى ذلك والى حياة (الكوبيتز) التي تجرى فيها عملية (غسل الدماغ) للفرد الصهيوني .

٩ - وتحاول الصهيونية ابراز الشخصية الصهيونية والعقلية اليهودية كمثال عالمي ، فلجأت الى التأثير في منح جائزة (نوبل) من قبل الاكاديمية السويدية . ومن المؤسف القول إنها نجحت في ذلك وبمساعدة امريكا : فقد حاز (رالف بانش) الأمريكي مساعد رئيس هيئة الأمم المتحدة عليها لأنه ساعد الصهيونية بمناوراته في تنفيذ خططهم في مؤتمر (رودس) لتوقيع الهدنة ، ومنحت الى اديب صهيوني مغمور عام ١٩٦٦ لم يكتب إلا بالعبرية وهو (شموئيل يوسف عجنون) ، ومنحت إلى (هنري كيسنجر) كرسول سلام وهو غارس الفتنة الكبرى في جنوب لبنان ومخطط مؤامرة (كامب ديفيد) ، ومنحت عام ١٩٧٦ إلى أديب صهيوني آخر مضمور هو (شموئيل بيلو) لأنه أصدر كتاباً بعنوان (اسرائيل والعودة) بعد زيارته للأرض المحتلة بسنة ، ثم منحت الى (اسحق سينجر) البولوني الأصل الذي يكتب بلغة (اليديش) اليهودية المحلية .

١٠ - قلب أي اجراء ضد الصهيونية وجعله اجراءً ضد اليهود واليهودية مع ان

---

(٩٩) ليلى القاضي ، (دراسات فلسطينية) ، ٨٣ : ص ٧ .

الاقنــاع التجــاري

بعدما برز في القاموس الحديث اصطلاح « غسل الدماغ » على أثر حادثة تاريخية في أوائل النصف الثاني من القرن العشرين وتركزت حوله التساؤلات وتحولت نحوه الأنظار ..، انحسرت موجة الدهشة والتعصب ، وحلت محلها موجة من بحث ودراسة علمية حيادية . واكتشف الانسان أن عمليات غسل المخ والتأثير والاقناع كانت تجرى على نفسه وعلى غيره في كل لحظة من لحظات حياته المادية . ساعة من التأمل والتفكير الرزين ، أزاحت من عيون الفرد الغربي حجباً كثيفة ، وكشفت له مدى وجود « حرية الاختيار » أو مدى فقدانها لديه !. وساعة التأمل تلك ، برهنت أن ملبسه وطعامه وشرابه وسهراته وألوان حيطان منزله وأثاثه ، ولعل كيفية اختياره لزوجته هي من ضمن عملية « اقناع خفية » سلطت على دماغه ...

وعالمنا اليوم هو عالم الدعاية التجارية بحق ..، يقوم بها المنتجون ، ويمارسونها على الزبائن ، وكافة الناس . والمنتجون تجار ..، وللتجار أفانينهم التي ورثوها وأضافوا عليها بحكم الخبرة والممارسة . لكنهم مهما بلغوا من الحذق ، فلا يمكن أن يسبروا الأعماق أو يفهموا النفس البشرية على حقيقتها كما يفهمها علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجي . لذلك ، راح المنتجون وأصحاب الشركات والبائعون الاعتياديون يستشيرون أولئك العلماء ليعينوهم ويبصروهم بدروب الإقناع وجذب الزبائن وتسيير اتجاهات وعقول الناس نحو عملية الاقتناء والشراء . وقد تنوعت نواحي الدراسات إلى درجة مدهشة . وأذكر على سبيل المثال ، أن إحدى مؤسسات الدعاية درست دورة الحيض عند ربات البيوت وما يطرأ على الأنثى من اضطرابات وتقلبات نفسية أثناءها لكي تجد لها منفذاً إلى كيفية ترويج وبيع انتاجها من بعض مواد الطعام !.

ويشير البروفسور (كلايد ميلر) إلى أن الانسان « مخلوق من مجموعة انعكاسات شرطية » على غرار اعتقاد بافلوف ، وإنه ما عمل رجل الدعاية إلا أن يعرف كيف يبني سلوكاً شرطياً في عقل المستهلك . وهكذا شعر التاجر بأن عليه الاستعانة بغائصي الأعماق النفسية ودارسي البواطن ليتمكن من إقناع الزبائن . وبلغت محاولة الاستعانة بالخبراء

الاجتماع والأجناس في جامعة شيكاغو وهارفرد . كما صدرت مجلات تجارية خاصة منها مجلات : (تايد ، والعمل الأسبوعية ، وعصر الدعاية ، و وول ستريت) وكلها في الولايات المتحدة .

وأصبح من اختصاص بعض وكالات الدعاية مجرد تقديم النصح إلى زمر شتى من الناس أو الشركات . فالمؤسسة الفلانية مثلاً ترغب في انتاج نوع معين من البضاعة . فتتقدم إلى الوكالة المختصة وتسألها عن رأيها في التسمية أو اللون أو الأسلوب الدعائي . وتدرس الوكالة الموضوع المطروح بمساعدة خبرائها وبحدود إمكاناتها ... ثم تتقدم بتعليماتها ونصائحها مقابل أجر طبعاً . وقد يبلغ الأجر اليومي للاستشارة التجارية الواحدة خمسمائة دولار (حوالي ٢٥٠ جنيهاً) ، فإذا ما ضربنا عدد أيام الاستشارة بالمبلغ اليومي ، أدركنا جسامة الأجور الاستشارية تلك .

ولعله ليس من المبالغة إذا قيل إن الولايات المتحدة الأمريكية بوكالاتها التجارية ، تستطيع أن تختار لك أصدقاءك المناسبين وتقدمهم لك مثلما يقدمون لك المفروشات والأثاث لبيتك الجديد !. ولقد اتسع ميدان الاستشارات هذه إلى حد أن لجنة « العلاقات العامة » قدمت نصائح إلى رجال الكنيسة عن كيفية التأثير في الناس أثناء اجتماعاتهم الدينية . واستأجرت إحدى المؤسسات قاعة كاملة ، وعرضت سلسلة تلفزيونية دعائية محلية على ثمانية من الخبراء من علماء النفس والأجناس والاجتماع ، وطلبت رأيهم في الدعاية التجارية التي شاهدوها واقتراحاتهم وانتقاداتهم لها . ويلجأ المنتجون أحياناً ـ مبالغة في الحذر ـ إلى استشارة مؤسستين للدعاية لتتأكد من خطواتها المستقبلة وتوقياً لفشل لا تحمد عقباه. وكثيراً ما تتفق آراء مؤسسة ديختر مثلاً مع آراء معهد (جسكن) للألوان ، وهما أشهر مؤسستين في الاستشارات التجارية .

وأصبحت دراسة الميول والاتجاهات المسماة اختصاراً م. ر ـ M. R.[١٠٢] ، ضرورة لكل منتج ورجل دعاية . وكان مؤسسها وأول أعلامها هو الدكتور ديختر آنف الذكر ، الذي أطلق على هذه الأبحاث بـ « استبار الأعماق » . ومن دراسة الأعماق خرج الغالبية بمفاتيح الميول والرغبات التي يمكن تعديلها وتحويرها لتكون سلاحاً دعائياً ماضياً . ومن هذه المفاتيح المعروفة ، حاجة الانسان إلى تقليد الغير ... إلى الشعور بالأمن ... إلى المتعة الحسية عن طريق الفم (الطعام) الخ . وهنا يتقدم علم النفس والأمراض العقلية بتزويد جوّابي الأعماق النفسية . ويلجأ المحللون إلى استطلاع نفسية المستهلك وكأنهم يستطلعون نفسية « مريض» نفساني . وقد يتم البحث مع مجموعة من عشرة مستهلكين مثلاً إذ يشعر الفرد بحريته وانطلاقه بين الجماعة ـ .

واستخدم « جهاز كشف الكذب » من قبل معهد « الأبحاث والألوان » لمعرفة تأثير

---

(١٠٢) Motivational Research

وهي الطريقة التي تدعي بـ « إعلان ما دون الشعور » Sublinimal Advertising وكان مبتكرها أمريكياً يدعى (جيم فيكاري) ، واستخدمها في صالات العرض والسينما . وكان يسلّط (بروجيكتور) ثانياً على الفيلم الذي يجري عرضه على الشاشة بطريقة خاصة خافتة جداً تكاد أن لا تراها العين . وبواسطة البروجكتور تظهر جمل وكلمات دعائية مثل « اشرب كوكا كولا » أو « تذوق جو كولاته ن. ن. » . وبما أن درجة وضوح الجمل تلك هي تحت الحد الشعوري ، فإنه يخيل للمشاهد ان ما يراه أو ما يكاد أن يراه هو « ايعاز » داخلي في عقله الباطن !!، فيتناول الجو كولاتة أو يندفع إلى شرب الكوكا . وبهذه الطريقة زادت مبيعات الكوكا كولا إلى السدس والجو كولاته إلى أكثر من النصف .

وقد استنكر معهد الاعلان والدعاية في انكلترة هذا الأسلوب « المتنكر » ، ونشر أعتراضه في كتاب أسماه (التوصيل تحت الشعور) Sublini mal Communication في عام ١٩٥٨ ، كما منع المعهد ٢٤٣ وكالة إعلان من استخدام تلك الطريقة بقوله : « إن المواطن حر في اختيار أو رفض ما تعرضه عليه الدعاية والاعلانات التجارية ..، غير أن طريقة ما تحت الشعور تتعارض مع تلك الحرية » .

وحكاية التحفيز والحث تحت الشعور ليست حديثة بالحقيقة ، إذ لمّح لها أرسطو ، وتناولها بالشرح الفيلسوف لبينز Leibniz عندما ذكر احتمال احداث الحوافز إحساساً طفيفاً جداً قد لا يدرك المرء انها حدثت فعلاً أو انه شعر بها حقيقة بينما يستدل عليها بعدئذ بنتائجها عليه فحسب . وهكذا أوضح آدمز H. Adams في سنة ١٩١٠ كيف يمكن خفض درجة الصوت والكلمات المسموعة إلى حد يكاد لا يسمع أو كأنه صادر من الباطن . وفي عام ١٩٥٥ ، قدم ديكسون دليلاً على أن الدماغ البشري يلتقط الحوافز ما دون شعور . وأجرى ديكسون تجربة أخرى مماثلة لما فعله آدمز ، وذلك بأن أطلق بضع كلمات على جماعة من الحاضرين .. بخفوت تحت درجة الشعور ، ولما سألهم عن الكلمات الأولية التي تخطر لهم أو تقفز إلى أذهانهم في تلك الآونة ، أجابوا بالكلمات التي أطلقها لتوها !.

وقد أشار (الدوس هكسلي) في ندوة تلفزيونية إلى الحقيقة المرّة وهي ، انه إذا ما اكتشف رجل الاعلان القاعدة الناجحة في إعلانه ، استند عليها بكل ثقله ، وأضاف عليها تعديلات وتحسينات مطردة ، وإنه قد يستغل نفس الأساس والقاعدة لأغراض دعائية أخرى ـ كالدعاية إلى انتخاب نائب أو رئيس ..

الاعلان في التجارة :

يقال إن الإعلان بدأ منذ العهد الروماني ، إذ كان بائعو الأصباغ والدهان يعلنون عن بضاعتهم بالكتابة بها أو بواسطة دمغات صخرية توضح ألوانها ونوعيتها . غير أن الاعلان والدعاية للبضائع والمنتجات بدأ بصورة واسعة عندما أصبح الاستهلاك والتوزيع يشمل جماهير كبيرة وبضائع ثانوية ، لأن الاحتياجات الأولية الضرورية كالخبز واللحوم والخضروات لا تحتاج إلى دعاية . كما ان القرية الصغيرة لا تتطلب أبواقاً من الحائك

وأصبح « الاعلان » علماً نفسياً يستغل عواطف الأمومة أو غرائز التقليد وحب السيطرة والرخاء والغنى وحب الظهور والتطلع الى كسب إعجاب الغير ومديحهم . كذلك استغل الاعلان تجارب بافلوف في خطورة الاقتران والتكرار ، بحيث أن الكلمة المعينة إذا ذكرت حلّ محلها في ذهن القارىء أو السامع مباشرة الموضوع أو البضاعة المقصودة في الدعاية . فإذا ذكرت كلمة (هوفر) مثلاً ، تبادر إلى ذهنه رأساً مرادفها الدعائي « ماكنة التنظيف والكنس الكهربائية ! » . وقد شرح هذه الارتكازات النفسية التجارية البروفسور والترد . سكوت مدير المختبر النفسي في شيكاغو في سنة ١٩٠٩ ، وذكر أيضاً كيف أن أصحاب الاعلانات يتجنبون الفكاهة والدعابة في الاعلان لأنه « عمل جدّيّ » .

ان الجدية المتعمدة تلك والخبرات النفسية والاجتماعية تقدم للمستهلك معلومات لا يمكن أن توصف بأنها حقيقية أو صادقة ، بل مجموعة من « أنصاف الحقائق » ، والأكاذيب ، والمغالطات ، والمبالغات ، والمبهمات التي تحمل الوجهين ، أو « الخداع » بصورة عامة . ويتجلى ذلك في الاعلانات عن الأدوية كما هو موضح في الأمثلة التالية :

- استعملوا الكلوكوز .. ستشعرون بالتعب لشدة حاجتكم إليه ..
- للإمساك مضار ..، حاربه باستعمال الملين (سين) ..
- الروماتيزم ينتج عن « شوائب » في الدم ..، فاغسل الشوائب باستعمال ملح (عين) .

فإذا شئنا الحقيقة العلمية فإن الكلوكوز ضروري للجسم البشري فعلاً ، لكن الانسان لا يتعب إذا لم يتناوله ما لم يكن مصاباً بمرض معين ، وكل جائع يتعب أيضاً ! كما أن الإمساك لا ضير منه ما لم ينتج عن أمراض معروفة في الجهاز الهضمي ، بينما استعمال الملينات بكثرة هو الذي يؤدي بالحقيقة إلى مضاعفات وأمراض !. أما الروماتيزم فهو تعبير غامض حتى على الأطباء ، ومن الخطل والتدجيل عزوه الى شوائب في الدم ..

وينطبق الشي نفسه على مساحيق الغسيل وأعاجيبها . فالمسحوق يحوي على « المادة السحرية العجيبة » التي اكتشفها خبراء لإحداث المزيد من فقاعات الأوكسجين ، فإذا ما تحققنا عن ماهية تلك المادة السحرية ، إذا بها الـ (بيربورات) Perborate القديمة المعروفة !. كذلك حدّث ولا حرج عن السكاير وأنواعها وأعاجيب الاعلانات عن مذاقها وروائحها . فإذا جئنا بمجموعة من المدخنين المزمنين وأطبقنا عيونهم بالأربطة ، وقدمنا لهم أنواع السكائر ليدخنوها ويميزوها بواسطة الغليون ، لفشل أكثرهم في ذلك !.

وتحدث الدعاية الأعاجيب من الاقبال على المنتوجات . حتى الشعب الانكليزي « المحافظ » انطلت عليه حيلة تجارية أمريكية . فقد كان الانكليز يتناولون الزبيب المستورد من استراليا وافريقيا الجنوبية والذي كان يغمر أسواق انكلترة . وكان لدى جمعية الزراع الأمريكان فائض ضخم من الزبيب أيضاً . فما كان من الجمعية الفلاحية تلك إلا أن تصرف ٢٥٠ ألف دولار خلال ستة أسابيع على لندن وحدها ، واحتلت الدعاية عن

خاصاً في أذهانهم . فقطعة المارجرين المرسوم عليها نبات البرسيم (النفل) ذو الأربع أوراق ، أو القميص الرجالي المصحوب بصورة رجل وسيم ذي شوارب أنيقة ...، أو السكاير التي يدخنها « العمال المتازون » هي ليست بضائع صرفة تهم المستهلك بقدر ما تهمه « الصورة » أو المثال التي يصاحبها في عقله أو اعتقاده . فسكاير الكامل (الجمل) المعروفة تعني لدى الناس « الرجولة » أو « الدخان الحار » ، وسكاير (لكي سترايك) تعني نفس الشيء مع تخصصها للناس الاعتياديين . أما سكاير (شيسترفيلد) فهي للنساء والرجال !...، ودخانها متوسط الحرارة .. ألخ . وسيارة (الكاديلاك) تدل على : الأنفة ، والحراك الاجتماعي ، والبريق ، والمسؤولية ، ورجل الأعمال . وسيارة (فورد) تدل على : السرعة .. والدخل الجيد ، والشباب ، والعمل ، وعلى أعلى الطبقات السفلى الاجتماعية . أما (البونتياك) فتدل على : زجاج واضح الرؤية .. في وسط الطريق .. وامرأة متزوجة ، وأم ، اخلاص ...، انهماك ، كفاءة !.. الخ . وتبقى تلك الصور والمعاني عالقة في أذهان العامة ، وتتبدل ببطء ، وقد تخفت ، إلا أنها لا تتبدل بسرعة .

وقد تكون الدعاية للسكاير الفلانية موجهة الى قطر أو شعب معين ، وتتغير اذا كانت موجهة الى شعب آخر . ففي البلاد العربية مثلاً نرى الاعلان عن سكاير (كيم) kim الجديدة يستخدم الممثل المصري (المهاجر) عمر الشريف الذي يعلن من الراديو بلسانه انه يستعمل سيجارة كيم في اسفاره . ولعمر الشريف معجبون كثيرون ولكن ليس في الهند أو الصين أو الفيليبين مثلاً !

ثانياً ـ محاربة الوحدة والاكتئاب .. كما يقول العالم النفساني هاري سليفان ، هي من أشد العواطف الكريهة التي لا تطاق . وقد اكتشفت إحدى الشركات المنتجة لبطاقات عيد الميلاد (الكريسمس) والتهانيء المختلفة ان أحسن بطاقة بيعت لديهم احتوت على تصوير شجرة عيد الميلاد لوحدها ، أو صورة جبل وحيد مغطى بالثلوج . واكتشفت الشركة أيضاً أن أكثر مستعملي بطاقات المناسبات هم من المسنين أو العزاب أو العانسات أو العجائز ، أي الذين يشعرون ويقاسون الوحدة ويحاولون أن يبدوا لغيرهم بمظهر المرح الاجتماعي .

ثالثاً ـ تقديم الضمان العاطفي : فالثلاجات البيتية والبرادات تقدم للناس ضماناً صلباً ، ضماناً بوجود طعام في البيت ـ انها تعيد للكبار ذكريات الطفولة والأمومة ، إذا لا تخيب الأم أبداً ظن طفلتها أو طفلها إذا ما طلبوا طعاماً . فالطعام غريزة يجب تطمينها . والضمان العاطفي يتغلب على حسابات وتقديرات الاقتصاديين من الناس ، لأن ثمن الثلاجة ومصاريف الكهرباء الشهرية ، وما يتبقى من فضلات الطعام المجمد المحفوظ دون استعمال ، كل ذلك يكلف الفرد أكثر مما لو اشترى الطعام جاهزاً ليومه !. والأمثلة الأخرى كثيرة .

رابعاً ـ توفير التأكيد بالأهمية : فأنواع الصابون ومساحيق النظافة لا تحتل مكاناً

الكثير بأنه شراب الأيام السالفة الجيدة » و « شراب البيت الجميل » و « الشراب الذي اعتادت جدتنا العزيزة احتساءه » . وتضاعف بيع الشراب في غضون سنة ، وارتفعت تكاليف دعايته إلى مليوني دولار ، وهي أعلى تكاليف لدعاية الشراب لحد الآن !.

تاسعاً ـ تبيع الشعور بالخلود : وهنا تبرز فعاليات شركات التأمين على الحياة التي تحاول جهدها أن تكسب عميلاً دون إشعاره بالكبر أو المرض أو العجز . غير ان أهم عامل لا شعوري يدفع الناس إلى التأمين على حياتهم هو يقينهم باستمرار وخلود تأثيرهم على أطفالهم من خلال المبلغ المؤمن ـ أي خلودهم كمصدر ثقة وطمأنينة لذويهم .

عاشراً ـ إنارة وترضية الغرائز الجنسية : عشق الذات ، والتطلع إلى جمال الجسم وجمال الجنس الآخـر نزعة أو غريزة مغروسة فينا . وتستغل الدعاية التجارية تلك النزعات الجنسية لترويج البضائع ، وإن كان ذلك الاستغلال مسألة اخلاقية وموضع جدل . فالبضاعة البسيطة قد لا تشبع اغراض المنتج الطموح ، ولذلك اطرد الاقبال على اجتذاب الناس بالمناظر والصور والأوضاع الفاتنة ذات الطابع الجنسي . وقد فشلت دعايات كاذبة كالتي تقول للأنثى مثلاً: إن العطر الفلاني يدوخ الرجال ويوقعهم في حبائلها . وفشلت دعايات أخرى تماثلها . وتبين بعد دراسة نفسية ، ان المرأة لا تريد مجرد رجل أو لذة جنسية عابرة ، بل إنها تصبو إلى حياة محترمة مع شريك يتزوجها .ولم تعدم شركات العطور ومساحيق الزينة والمعاجين وسائل أخرى للضرب على أوتار جنسية حساسة في الناس من مثل نزعة « حب العرض » والظهور exhibitionism أو الماسوشية أو السادية . وقد اكتشف وكلاء الدعاية ان اغلب مشاهدي حفلات الملاكمة وحلبات المصارعة هم من الأناث !.، كما علمت ان السر في ذلك يرجع الى حب رؤية الرجال شبه عراة بعضلاتهم وصراعهم العنيف ـ السادى ـ ودلالة الرجولية فيها . كما ظهرت حديثاً بدعة الاعلان عن صور الرجال العرايا للدعاية عن الملابس الداخلية الرجالية . وقد باعت إحدى الشركات الفرنسية ثلاثة أضعاف ما كانت تبيعه من البسة رجالية بعد استخدامها صور الشباب العرايا . وتعلق الخبيرة (ماريا مانز) [١٠٣] على ذلك بقولها ان جسم الرجل يمكن أن يكون جميلاً كجسم المرأة الجنسي ، وهو تجديد في الدعاية ، لان النساء لم تعد ترتعش لمرأى الرجل الرياضي العضلي بل يفضلن الجسم الذكري الغض الرشيق .

والناحية الحساسة الأخرى التي تفيد البائعين والمنتجين ، ان النساء يحرصن على الشعور باحتفاظهن بانوثتهن كما يحرص الرجال ايضاً على الشعور باحتفاظهم برجولتهم ، خاصة وان عصرنا هذا قد حوّر من دور المرأة والقاها في خضم العمل والكفاح ، غير أن شعوراً باطنياً يدعوها دوماً إلى انها لا تزال تحتفظ بأنوثتها وجاذبيتها . وهكذا فعلت أيضاً مؤسسات الدعاية لمختلف المنتجات النسائية . فانتجت الشعر المستعار على اختلاف ألوانه

---

(١٠٣) مجلة (نيوزويك) ، عدد ١٨ مارس ، ١٩٦٨ .

الأمريكيين للبان بأنهم شعب لم يرتووا من أثداء أمهاتهم !. لأن مضغ اللبان يدل على الحرمان من الرضاعة او تقطعها او فقدان حنان الأم الخ . فالمضغ إذن يريح الأعصاب ويرسي التوتر الباطني ويزود لذة للفم ويحد من الميول العدائية ..، وكل ذلك يتلاءم مع نظرية فرويد ويتنافى مع الفكرة السائدة بين الناس ـ وحتى المنتجين انفسهم ـ ان اللبان يحلي الانفاس ويسهل الهضم وينعش الفم . وهكذا ظهر اعلان في إحدى المدن التي تهتم بصناعة الفحم والمناجم والتي لا تستهلك من اللبان إلا النزر اليسير ، وكان الاعلان يمثل طفلاً يريد أن يقوم بعمل ما فلا يفلح ..، لكنه يفاجأ بوالده وهو يقدم له قطعة من اللبان ليمضغها ، فإذا به به يشمّر عن ساعديه للعمل !..، ونجح الاعلان .

ثاني عشر ـ استغلال الفروق الطبقية وتحويرها : فبهدي من نظرية أدلر التي تضع حب العلو والميل للشهرة والظهور في المرتبة الأولى لمحركات السلوك الانساني .. او تقليد الفقير للغني ، أو التمثل بتصرفات المترفين ..، راح وكلاء الدعاية ينفخون في غرور البسطاء وذوي الحال المتوسط واليسير . قال احدهم في اجتماع للدعاية : « انهم يبتاعون الثلاجات ولا يجدون مكاناً لها في بيوتهم ، فيضعونها في الممرات وقرب المداخل . ويشترون السيارات الطويلة العريضة أيضاً ، لكنهم لا يعرفون كيف يرتقون في سلم الطبقات . » .

واختلاف الوضع المادي والثقافي والتربوي في اغلب المجتمعات النامية او الرأسمالية تخلق طبقات متفاوتة من الناس ، تتطلع كل واحدة إلى الأخرى - إلى أعلى أو الى اسفل . إن من الرجال من يبتاع قمصان ماركة (هاتاوى) مثلاً لأن البارون رانجل الروسي « النبيل الأصل » كما يقول الاعلان يرتديها بين حين وآخر ، وبذلك يصبح اقتناء ملبس معين او سكاير معينة رمزاً للانتماء الى طبقة او صنف معين من الناس.وقد قسم (لويد ورنز) من جامعة شيكاغو المجتمع الأمريكي الى ست طبقات . فالفرد الأمريكي يتصرف في حدود غير مرئية من صنع تلك الطبقة ، وقد يتوق إلى الانتماء إلى غيرها ـ بدافع المنافسة أو الحسد أو الشعور بالكفاءة أو حب الارتقاء أو المساواة . والدعاية التجارية تتملق او تحفز تلك النزعات الطبقية فيتصرف الفرد ويشتري ما يشتريه فرد آخر من طبقة أخرى .

والأنثى هي الأكثر طموحاً واندفاعاً في هذا الميدان ، وهي التي تقرر ٨٠ ٪ من مشتريات البيت . ولذلك يبدي وكلاء الدعاية ومستشاروهم أهمية قصوى بميول وافكار ونزوات النساء ، فالزوجة (سميحة مثلاً) تمارس الضغط أو الإغراء او التهديد الخفي لإجبار زوجها او ابنها على اقتناء ثلاجة او سيارة أو جهاز تلفاز مثل جارتها (سليمة مثلاً) او زوجة فلان . فالضحية الهينة واللقمة السائغة للدعاية هي المرأة من الطبقة المتوسطة الفقيرة لانها تمثل الاغلبية ، وتحرص على واجباتها ، وحياتها محدودة ، وعواطفها حبيسة ، ومجال تفكيرها المنطقي غير طليق ..، ولعلها وحيدة وقلقة ايضاً . هكذا وصفها ورنر وسميث ومارتينو ، خبراء الدعاية التجارية !.

ثالث عشر ـ النظرة إلى المرأة كعالم خاص : وعلى ذكر المرأة ، والجنس اللطيف ،

الأطفال أن ينشدوا الأناشيد أو يرددوا الألحان والجمل التي يذيعها تلفاز الدعاية التجارية ، ولعلهم يتعلمونها ويتقنونها قبل تعلم النشيد الوطني مثلاً !. وتحاول الدعاية التجارية في التلفزيون الأمريكي استنفار كل جهودها وإلى أبعد الحدود - إلى حد القيام بدعاية خاصة عن الأدوية لأطفال هم دون الخامسة من العمر !. ويعيد الطفل ما يراه ويسمعه في التلفاز كما تعيد الاسطوانة نفسها . ولا ريب أن الأطفال يمارسون نفوذهم وضغوطهم على آبائهم لاقتناء ما يريدون . والطفل مرهف الاحساس .. يلتقط المعرفة بسرعة ، ويصغي أكثر مما نتصور نحن الكبار . وقد ترسخ في ذهنه أسماء أبطال الروايات القصيرة التلفزيونية المتسلسلة ، فإذا به يجد في الأسواق شخاطاً (كبريتاً) أو بسكويتاً أو قمصاناً تحمل أسماء تلك الشخصيات البطولية !.

خامس عشر - اختلاق الموضة « الموديل » وزادت أطماع المنتجين ، فراحوا يوهمون عقول المستهلكين بضرورة التجديد والتنويع .. وجمال الموضة . فالنماذج الحديثة المبتكرة والحرص على المظهر اللائق بين الأقران ، يدفع بالمرء إلى رمي القديم واقتناء الحديث . ولعل الرجال أقل الناس ميلاً إلى استبدال الملابس والأحذية ، بيد أن المنتجين لم يكفّوا عن إقناعهم بأفضلية المودة وأهمية الاناقة في المكتب أو المرقص أو المطعم . كما أقنعوهم بأن السيارة الواحدة لا تكفي للعائلة . فالشاب الجامعي له سيارته الصغيرة ، والزوجه لها سيارتها ، ورب الأسرة له سيارته الكبيرة (ستيشن) بالطبع للسفرات الجماعية الطويلة !.

ومن ذيول ولواحق الموضة التفنن في أشكال والوان واحجام السيارات . فالماركة الواحدة لا تكفي والاسم الواحد لا يقنع ، لذلك نجد ان لسيارة (فيات) اسماء وارقام ، وسيارة (الفولفو) ارقام GL 204 و DLX ، و (تويوتا) كراون وكورونا وسوبر .. وهكذا تلعب الارقام والرموز في إضفاء سحر وجاذبية على الموديلات وتعددها أو غموضها .. وفي الغموض سحر آخر !.

أما الموضة النسائية فهي الهدف اليسير للمنتجين منذ قديم الزمان . والمنتج الذكي يتتبع حركات المجتمع : يلاحق العامل والكاتب والمعلم ، ويتتبع الفلاح إلى كوخه ومزرعته . وقد أنتج أحدهم شريطاً مسجلاً خاصاً « لبيت الدجاج » . ولماذا الاكتفاء بجهاز التلفاز الأسود - الأبيض المعروف ؟.. أليس الأفضل والأذوق أن يكون ملوناً يجلب النظر ويسهل للانسان التقاطه طبيعياً وبسرعة ؟ (ولا تسل ما يتبع ذلك من شراء أجهزة جديدة .. الخ) . ثم ، لتكن أجهزة المسرة (التلفون) ملونة أيضاً كألوان جدران الغرف أو ثياب النساء . وإذا كان للسنة أربعة فصول ، أليس من الواجب أن نجري تبديلاً على بعض أثاث المنزل وعلى الملابس في جميع تلك الفصول ؟؟. ولماذا تقتصر الدعاية في فصل واحد ، على النظارات الشمسية مثلاً في الصيف فقط، فلتستمر الدعاية حتى في الشتاء !. ونجحت فعلاً إحدى الشركات في بيع النظارات في فصل الشتاء .

الناس ينظفون أفواههم بالفراشة والمعجون في أوقات غير مناسبة صحياً ـ مثلاً بعد استيقاظهم من النوم مباشرة . وتبين أن السبب في ذلك لم يكن بدافع المحافظة على الأسنان بل للحفاظ على رائحة فم طيبة وعلى مظهر مريح قبل الذهاب إلى العمل والاختلاط بالناس !!.

عشرون ـ أختلاق الشعور بالاثم والندامة : فإثارة الشعور بالإثم لدى الناس وسيلة دعائية لاقتيادهم إلى القيام بعمل ما . خذ مثلاً بائعي الزهور الذي يروّجون لقداسة « عيد الأم » ويدعون الناس لاقتناء باقات الزهور . فالفرد الذي يجب أن يحب أمه يميل إلى اقتناء هدية من الزهور لأمه . أما عدم قيام البعض بشراء الزهور فيعرضهم إلى الشعور بالندم والخجل من أنفسهم ..!

عراقيل أمام الدعاية التجارية

لو كان الاقناع التجاري عملية هينة ، لنام المنتجون قريري‌العين واستراحوا وهم مطمئنون إلى رواج بضائعهم . لكن الصداع والأرق ينتـابهم بين حين وآخر أمام معضلات وألغاز لا يدرون لها تفسيراً وحلاً ، ولو دروا ، لما كانوا بحاجة إلى الخبراء النفسيين ، ولو درى الخبراء النفسيون كل شيء لأصبح علم النفس متكاملاً مختوماً .

ومصادر الصداع والقلق للتجار والمنتجين كثيرة ، منها مثلاً تشابه معظم المنتوجات. فبترول السيارات متشابه ، ومعاجين الأسنان كذلك . والمدافىء متشابهة ..، والويسكي هو الويسكي . وكل ذلك التقارب يتطلب مجهوداً واعتصاراً فكرياً من رجال الدعاية لاختلاق الفروق بالشكل أو اللون أو الخيال أو بأسلوب الدعاية المعروف كذكر مشاهير الفن والسينما والسياسة من جملة مستعملي تلك البضاعة . وكلما اصطدم رجال الدعاية بمعضلة ، أسرعوا لايجاد مزيد من الأحابيل والشباك لاصطياد المستهلك . ولعل الناس لا يعرفون ماذا يريدون بالضبط ، أو أن رغباتهم واختيارهم للأشياء واقعة تحت تأثير عوامل لا شعورية . فالاعلان والدعاية يضعان اللاشعور في مستوى ومتناول الشعور ، ويجسدان تلك الرغبات .

وفي غمرة الحرب الاقناعية واستطلاع الأعماق ، يقوم الخبراء بعمل احصائيات ودراسات واستفسارات سرية ، إلا أنهم لا ينفكون يصطدمون بمفاجآت وصعوبات في فهم النفس البشرية . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نورد اثنتين منها :

المثال الأول ـ في قاعة للمحاضرات في أمريكا ، ألحقت بها غرفتان للانتظار . واحدة حديثة بكل أثاثها وتصاويرها وجدرانها ..، والثانية غرفة وقورة هادئة (كلاسيكية) على النمط الجاري في غرف الانتظار العلمية . وقد لاحظ أحد الدارسين ميول النساء نحو دخول إحدى الغرفتين وأيهما نالت إعجابهن . وتبين له ـ قبل دخول المحاضرة ـ أنهن اتجهن جميعاً إلى الغرفة الحديثة (المودرن) ، ولما لم يتبق للقادمات الجدد مكان اضطررن

ولبعض الحاجيات أو المأكولات « رمز » الوضاعة أو النقص أو الفقر .. مما يدفع بعض الناس إلى الإحجام أو الابتعاد عن شرائها .فالبرقوق أو العنجاص المجفف كطعام قوبل من الناس بنفور ، مما سبب صداعاً وأرقاً لبائعيه . فما العمل ؟. استشير الدكتور ديختر الذي قام بدراسة تحليلية واسعة ، واستخدم اختيار « تداعي الكلمات الحر » ليرى ماذا تعني كلمة العنجاص للفرد الأمريكي . ووجد أن أول ما يخطر ببال المشتري عند سماعها هو « الجفاف » ..، ثم « العانس » العجوز ..، ثم « الطعام المعتاد » الذي تقدمه البنسيونات الحقيرة وداخلي الطلاب . كذلك يعتقد الناس انه « مسهّل » للأمعاء . فإذا سأل بائـع الخضروات ربة البيت : هل ترغبين في العنجاص ؟ أجابته على الفور : « كلا لا أريد ذاك الملين ! » . ثم أجرى ديختر عملية جراحية « دعائية » كبيرة على معضلة العنجاص ...، وظهرت الاعلانات الجذابة : عن « الفاكهة العجيبة الجديدة » .. وبألوان زاهية ...، وبيد الأطفال ...، وبيد الفتيات وهن يلعبن التنس أو يتزحلقن على الجليد ...، وارتفع بيعه كثمرة جديدة لها مزاياها ، وأصبحت أشبه بالحلويات . أما حكاية « المسهل » فقد انقلبت إلى حكاية « تنظيف الأمعاء وتلطيفها » أما العراقيل أمام بيع السكـاير فقد تطرقنا اليها سابقاً .

إن مجموع جهود الدعاية لا يمكن أن تضع عقيدة في محل آخر ، وكل ما تفلح في احداثه هو تخفيف أو زيادة نظرة وميول الانسان إلى بضاعة معينة . وربما ينتهي مجهود الدعاية بالفشل لظهور اتجاه آخر مفاجيء ، أو أقوى ، أو أشد ضرورة وإفادة . فعلى الرغم من التحذيرات الصحية عن علاقة السرطان بالتدخين ، فقد ارتفـع استهلاك السكـاير في الولايات المتحدة بمقدار ٢٦٪ منذ سنة ١٩٥٠ ولغاية عام ١٩٥٣ . وبنفس الوقت ، انخفض بيع تبغ الغليون إلى درجة كبيرة على الرغم من الدعاية له ! كذلك انخفض استهلاك البيرة بالرغم من أن مصاريف الدعاية لها بلغت أكثر من ١٠٠ مليون دولار في السنة .. لسبب بسيط ، هو عدم ملاءمة البيرة لذوق الشاربين إذا ما قورنت بالمشروبات الأخرى .

ثم إن مجهود الدعاية أصبح يولد لدى الناس بالحذر والشك،وربما رد الفعل. فالمعروف أن الشخص الطبيعي الآن ليس بالفريسة السهلة أمام الدعاية.وفي إحصاء جرى في الولايات المتحدة ظهر أن ٥٠٪ من النساء يربطن الدعاية بمفهوم «المبالغة»، وإن ٨٦٪ من الناس يعتقدون بأن الدعاية التجارية « غير شريفة » . مثال ذلك ان اسعار القهوة ارتفعت بشكل بارز في السوق العالمي بعد عام ١٩٧٥ ، وسرت اشاعة ظهور نوع من الصدأ النباتي على أشجار البن في امريكا اللاتينية . وهكذا اسهمت الاشاعة في رفع سعر القهوة وتزايد ارباح المنتجين ، وعندئذ أعلنت (جمعية المستهلكين) في الولايات المتحدة الامريكية مقاطعتها لاحتساء القهوة مما أدى الى انخفاض جزئي في سعر القهوة . وهكذا نجد ان المستهلك ينتبه احيانا ويخرج عن طوق وتأثير الدعاية التجارية .

وقد وصف (وليم وايت) وسائل الدعاية والهيمنة على الفكر بأنها قوية .. مؤذية .. علمية ..، وغير أخلاقية . وتكاليف الدعاية ترجع بالتالي إلى الناس وتحملهم أعباءها ، والنتيجة في الحالتين ـ استغلال فكري ومادي . فحبوب (الاسبرين) مثلاً تكلف الفرد المستهلك مبلغ ٤ بنسات انكليزية لكل ٢٥ حبة إذا لم يعلن عنها ، أما الاسبرين المعلن عنه في الصحف والتلفاز فإنه يكلف شلناً وثمانية بنسات لكل ٢٥ حبة !. وكان نوع من القوارير يباع بجنيه وثلاثة شلنات . وارتفع السعر بعد فترة إلى قرابة الجنيهين . ولما سئل المنتج عن السبب ، قال : إنه الفرق في تكاليف الدعاية !.

ويقول آخرون ، إن الانسان مخلوق فريد له شخصيته ، وإن وسائل الاقناع ـ مهما بلغت من القوة ـ فإنها لا تؤثر في لبه وكيانه . ويقول غيرهم ، إن الانسان خلق ليكون عرضة للاقناع والتوجيه مهما حاول التخلص من ذلك لأنه يعيش في محيط ووسط جماعة ، وإن التوجيه والتأثير متبادلان ..، ولعل فيه بعض الفوائد العامة أيضاً . مثال ذلك : حاول أحد منتجي مادة غذائية ترويج بضاعته بأن أعلن عن مكافأة (سفرة إلى هوليوود مجاناً) لمن يتقدم بأحسن وصف لمنتوجه بحيث لا يتجاوز الخمسين كلمة . وتلقى مئات الأجوبة ، غير ان تصريف انتاجه لم يتقدم خطوة أخرى . وبمساعدة الخبراء والدراسة النفسية للقضية ، تبين أن ربات البيوت والزوجات لا يكترثن بالمسابقة والمكافأة لسبب بسيط هو أن ظروفهن ووجود الأطفال لا يشجع السفر إلى هوليوود ، وإن اللواتي اشتركن بالمسابقة كن شابات مراهقات لا يعرفن أصول الطبخ وأهمية المادة المعلن عنها . تلك المحاولة الدعائية أعطت درساً لصاحب الانتاج ولغيره ، وأبانت ظاهرة اجتماعية عن ميول ونشاط ربة البيت . وإذا شئنا الحقيقة ، فإن الدروس الشخصية لا تبرر الدعاية بصورتها الحالية . كذلك أصحاب المصانع الخاصة والشركات التي تدرس سلوك عمالها وتفاوت انتاجها وتحاول معرفة السبب لتهيء الظرف والوسائل المريحة لزيادة الانتاج وتحفيز نشاط وكفاءة العامل ، فإنها تنظر إلى الفائدة المرجوة ـ أي الاستئثار بالربح غير العادل إذا لم توجد القوانين التي تضمن مشاركة العامل بالربح .

إن أخلاقية ومبررات الدعاية التجارية ستبقى موضع الجدل ..، لكنها تكشف عن حقيقة لا جدال عليها هي : أن ما نقتنية لأنفسنا قد لا يكون بمحض إرادتنا واختيارنا ـ على الأغلب !. أما موقف علماء النفس والأمراض العقلية وهم « خبراء » هذا الميدان ، فهو موضع المناقشة أيضاً . هل يحق لهم كعلماء إبداء مشورات تجارية ؟. إن المدافعين عنهم يقولون إن مشورتهم تستند على مبررات معقولة ـ هم يدرسون السلوك البشري .. وما يدرسونه ويقترحونه يوسّع مجال معرفتهم . وما جدوى علم مقوقع ؟.. إنه كالطعام المحفوظ في ثلاجة ، لا فائدة منه إلا عندما نغذي به الناس والمجتمع .

إن الجمعية النفسانية الأمريكية تحتفظ بمبادىء عامة لأعضائها مطبوعة في كراس أو دليل من ١٧١ صفحة يستعرض فيها ويناقش أكثر من مائة معضلة اجتماعية وأخلاقية ومهنية يمكن أن تعترض وتربك الأطباء النفسانيين . تقول إحدى تلك المواد :

التحوير الفكري في
السياسة والاجتماع

البيئة .. والجماعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الجماعة والمحيط بالنسبة للانسان العاقل هما بمثابة الغذاء والدم بالنسبة لأجهزة الجسم وخلاياه . ومهما بلغت فردية الشخص وانعزاليته ، فإنه لا يزال ينتمي ويعيش في محيط ما وجماعة ما . أما الفرد المصاب بمرض عقلي ـ كالفصام ، فإنه يعيش في عالم خاص من صنع عقليته وأوهامه ، فهو معزول مهما كان احتكاكه « المادي » مع جماعته . وهكذا نجد المرضى المنفصمين الموجودين وسط مئات المرضى غير أن الروابط الوجدانية مفقودة بينهم.

والانسان السوي يعيش على محيطه وجماعته في كل لحظة من حياته . ولا يمكن لجهازه العصبي أن يعمل بصورة صحيحة إذا لم يتلق الايعازات الخارجية بواسطة الحواس الخارجية والنهايات العصبية في داخل الجسم . ويأتينا الشعور بالحياة والإحساس بالوجود عن طريق الرؤية واللمس والصوت ...، أو عن طريق وجود الآخرين البعيدين والقريبين . آلاف الإيعازات الدقيقة منها والكبيرة تغذي جهازنا العصبي وتجعل أدمغتنا متهيئة ومتصلة بالعالم الخارجي. لذلك اتجه علم النفس بسرعة إلى دراسة الجماعات والمحيط والبيئة والمجتمع والثقافة وتأثيرها على نفسية الفرد لأن علم النفس لا يمكن أن يكون علم الذات الواحدة أو النفس الواحدة ، ولا يمكن أن يقدم صورة شاملة بدون دراسة الاطار والوسط الذي توجد فيه شخصية الانسان.

وقد أجرى أحد علماء النفس تجربة على نفسه ، إذ دخل في حجرة معزولة عن كل صوت مكسية جدرانها بالجلد المحشو بالاسفنج ، فلم يتحمل المكوث أكثر من دقائق ، وشرع يستغيث طالباً إخراجه . فالعزلة الشديدة تؤدي بالانسان إلى التخيلات وتصور الأشباح أو الأضواء او سماع الأصوات . ويقول العالم الفسلجي (هيب) Hibb إن أحد طلاب الجامعة الاصحاء تطوع أن يعزل نفسه عن الاحساسات الخارجية والأصوات لمدة أيام . وقد وصف بعدئذ مشاعره قائلاً : إنه أصبح منشطراً إلى شخصين لا يدري أيهما

وقد درس (منزل) في هامبورغ سلوك الأفراد عندما يضطرون إلى العمل في نوبات الليل في المعامل والمصانع والمطارات ،ورأى احتمال انهيار وازدياد المرض لدى المصابين بالتبول السكري او الصرع أو المصابين بالقرحة المعدية أو ذوي العصاب. ويحدث هذا الضيق والانزعاج للانسان الذي يعمل في أعماق البحار أو أعالي الجو أو رواد الفضاء. فالايقاع الداخلي والخارجي للانسان يتعرض إذن إلى شتى الاضطرابات التي تحدث مفعولها التحويري في سلوكه.

وللضوضاء والصخب والضجيج عين التأثير المعاكس للصفاء الذهني والهدوء العقلي . فكما ان الصمت والعزلة يهددان الدماغ ، فكذلك ارتفاع الصوت وضجيجه يهدد المخ ويربكه ويزعزعه . فالدماغ الذي يعمل بنسق وذبذبات معينة تحدث في خلاياه تغيرات ضارة إذا ما تلقى ذبذبات صوتية قوية وحادة . ومن التجارب المختبرية ، تبين أنه يمكن إحداث هياج وارتباك في الانسان إذا وجهت اليه أصوات ذات ذبذبة خاصة ، فينقلب الانسان الهادىء إلى فرد لا يقر له قرار ولا يستقر به مكان . والبوليس الأمريكي في بحثه عن كيفية تفريق المظاهرات المتكررة ، اخترع صفارات هائلة الحجم يوجهها الى المتظاهرين الذين سرعان ما يشعرون بالخمول والتعب والانهيار . ويقتضي التنويه أن الأصوات الموجهة قد لا تحسها الأذن البشرية لأن ذبذباتها خارج نطاق السمع الاعتيادي .

وفي جامعة كاليفورنيا أشار الدكتور (نوبل جونز) الى انه أجرى دراسة على (٢٢٥) ألف حالة ولادة ، وظهر انخفاض بلغ ١,٢ ٪ بين المواليد في المناطق القريبة من المطارات مقابل ٠.٨ ٪ في المناطق البعيدة عنها . وقال ان اصوات الطائرات تتلف دماغ الجنين والحبل السروي والمعدة ، كما تؤثر على راحة الجنين اثناء السبات في رحم الام.

وتعج مدينتنا الحديثة بالاصوات المتعددة الذبذبات المتنوعة النغمات والنشاز ..، فمن أصوات السيارات والقطارات والصفارات والطائرات بالاضافة الى ضجيج الزحام الخ . أما اصوات الطائرات التي تتزايد بسرعة فهي على الاخص مصدر إزعاج للدماغ البشري . وقد خرجت مرة مظاهرة قوامها نصف مليون مواطن فرنسي يسكنون في منطقة (أورلي) المحيطة بمطار باريس الدولي وذلك في نوفمبر ١٩٦٦ ، وكانوا حاملين اللافتات المكتوب عليها : « أوقفوا الضجيج » ، « نريد نوماً مريحاً » « الهدوء لمدارسنا[١٠٦]

ويزداد الخوف والحذر من التلوث الذري للبيئة بسبب التفجيرات النووية ، وتكثر الاحتجاجات والجميعات ضد التسلح النووي المحموم لدول الأحلاف والمعسكرات والتكتلات . فقد تصاعدت موجة الاستنكار والتنديد ضد الولايات المتحدة لعزمها على انتاج قنبلة نيوترونية وتوزيعها على قوات حلف الاطلسي ومنهم مجموعة من علماء جامعة

---

(١٠٦) مجلة (كورييه)The Unisco Courier عدد تموز ، ١٩٦٧ .

الحقيقية ليجعلها أنبوبية محدودة . فالقلق الذي يعانيه الوجود لا يتيح للعقل التفكير الواسع والمناقشة والحرية المرغوبة ـ أي يقوده الى الانسياق وراء الجماعة.

الأنماط الاجتماعية

ويتطلع الفرد الى مثل و« أنماط » في مجتمعه ، وتستغل الدعاية ذلك التطلع لتحقيق أهدافها . وتنشر الدعاية غير الأمينة اعلانات ومقتطفات من أقوال النقاد والمعلقين المشاهير عن قصة فيلم أو تمثيلية أو كتاب. وتكون تلك المقتطفات جملاً مادحة تعطي للقارىء وجهاً براقاً ومظهراً جذاباً للموضوع المعلن عنه . وقد تكون تلك الجملة الوحيدة المادحة ، بينما ينصب معظم النقد والتعليق المرير او الذم العادل في البقية !! .

وتعمد السلطة أحياناً إلى خلق « أنماط » اجتماعية لتضعها في أفكار الناس ومشاعرهم فتؤثر في اتجاهاتهم . وتتجلى خطورة ذلك عندما يكون هذا التدخل ليس في صالح الانسانية والعادلة الاجتماعية . ويبرز دور الكتّاب والمؤلفين والصحفيين في هذا الميدان . وقد قامت هيئة من الكتّاب الأمريكيين بدراسة عن مدى تأثير الكتّاب والمؤلفين في الرأي العام ، وخرجت في ١١ كانون ثاني لسنة ١٩٤٥ بالنتائج المدهشة التالية : وهي ان التكرار المستمر للأنماط العنصرية قد أدى الى المبالغة في ترويج فكرة كون الولايات المتحدة الامريكية بلد أنجلو ـ سكسوني يقطنه بيض بروتستانت وتحتل فيه العناصر الجنسية والدينية الأخرى مراكز أقل جدارة(١٠٧) . وثبت من دراسة ١٨٥ قصة قصيرة نشرت خلال أعوام ١٩٣٧ ـ ١٩٤٣ ان ٩٠,٨ ٪ من الشخصيات البارزة في تلك القصص (والبالغ الشخصيات ٨٨٩ شخصية) كانت شخصيات أنجلو ـ سكسونية ، أما الشخصيات الممثلة للأجناس الأخرى من الشعب الامريكي فلم تزد نسبتها عن ٩,٢ ٪ . أما الشخصيات الزنجية فكانت ١٦ شخصية . وأضفى الكتّاب على تلك الشخصيات البيض الأنجلو ـ سكسونية . صفات « الخير » والفضيلة والشرف والمكانة . أما صفات الزنوج « فكسالى » ، والايرلنديين « فمنحرفون » والايطاليين « فمجرمون » ، وكلها أنماط مفتعلة إلا نمط اليهودي الذي اتفقت آراء المراقبين في جميع انحاء العالم على أنه « ماكر » .

ويتجلى غسل الدماغ التربوي والعنصري في اضطراب وبلبلة وقسوة التدريس للأطفال الزنوج في المدارس الحكومية الأمريكية . وقد فضح هذا « القتل الدماغي » المستتر ببرامج « التربية » مدرّس أمريكي أبيض اسمه (كوزول) وسجل ما شاهده بنفسه في مدارس بوسطن على الخصوص من قسوة وتمييز وضرب وتعليم خاطىء وتشويه للتاريخ والجغرافيا ، ونشر كل الوثائق المخزية الدامغة في كتاب(١٠٨) . وكمثال على تحوير

---

(١٠٧) مختار التهامي ، (الراي العام والحرب النفسية)، ص ٩٩ ـ ١٠١ .

(١٠٨) Kozol, J. « Death At an Early Age ». Penguins. P. 76.

إلى جماعته ومن شعوره وتمتعه بكيانه كجزء من تلك الجماعة ، يجرده من طاقة الحياة والكرامة والمقاومة . وعندما مارس (ستالين) عملية التطهير الواسعة القاسية بين صفوف الحزب الشيوعي، وسجن شخصيات كبيرة أبيَّة ..، كان السجن والعزلة والحرمان من روابط الحزب والجماعة والناس قد أدى بأولئك إلى حالة اليأس والانهيار والاكتئاب ..، وإلى الاعتراف بذنوب لم يرتكبوها . وقد انتقد (خروشوف) تلك الحقبة من الحكم الستاليني في خطاب له في أواسط عام ١٩٥٦. كما تحدثت مذكرات المارشال (زوكوف) ـ التي نشرت تباعاً في جريدة الجمهورية القاهـرية ـ ، تحـدثت عن المحاكمـات « غير الشرعية »، وعن إعدام قواد أكفاء في تلك الحقبة ذاتها.

إن الكتلة البشرية تؤثر في أعضائها أكثر من تأثير الفرد الوحيد المنعزل . وتشجيع الاختلاط والجمعيات والنوادي يزيد من قابلية الايحاء في الفرد وتقبله للاعلام والتحويل. وأصبح معلوماً في برامج المذياع والتلفاز الناجحة أن المستمع أو المشاهد يقبل على الضحـك والمتعة بحرية أكثر إذا سمع أو رأى غيره يضحك بصوت مسموع . وهكذا ظهرت البرامج الكوميدية المصحوبة بأصوات المشاهدين والمستمعين . حتى المعامـل والشركات الكوميدية المصحوبة بأصوات المشاهدين والمستمعين. حتى المعامل والشركات راحت تبحث عن العمال «الاجتماعيين »، لأن المشاكل والاغلاط والتمرد يأتي عن عمال عزّل ذوي شخصيات مريضة أو غير منسجمة مع البقية . وظهرت تعليمات خاصة في المعامل والشركات (من قبل خبرائهم النفسيين) حول كيفية معاملة الأفراد المشاكسين وكسبهم ، وإذابة سلبيتهم أو معاكساتهم لأجل التوصل إلى انسجام عام وانتاج أكفأ. وذهب أحد الخبراء النفسيين ـ الصناعيين Industrial Psychologists إلى تطبيق مبدأ آخر هو مقابلة زوجة الموظف الاداري والعامل الممتاز قبل تعيينه في مهنته ، لأن اختيار الزوجة يعطي انطباعاً خاصاً عن كفاءته المتوقعة ، وهل ستؤازره زوجته أم لا ؟. وكم نتجت قرارات برفض التعيين بعد مواجهة الزوجة ! .

وأثبتت تجارب (لازارسفيلد) ، ثم (ميرتون) بعد دراسة الرأي العام ودينامية الانتخابات أهمية الاتصال الشخصي والمواجهة المباشرة في توجيه الرأي العام ويقوم بذلك الاتصال والمواجهة « قادة » الرأي العام ، وهم طائفة موجودة في قطاعات المجتمع على أنواعها ومستوياتها . وجاءت تجربة (كاتز) مؤيدة لما سبق . إذ تبين من دراسة ٨٠٠ إمرأة في مدينة (ديكاتور) بولايـة (الينوى) الأمـريكية أن اختيـار الأفلام السينمائية جاء عن طريق الاتصال الشخصي بنسبة ٣٣ ٪ ، وعن طريق المجلات بنسبة ١٤ ٪ ، وعن طريق الصحف بنسبة ٦ ٪ . وفي ميدان الشراء والتسويق ، جاء تأثير الاتصال الشخصي عن طريق الأقارب والأصدقاء والجيران بنسبة ٣٩ ٪ ، بينما كان تأثير الاعلان بالراديو ٢٥ ٪ ، وبالصحف بنسبة ٧ ٪ !!. وهذا دليل على تأثير الانسان على الانسان بمفعول الجماعة.

النازية انحرافاً صارخاً عن الاحتياجات الانسانية للمجتمع الألماني ، لكنه - وزمرته - استطاعوا بحذق الاستاذ غسل دماغ العامة والهاب المشاعر القومية الاستعلائية ، كما استطاع هتلر بخطبه أن يروّض الكتل البشرية ثم يوجهها بالكلمات النارية الساحرة والنظريات الآرية المبتكرة . واتهم الغير بالعداوة والحقد والحسد، وألقى تبعة خسارة الحرب العالمية الأولى على الأخرين ، وجنّد آلاف العاملين لتعمير المدن وتشييد مصانع التسلح . واستمر على تعزيز قيادته النازية بالأناشيد الرتيبة الحماسية .. وبالسير العسكري (المارش) .. وبحمل المشاعل ..، مما أوصل الجماهير إلى حالة من الهسترة والذهول . وفي ذلك، يقول (هيرمان راوشنغ) : «السير يحور من آراء الرجال .. ويقتل الأفكار .. ويقضي على الفردية .. » . وهكذا نحتت النازية الهتلرية الفرد الألماني في قالب معين ، وألبسته البزة الموحدة ، واعادت كتابة التاريخ وفق هواها لكي تثبت النظرة الآرية المتعصبة.

كذلك سار موسوليني على نهج هتلر. وأدركت القيادتان الفاشستيتان بعض المطاليب الشعبية ، إلا أنها قولبتها بالشكل الذي يرضيها . ولم تكن قيادتهما صادقة بالمعنى المفهوم للصدق الانساني النابع من العدالة والمساواة ومجانية الاعتداء على الغير. والنتيجة..، ان الدعاة والقادة - كمن أمثال هتلر وموسوليني - يدعون إلى ما يعتقدون ويتجاهلون ما يعتبر دليلاً ضد مجموعة تعاليمهم. فتعاليمهم هي « جهاز مغلق على نفسه » كما يصفه الدكتور روبرت اوبنهايمر.

وفي امريكا استطاعت (المكارثية) لفترة لا بأس بها ان تخلق «نمط» الخائن ، غير المواطن ، المعادي لامريكا لكل من يعارض تدخل امريكا في حرب فيتنام. وبهذا الضغط الذي مارسته عصبة موتورة على القيادة والكونغرس والشعب الامريكي. ساد إرهاب فكري او كما دعي بحق « اغتيال للاخلاق والشخصية» character assassination وفي بلد يدعي الديمقراطية. وعن هذا التوتر والارهاب النفسي حدث (غسل دماغ) المواطن الامريكي بحيث اصبح مسلوب الادارة لا يكترث لموت ابنائه في حرب لا تمس مصالحه المباشرة وغير المباشرة. أما «المتمردون » الرافضون الذين امتنعوا عن الانخراط في الخدمة العسكرية والذهاب الى المذبحة غير الانسانية في فيتنام فقد غمرتهم سيول الدعاية المكارثية .

وعلى النقيض من ذلك ، فإن قيادات أخرى تبرز ، وتصارح الجماهير .. تشاركها السرّاء والضراء .. وتعرض عليها الصغيرة والكبيرة .. وتزيل من أمامها الحواجز والعقبات .. وتشاطرها كفاحها . وتكون خطاباتها وسيلة للاتصال المباشر والتأثير المتبادل. فالخطابة ليست من عيوب القيادة، بل إن العيوب والثغرات تكمن في درجة صدقها ومراميها الانسانية، أو في نتائج أعمالها السيئة . والزعامة الأمينة هي التي تتبع وتعبر وتنفذ آمال الجماهير - غالبية الجماهير . أما التهريج والطغيان فلا يلبث أن يتخلى عنه الناس .. وقد تلجأ القيادة إلى الدعاية لرفع مكانتها بين الناس حتى إذا كان ذلك على

أمية كيزيد بن الوليد ومروان بن محمد اعتنقوا مذهب الاعتزال، مما يدل على كونه مؤيدا لهم أو على الأقل غير مضعف لدولتهم . وتوصل المأمون الى ايجاد (نمط) للكافر ، الجاهل، الضال.. لكل من يعارض فكرة خلق القرآن، ولجأ الى شتى الضغوط النفسية والعنف من أجل ذلك .

تضليل القيادة بالتأثير الخارجي

عندما يتغلغل الأجنبي في بلد ما ويريد تسيير دفة سياسته كما يشتهي وكما تقتضي مصالحه، فإنه يلجأ إلى فنون الدعاية والتحوير الفكري للسيطرة على الشعب وقيادته الوطنية. وقد أدرك الاستعمار الحديث ان للحكم المباشر مخاطره ، فراح يحكم الاقطار بصورة غير مباشرة : بخلق قيادات اسمية او متواطئة بالاضافة إلى تجنيد فصائل العملاء والجواسيس . ويحفل التاريخ بأمثلة على كيفية خلق قيادات مناسبة أو « غسل أدمغة » قيادات غير منسجمة مع الجهة ذات المصالح والمطامع.

ويذكر لنا التاريخ العربي ، أنه في الفترة التي تلت العصر العباسي الأول ، زاد التنافس بين الفرس والترك على مراكز الدولة ، ورجحت كفة القواد الترك أولاً . وقد تعمد أولئك أن يأتوا بخلفاء عباسيين ضعفاء وبسطاء ليديروهم ويقودوهم دون عناء ومقاومة. ويحكي الصولي(١١٠) انه عهد إليه بتربية الراضي بالله وأخيه هارون . فجبب إليهما العلم ، وسار في تربيتهما حثيثاً في النثر والشعر واللغة والأخبار والعلم . فوشى به الخدم ، فقال له أهل القصر . « ما نريد أن يكون اولادنا أدباء ولا علماء ...، وهذا أبوهما قد رأينا كل ما نجد فيه وليس بعالم!» فلما سمع الصولي اتى نصرا الحاجب وأخبره بما قيل ...، فبكى وقال : « كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم ؟ » . وما تلك الحادثـة إلا دليل على التربية المخططة لخليفة المستقبل كي ينشأ جاهلاً غراً فينصرف إلى لهوه ولذاته ويترك لهم زمام الأمور ودفة العقل والتصرف في شؤون الدولة.

فاعداد القائد المناسب يتطلب تحويراً فكرياً من قبل الأجنبي والمستعمر. وقد يتم التحوير الفكري بواسطة عصبة أو جماعة تحيط به ولا تنفك عن التأثير فيه بتكرار آرائها واتجاهاتها لتغرسها في عقله وتنفذ مآربها عن طريق قيادته . وقد تردد كثيراً في صحف أمريكا نفسها والعالم ان (ليندون جونسون) رئيس الولايات المتحدة السابق كان تحت تأثير تحوير فكري مستمر من قبل (البنتاغون) في وزارة الدفاع وفي الحزب، وهم الذين كانوا يحبذون ويصرون على تصعيد الحرب الفيتنامية واستخدام القوة كسلاح تأديبي ضد الثوار الوطنيين. وأقل ما يدل غسل الدماغ هذا على ضعف القيادة وعدم التبصر ووهن في الحكمة والسياسة وإهمال للمفاهيم الانسانية. أما الذي يقاوم ، فيجب أن يتوقع المصاعب بأنواعها . ألم ينتبه وزير الحربية الامريكية الأقدم (جيمس فورستال) الى

---

(١١٠) (المنية والأمل) للمرتضى ، ص ٢٣ .

الحكومة الوطنية الصينية استيراده ، حاربتها بريطانيا باسم « الدفاع عن حرية التجارة » !، وانتصرت عليها ، وعقدت معها معاهدة (نانكين) سنة ١٨٤٢ ، واستولت على هونك كونك ، واستمر تهريب الافيون.

ويعرف المستعمر أن التماسك عقبة كأداء أمام أطماعه ، ولذلك يلجأ إلى التفتيت : بالدرس ، والاشاعات ، والدعارة ، والمخدرات. والتماسك الذي أبدته شعوب افريقيا في انتفاضاتها المتوالية مثال قريب على ذلك. و(الماو..ماو) أناس بسطاء وطنيون..، لم يضحوا بأنفسهم ويتحدوا ضد الاجنبي بسبب « تفلسف » أو لبلاغة أو منطق ..، بل لأن شعورهم الأصيل بالحرية وعاطفتهم الغريزية تجاه وطنهم وقيادتهم الواعية المتفهمة ..، أوصلتهم إلى إيجاز دورهم التاريخي اللامع المشهور بالاتحاد والصلابة والمقاومة . إن جماعة (الماو.. ماو) أدخلت الرعب في قلوب المستعمرين بسلاح من الترابط والتآزر الممزوج بحب الحرية والقومية.ولم يكن قادتهم ليستطيعوا توجيههم بمجرد المناقشة العلمية والفلسفة، أو بأصول ومناهج جامعة أكسفورد أو الاكاديمية الفرنسية ..، بل إنها « انفعلت معهم بالأسلوب الشعبي الديني العاطفي وخلقت منهم قوة فدائية متراصة . وفي عام ١٩٥٣ ذكرت أنباء مدينة (نيروبي) كيف القت الشرطة الاستعمارية القبض على جماعة من (الماو ماو) توطئة لإعدامهم في صبيحة اليوم التالي ..، فإذا بأولئك يجهرون بالأناشيد بكامل انشراحهم وسعادتهم !. إن عضو (الماو ماو) جزء متراص ومخلص لبقية الجماعة بعد أن يكون قد مرّ بدور من التهيئة والإعداد الصارم الشديد المليء بالطقوس والايمان والمذهبة الأخاذة في أواسط غابات مظلمة ساحرة . ولم يجد الضرب والتعذيب والقتل في جماعة الماو .. ماو ، لأن ما عاهدوا أنفسهم عليه ، وما رسخ في أدمغتهم من عقيدة كان فوق وسائل التعذيب الاستعمارية . ولا ريب أن عامل القيادة المخلصة كان أحد أسباب نجاح تلك المقاومة العظيمة . ولا ريب أيضاً أن تساهل القيادة وتراخيها وانشغالها يؤدي إلى إجهاض وتفكك ثورة الجماعات أو عدم الحصول على المزيد من حقوقها الأصلية .

لقد أساءت السياسة والأطماع إلى الدين عندما استخدمته درعاً أو قناعاً لحركاتها وأطماعها . فادعاء الحق الآلهي للملوك كان وسيلة لخداع الناس بأحقية وحرية تصرف حكام تلك الحقب السياسية المظلمة . والحروب الصليبية كانت اكتساحاً غربياً أبيض للشرق وخيراته وممراته المائية لأن مسيحيي الشرق الأوسط لاقوا نفس الاضطهاد والذل على أيدي اخوانهم المسيحيين الغربيين . أما الاستعمار الحديث ، فهو أدهى وأمكر من القديم ، لأنه لم يكتف بإحداث الفرقة والنزاع الداخلي ، بل جنّد أجهزة دعائية ضخمة لتشوية وتحوير الرأي العام العالمي لصالحه . والحرب النفسية هي إحدى أسلحته ...

الحرب النفسية

برزت الحرب النفسية في الحروب وكحرب (باردة) قبلها وبعدها . وهي إحدى عوامل فشل أو نجاح المعارك . وقد عرف الصينيون مبادىء الحرب النفسية قبل الميلاد

الحقد والكراهية ، أي سكيناً قاطعاً تفصل الثنائية الممتزجة في الانسان الواحد إلى شطرين واضحين : حب واحد أو كره واحد . وهكذا تتضاءل الدعوة إلى السلم والتآخي والحلول السلمية العادلة عندما تطغى العنصرية والامبريالية أو الفاشستية أو الصهيونية .

والحرب ترجع بالانسان المتحضر الى أدوار الحياة البدائية المكشوفة ، الى العنف .. والقسوة والوحشية ، وتفتح الباب على مصراعيه للغرائز الدنيئة والشاذة للمدنيين والعسكريين على السواء ، بل ان بعض العسكريين العائدين الى بلادهم عبّروا عن دهشتهم للقسوة والبدائية التي وجدوها بين إفراد وطنهم المدنيين !. وتلك هي صفات الحروب الاعتدائية التي نجدها تشن على الشعب العربي في فلسطين وعلى شعب فيتنام من قبل الأمريكان .

ولما كان المذياع لم يتكامل بعد في الحرب العالمية الأولى ، فقد لجأت الدعاية الحربية الى النشرات الاخبارية والاعلانات التي تحملها المناطيد والطائرات وتلقيها على العدو وعلى الدول المحايدة التي لا بد أن تكون حلقة اتصال ونقل من جهة لأخرى . وقد استعمل الحلفاء في الحرب العالمية الأولى أكثر من ألفي منطاد للدعاية ، حملت آلاف النشرات والاعلانات في كل أسبوع تقريباً بالاضافة الى ٥,٣٦٠,٠٠٠ منشور ألقي على المانيا خلال سنة ١٩١٨ فقط .

أما في الحرب العالمية الثانية ، فبالاضافة الى مفعول الاذاعات ، فإن عملاء كل دولة محاربة يحاولون نشر الأراجيف والأخبار المدسوسة والكتابة على الجدران ولصق المناشير وبثها بين صفوف العدو لتثبيط معنوياته وإدخال الفزع إليه . ويعزو بعض علماء الاجتماع النفسيين ان سبب دخول أمريكا الحرب الى جانب انكلترة كان بتأثير الدعاية البريطانية الناجحة وبمؤامرة صهيونية محبوكة ، ولو أن بعض المؤرخين مثل ناي وموربورجو Nyo and Morpurgo يعارضان الفكرة ويضيفان عليها عوامل أخرى . غير أن الاتجاه العدائي والحذر تجاه الانكليز بسبب الحرب الامريكية الاستقلالية قد تغلبت عليها وسائل الدعاية والاقناع الانكليزية الصهيونية . وكانت أعمال الالمان القاسية بالرغم من مبرراتها الحربية سبباً في اضطرام الحقد والكره تجاه المانيا النازية . ومن تلك الأعمال : حرب الغواصات ، واغراق الباخرة لوزيتانيا الأمريكية وفقدان ١٢ ألف امرأة ورجل ـ وان كانت تحمل عتاداً حربياً للحلفاء ! ـ ، والإعتداء على بلجيكا المحايدة ، وإعدام الآنسة (كافيل) ـ وان كانت بالحقيقة عميلة !. ـ الخ .

ومن ناحية أخرى فان الدعاية الالمانية كانت أضعف من دعاية الحلفاء لأنها لم تكن مستندة على أسس نفسية علمية . فالذين أداروها عسكريون من طراز عتيق لم يؤمنوا مقدماً بمفعولها وخطورتها . وكانت دعاية غير إيجابية أو تأكيدية ، بل دعاية سلبية تقتصر على نفي وتكذيب دعاية الحلفاء ـ وهو خطأ فاحش ، إذ أن نفي دعاية العدو يقتضي سرد

(اللورد هو هو) Lord Haw Haw . وكان الاعياء والسهر والقصف المتواصل قد أوصل قسماً من سكان لندن إلى حالة الانهيار أو تقبل الايحاء والاشاعات . فأحدثت إذاعات وأخبار (هو هو) أثرها في نشر الإشاعات المغرضة على البسطاء من الشعب البريطاني ، ولكن إلى درجة لا تقارن بما أحدثته دعاية بريطانيا في الدول الصغيرة المغلوبة على أمرها في أوروبا .

وقد انضمت إلى المحطة البريطانية للإذاعة B. B. C. محطة بث أمريكية أخرى موجهة إلى أوروبا ومركزها لندن ، وذلك في سنة ١٩٤٢ ، وكانت تعمل سابقاً في سان فرنسيسكو ونيويورك . وقد دعيت بإذاعة (صوت أميركا) . The voice of America ومنذ سنة ١٩٤٢ حدث تغيير في تكتيك الدعاية الغربية في الحرب . فقد كان إسقاط المناشير والأخبار على المدنيين القاطنين قرب الحدود ذا أثر تافه على معنوية العدو . ولما كانت المناشير مطبوعة ، فإنها تغدو قديمة عندما تسقط بأيدي المدنيين ، هذا بالإضافة الى فقدان الكثير منها قبل أن تصل البقية إلى قرائها من الجبهة المعادية . لذلك تحول القاء المناشير الى الجنود المحاربين أنفسهم على جبهات القتال وتخلى الحلفاء عن مبدأ الصدق في الدعاية أو الثبات في الأنباء ، وحلّ محلها برنامج من الأنباء والدعايات التي تدور حول مواضيع غير ثابتة أو واضحة المعالم والتي هي موضع تردد وشك من قبل العدو . فالحقيقة أو الظاهرة غير المستقرة في عقل الانسان تكون أشد مدعاة للريبة والقلق والاضطراب بعد ورود أنباء أخرى تزيد من غموضها .

ولجأ كل من الجانبين المتحاربين إلى ما أطلق عليه بالدعاية « السوداء » Black propaganda ، وهي الدعاية التي يسمعها الناس ولا يعرفون مصدرها الحقيقي فتبدو لهم وهي متلبسة بثوب الحقيقة وتنفذ إلى أعماق النفس البشرية . وكان في المانيا في أوائل الحرب الثانية ثلاث محطات إذاعة بهذا الخصوص تبدو للسامع وكأنها تذاع من داخل بريطانيا وتتكلم ضدها ، منها (إذاعة كاليدونيا) التي تتكلم ظاهرياً باسم القومية الاسكتلندية . وتبع الحلفاء المانيا في ممارسة الدعاية السوداء ، وكانت محطة إذاعة كاليه العسكرية Soldatsender - calais تدار من قبلهم باسم الجنود الألمان في الجبهة الغربية . كما صدرت إذاعات أخرى تبث أوامر رسمية كاذبة إلى زوارق (يو) U - Boats وإلى جبهات القتال لتربك عمليات النازي الحربية لأن المحارب الالماني مطيع وينفذ الأوامر والتعليمات بحذافيرها عندما يعتقد أنها رسمية ، يؤديها دون تردد أو تأنيب ضمير . ووجدت إذاعات سرية أخرى تذيع باسم الوطنيين الألمان الذين يمثلون العسكريين القدماء و « الوطنيين الحقيقيين » ، فيذيعون بأنهم يؤيدون القضية التي يحارب من أجلها النازي ، لكنهم يعتقدون ـ وهنا تكمن الحيلة النفسية ـ بأن النازي جماعة من الفاشست لا يمثلون المانيا الحقيقية ، وانهم كيت .. وكيت ... ويصفونهم بشتى النعوت القذرة المخزية ، وبهذا الأسلوب سارت الدعاية في خط واحد مع اتجاهات الشعب الالماني إلا أنها أثناء ذلك

عمرانية !.. ، بينما كانت تلك الجلسة الحقيقية تدور حول تقرير الهجوم الغادر على البلاد العربية .

ولحقت تلك الحرب العدوانية عشرات المقالات والكتب الدعائية التي تكمل رتوش المعركة وتقدمها للرأي العام العالمي كصورة مزيفة وفق خطة الصهيونية الاعلامية ، نذكر منهـا مثلاً كتـاب (حرب الأيـام الستة) للعميـل الصهيوني الانكليـزي (راندولف تشرشل) .

و (عين تل ابيب) تأليف (ستيف اتيان) و (تحطمت الطائرات عند الفجر) تأليف (باروخ نادل) ـ وربما باسماء مستعارة ـ تهدف كلها الى سحق آخر ما تبقى من معنويات وآمال لدى الجماهير العربية بعد الهزيمة (المؤقتة) وابراز مدى قوة الجيش الاسرائيلي وقابلية الكيان الصهيوني على التغلغل في اجهزة الدول العربية والسيطرة عليهـا ومعرفة تحركاتها . وكانت ترمي من ذلك الى ادخال الفكرة المستحيلة بان هذه هي المعركة الأخيرة وان كل شيء قد انتهى ، وهذه هي احكام الاقدار ـ أي التسليم المطلق .

ومن الأمثلة الأخرى على الحرب النفسية المتبادلة بين المعسكرات الدولية ما حدث بعد التجاء (سفتلانا) ابنة (ستالين) الى الولايات المتحدة ونشرها مذكراتها . فقد أحيط طبع تلك المذكرات ونشرها بدعاية ضخمة غايتها الاساءة الى الاتحاد السوفييتي وأنظمته . ويعترف المتتبعون والمثقفون المحايدون بأن تلك المذكرات لا تستأهل الدعاية الهائلة التي سبقتها ، وانه ليس فيها ما يثير أو يؤثر في اتجاه الرأي العام ، كما أن بيع الكتاب كان بارداً وفاشلاً .

وبعد هذا كله ، فإذا أردنا تقييم ووزن تأثير الدعاية والحرب النفسية بصورة عامة ، لأمكننا القول بأن العمليات الحربية والانتصارات الاستراتيجية لها الأثر الأول والحاسم طبعاً في تقرير النصر النهائي ، وان الدعاية على شتى أشكالها تستمد نفوذها من تلك الانتصارات ، كما أنها تخفف من وقع الهزيمة الوقتية . وقد لا تؤثر الحرب النفسية في العدو ذاته قدر تأثيرها في الشعوب المغلوبة أو التي تحت الاحتلال . فالدعاية لا تؤثر إلا فيمن له استعداد وتهيؤ للاستماع إليها وامتصاصها وتنفيذ ما جاء فيها بشكل ما وخاصة إذا كان الجانب الخاسر خفيض المعنويات .

وقد تبين بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ان صلابة الجندي وصموده وارتفاع معنوياته لا ترتبط بنضجه العقلي ولا بالأفكار السياسية والمناقشة المنطقية .. ، بل بدرجة امتزاجه وارتباطه وشعوره بالتبعية إلى جماعته الأولية ـ الاساسية ، أي الاسرة والوطن . وهو يستمد مبادئه ومعنويـاته وشعـوره بالشـرف العسكري من التمـاسك الاجتماعي والجذور الوطنية والقومية التي يعيشها . ومتى ما انتـابه الشـك ، وبدأ بالاعتزال والتفكك ، أصبح عرضة للتفكير والتساؤل .. فالتردد .. فالهزيمة . وبذلك نجحت الدعاية الحربية في ساحة المعركة ، أي باتجاهها إلى الجماعة والأسرة . فالحرب النفسية

أ - تبدأ الإشاعة بشكل خبر « قصصي » فيه شيء من التفصيل ..
ب - يكون الخبر أو القصة ذا أهمية خاصة لدى جماعة من الناس ..
جـ - تنشر الاشاعة في ظرف من الغموض والالتباس على الرأي العام ..
د - ويستحسن أن يكون الناس في حالة من التوجس والخوف من حدوث شيء ما ..
هـ - يحبذ أن تكون الاشاعة في صالح جماعة أو مذهب أو طائفة أو عنصرية ما .. ، أو ضد جماعة أو عصبة أخرى ..
و - يجب أن تعبر الإشاعة عن القلق الحبيس وأن تكون منفذاً للتفريغ والتطهير عن الحالة النفسية الداخلية .

ونجد مما تقدم ان بالامكان تصنيف الاشاعات حسبما تثيره من انفعالات واستجابات لدى سامعيها ومتقبليها و (هاضميها) : فقد تكون اشاعات خوف (اي تبعث التشاؤم والرعب) ، أو اشاعات أمل (أي تبعث الرجاء والأماني) ، أو اشاعات كراهية (أي تثير الحقد والعزلة وعدم التعاون) .

وتمر الاشاعة في أدوار من النمو والتكامل لتصبح سلاحاً قوياً . ولعل الخطوات التالية هي السائدة في استفحال أية إشاعة :

١ - تشذب وتشطب التفاصيل ، فتبقى الرواية مركزة وكثيفة وقصيرة ، وتحتوي ما يقل عن ٣٠٪ من أصلها . وهذه هي عملية « التسوية » أو التعديل Leveling .

٢ - تبقي على الحوادث والمزايا البارزة الخطيرة ذات الضجة والرنة ، والحاملة لعناوين كبيرة الوقع أو الدالة على أمكنة وازمنة معينة معروفة ، وبذلك تكون الرواية قد امتلكت صفات قاطعة حادة ونفاذة ، وهذه هي عملية « الشحذ » Sharpening .

٣ - تكون الرواية قد أصبحت كثيفة ومختصرة ونفاذة وملائمة لاحتلال جزء من تفكير الفرد العادي أو لتحوير اتجاهه وميوله ، أو لإشباع تعصبه أو حقده أو منافعه الشخصية . اي أن الاشاعة تصبح في هذا الدور مهضومة ومنسجمة في قالب الفكر الفردي ، وهذه هي عملية « التمثيل » أو الهضم Assimilation .

وفي القديم ، كانت الاشاعات تتخذ صوراً أخرى ، وتتلبس بلبوس اخر يبعد الشبهة عن مصدرها الحقيقي . ومن الاشاعات ما تنكرت بالتعاليم الدينية . وكانت سنوات الفتنة الكبرى في أوائل الإسلام مثالاً على ذلك . فالأحاديث النبوية المبتكرة كانت أشبه بالاشاعات التي تخدم غايات سياسية وتوقع الناس في حيرة وتضبب الرؤية أمامهم .

وتعرّض الاشاعات في كل زمان ومكان الرأي العام إلى الانقسام ، وإلى تزييف حقائق كثيرة . وهي مظهر لمحاولات السيطرة على الكيان الاجتماعي والسياسي للدول النامية من قبل الطامعين . وهي مظهر للتناقضات والتفاوت بين طبقات الشعب وسوء توزيع الثروة . يقول (دزرائيلي) : « ان سوء توزيع الثروة يؤدي إلى انقسام الأمة الواحدة إلى أمتين .. فالفئة الأقوى اقتصادياً تمارس الضغط على الفئة الأضعف .. » .

ومن أجل التغطية والتواطؤ مع أمريكا كثيراً ما نجد اسرائيل تستنكر وتحتج و(تغضب) وتثور على رفيقتها أمريكا بلسان مسؤوليها أو صحفها بسبب كذا وكذا من الأحداث والتطورات .. بينما هي تعرف مسبقاً ان ذلك لذرّ الرماد في العيون . والمثال التالي يوضح ذلك : أثناء دفع مفاوضات (الحكم الذاتي) التي جاءت في اعقاب اتفاقية (كامب ديفيد) ، تحركت القنصلية الأمريكية في القدس وارسلت عملاءها الى مختلف مناطق الضفة الغربية لاقناع العرب القياديين هناك بقبول مشروع الحكم الذاتي . ومع ان هذا العمل يخدم اهداف اسرائيل ، لكن وزير داخلية اسرائيل (بورج) انتقد تحركات القنصلية الأمريكية واعتبرها مساساً بالسيادة الاسرائيلية ، وكان ذلك جزءاً من الخداع السياسي دون ريب . وكثيراً ما تصدر تصريحات جافة وشديدة من قبل زعماء الصهاينة قبل أو بعد زيارتهم لامريكا ، وكلها تمثيليات من هذا القبيل ـ أي « النجاح بمنطق الفشل » ، لأن الحقيقة لا تلبث ان تظهر . ومن ذلك ما جاء من نفور وبرود لأن (كارتر) لم يقابل (بيغن) مرة بحرارة ، أو لأن هناك خلافاً شديداً في الرأي بين أمريكا واسرائيل مما لا ينطلي على الفطن المتتبع .

الدعاية السياسية :

وفي السياسة ، تلعب الدعاية دورها الكبير .،، وتجند أجهزة الاعلام والتوصيل . ولا تنساق الجماهير وراء مذهب أو حركة إلا إذا كان لها الاستعداد للحركة وتقبل التغيير . فكأن الحركة والتصرف الجماهيري تسبقه يقظة وإحساس بوجوب الحركة في اتجاه ما ، وذلك لشعورها بحاجات ومطاليب . ويأتي التغيير والثورات لتنضم اليها الجماهير إرضاء لتلك الغاية وتطلعاً إلى تلك الاحتياجات .

وقد يكون التهيؤ للحركة والتبديل من قبل الناس فرصة لاستغلال جماعة من الفطنين الماكرين لتسوق ذلك التهيؤ نحو غاياتها الدفينة ، فتضللها وتستر عنها مقاصدها الأخرى . فاليهود في المانيا النازية أو روسيا القيصرية كانوا يشعرون بالخذلان والحقارة الاجتماعية . ولم يعالجوا داءهم العريق بالوسائل الجذرية ـ أي بالانتماء والاخلاص والامتزاج والتخلي عن المكر والطمع والعزلة والدسيسة .،، فجاءتهم الدعوة الصهيونية لتوقعهم في حبائلها . فالصهيونية إذن حركة سياسية تستند على ثلاث دعائم كبيرة لتقود بها الشعب اليهودي رضي أم أبي :

أولاً ـ القيادة : وهي على الأغلب قيادة من غير السياسيين المحترفين المعروفين .

ثانياً ـ جهاز دعائي هائل ..

ثالثاً ـ **جماهير غير قانعة في أوطانها** ، ذات شخصية ثنائية ، تمارس ولاء مزدوجاً للوطن الأم وللدعوة الصهيونية ..

ولعل أبسط مثال على ذلك الازدواج في الشخصية والقلق ، ما قامت به والدة الزعيم الصهيوني (وايزمان). فقد ذكرها ابنها في مذكراته وسيرته (المحاولة والخطأ) ، وذكر

ويعلق (رادا كريشنان) على نظام الحكم الأوتوقراطي ذي الكيان الديني ـ وهو ما ينطبق على اليهودية الصهيونية قديماً وحديثاً ـ : « إنه ليس الإله الذي يعبدون ، بل هو الجماعة أو السلطة التي تتكلم أو التي تدعي انها تتكلم باسمه . ويغدو الاثم بمثابة عدم الطاعة أو مخالفة السلطة وليس تهديداً للكيان الديني » .

وتنجح بعض القيادات في محاولات ربط الجماعات حولها أو تحويل انتباهها عن احتياجاتها الحقيقية ـ لفترة ما . وقد نجح هتلر مثلاً في تحويل السخط المتزايد في الشعب الالماني على الأوضاع الاقتصادية السيئة ، إلى سخط على الديمقراطية والاشتراكية وعلى اليهود كذلك . وقد لجأ (نابليون) إلى الدعاية السياسية كما ذكرنا ، وهو الذي شرع في عقد مؤتمر أو « مجلس للرأي العام » يماثل المؤتمرات الصحفية الحديثة كي يستطيع خلق وتوجيه الميول السياسية كما يريد . وأسهم (ميكافيللي) في وضع الأسس الأولية لنجاح الدعاية الدبلوماسية .

وقد اتبع رؤساء امريكا سياسة « التمديد والتصميم » النفسية ـ أي اهتبال وانتهاز الفرص لسحب القضايا الداخلية من دول أخرى ـ وخاصة روسيا ـ لاستخدامها في ساحة الاعلام الخارجي والدولي لغرض الربح السياسي والطعن بالدولة الثانية . وهكذا استغلت أمريكا محاكمة روسيا لـ (ساخارسكي) داعية الصهيونية ومعادي الاشتراكية والذي طلب علانية مساعدة أمريكا له ... فاستغلت أمريكا ذلك في شن حملة على النظام الاشتراكي وتلويث سمعته . واستقبل الرئيس كارتر أحد المرتدين الروس الهارب (بوغونسكي) في البيت الأبيض مما اثار انتباه الرأي العام الأمريكي والعالمي الى المسألة . وكانت الخطوة التالية التي خطط لها كارتر إرساله خطاباً شخصياً إلى العالم الذري الروسي (زخاروف) يؤيد فيها دعوته وآراءه في السلطة السوفييتية ، مما يعتبر تدخلاً في الشؤون الداخلية لدولة أخرى .

ومن المناورات السياسية الأخرى ذات الأثر النفسي وجزء من الحرب النفسية الإعلان عن القيام بمناورات عسكرية في منطقة معينة ذات موقع حساس على الأحداث العالمية . وهو نوع من استعراض العضلات والانذار باستعمال القوة وبالتدخل في شؤون دول العالم الثالث والتي تنطلي على السذج أحياناً لأنها تحمل نسبة معينة من احتمال التنفيذ الفعلي . وقد أحصى منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى أواخر ١٩٧٩ ان الولايات المتحدة قامت بما يزيد على ٢٥٦ مناورة عسكرية يقابلها نصف هذا الرقم من قبل الاتحاد السوفييتي . وفي أوائل ١٩٨٠ أعلن مسؤول في كل من أمريكا والكيان الصهيوني عن اعتزامهما القيام بمناورات عسكرية مشتركة في البحر الأبيض المتوسط في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٨٠ ..

أما اتفاقية (كامب ديفيد) الاستسلامية فقد مهد لها (كيسنجر) واجهزة الاعلام الامبريالي ـ الصهيوني بمناورات نفسية وزيارات (مكوكية) وتصريحات متدرجة .. إلى

النواحي - بأنك ستزيل آثار « السوء والتلطيخ » ، وتشير إلى ميول منافسك « اليسارية » لأنه يستعمل « الورق الوردي اللون » ...، ثم عليك أن تختلق مطاليب للناس وتكسب قلوبهم بمظهر الاخلاص والبراءة) . كان ذلك في انتخابات ١٩٦٠ ، وقد ربح نيكسون منطقته بتلك الوسيلة . ووصف أحد الناخبين المتأثرين بخطابه : « إن نيكسون سياسي أمريكي من طراز جديد .. ! » .

وفي إحدى الحملات الدعائية للرئيس (ايزنهاور) ، ظهر على شاشة التلفزيون المنظر الآتي : سائق تاكسي يتمشى مع كلبه في الحديقة المواجهة للبيت الأبيض الذي يقطنه ايزنهاور . وينظر السائق الى الأضوية في البيت الأبيض بجد وإجلال ويقول مبتهلاً : « انني بحاجة إليك ! » . وقد وفق ايزنهاور في انتخابات الرئاسة لعام ١٩٥٢ عندما درس « الرأي العام » ورفع شعار « إنهاء الحرب الكورية » ، لأنه استغل بمهارة شعور الشعب الأمريكي ضد الحروب والخوف من وقوع حرب عالمية ثالثة ومن القنابل الذرية .

وقد اشتدت المنافسة السياسية والدعاية الانتخابية بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٦٠ إلى حد ان أصبح لكل حزب مؤسسة خاصة للدعاية الانتخابية فقط !. فللجمهوريين وكالة دعائية اسمها (ريد وبراتون) ، وللديمقراطيين وكالة دعاية تدعى اختزالاً (ب. س. وجي.) . ويتجلى مدى نفوذ « رجل العلاقات العامة » على المرشحين بالحادثة التالية : عندما فكر المرشح الجمهوري (هنري آدامز) بتواضع أن يتكلم في السياسة الخارجية وحول موضوع « أزمة عصر الذرة » خاطبه مدير دعايته (ريد) وألقى عليه المحاضرة التالية : « .. أصغ إليّ ، إذا أردت أن تؤثر في ذوي الشعور الطويلة والأذكياء وطلاب جامعة كولومبيا ، فافعل ما شئت في أوقاتك الخاصة ، وليس في حصص التلفزيون المخصصة لك عندي . ولا تنس السوق يا عزيزي !.. و« سوقك » يتألف من ٤٠ ـ ٥٠ مليون أمريكي ساذج مسكين « يقابل تلفازه أو مذياعه لا ليصغي الى محاضرة في عصر الذرة ، بل الى محاضرة عما يقلقه في تكاليف المعيشة ومشتريات نهاية الأسبوع ..! » .

وقد تطرقنا الى اسلوب الحكومات الثيوقراطية ، أما سياسة الحكومات الديمقراطية فقد تثير العجب أيضاً في مجال السياسة والدعاية . وفي كتاب (من الذي يحكم امريكا) عرض جميل لبعض الحقائق التي تبرز خفايا الديمقراطية الزائفة في الولايات المتحدة وما يحيطها من دعاية مخططة[١٢١] ، نذكر منها :

١ ـ ان السياسة العامة للدولة هي بيد الشركات والمحتكرين و (الصفوة) من

---

(١٢١) توماس داي (من الذي يحكم امريكا) تلخيص سلامة احمد سلامة ، العربي الكويتية ، ص ١٣٧ ، آذار ١٩٧٧ .

(Who's Running America) .

خليطاً من أمريكان وانكليز واستراليين ونيوزلنديين وأتراك . وقد بلغ عدد الأسرى ٧١٩٠ وقرر البقاء منهم في صفوف الكوريين ٢١ فقط . وتوفي من الأسرى من جراء مرض طبيعي ٢٧٣٠ (أي بنسبة ٣٨٪)، ولم يثبت حدوث مجاعة أو إهمال صحي من قبل الكوريين ، بل عزي الموت إلى جهل وإهمال الأسرى أنفسهم[١٢٣].

وكان الأسرى معتقلين في معسكرات متفرقة . ولم يضربوا ، ولم يهددوا ، بل عوملوا باللطف ، وتعرضوا الى الاستجواب الروتيني ، وإلى سلسلة من « التثقيف » أو بالأحرى عرض وشرح لوجهات النظر الكورية الديمقراطية . قيل للأسرى : لماذا تحاربون ؟ ومن تحاربون ؟ وقيل لهم « من نحن ؟ » .. ولماذا نحارب ؟. ثم استمرت محاولاتهم الإقناعية وخرجوا بنتائج بهرت العالم وأدهشت كبار سياسيي وعسكريي الولايات المتحدة . ان من الغريب جداً أن يخرج أسير أمريكي من الاعتقال ويعبر عن شكره وامتنانه لمعاملة الكوريين له !. وتجنباً لكل التباس في هذا الموضوع الدقيق ، وحرصاً على النزاهة العلمية ، أدرج أدناه ما كتبه المؤلف والعالم النفساني براون حول ما حدث في كوريا :

(.. إن التحوير الفكري السياسي لا يعني مجرد محو ذاكرة وعقل الانسان وحشر مبدأ جديد فيه ..، بل ان المسألة تتلخص في ادارة اتجاه الانسان والاقتراب من مداخل شخصيته واستعداده لكي يتلاءم مع المذهب الجديد . فالنازي ينقلب الى شيوعي .. والشيوعي إلى نازي .. وذي التفكير الاستعماري إلى اشتراكي . وانقلاب الشيوعي إلى نازي يدل على أن في باطنه استعداداً لحب الظهور والسيطرة أو الانتماء إلى جماعة كبيرة أو للتعويض عن نواقص أخرى نابعة من نفسيته .

وإذا كان قد رجع اربعون أسيراً بريطانياً من كوريا وهم يصرحون بأن الاشتراكية أو الشيوعية هي أنجح وسيلة للحياة ، فإن ذلك يجب أن لا يردع الناس ويصور لهم غسل الدماغ السياسي بأكثر من حقيقته . ألا يمكن أن نفتش في هؤلاء المتمذهبين الجدد ونعثر على نقاط الضعف والانفعالات الشخصية التي حببت لهم تعاليم آسريهم ؟.. وإذا افترضنا أن الأسرى الأربعين قد استمعوا إلى محاضرة في بريطانيا نفسها عن مزايا الاشتراكية ، ألا يجوز ان غالبيتهم سيؤمنون بها ؟!.

وينتقل براون إلى الجنود الأمريكان الذين انقلبوا إلى مؤازرين للكوريين الديمقراطيين وكانوا اكثر بكثير من الجنود البريطانيين ، فيقول : (.. إن العدد الضخم من الأمريكان المحاربين الذين تمذهبوا بالاشتراكية وانهاروا عصبياً أمام التحويل السياسي الكوري ، لا يدل على أن وسائل الكوريين معهم كانت أشد أو أحذق ، بل الأحرى إن معنوية الجنود الأمريكان وإيمانهم بمبادئهم كانت واطئة ..) .

ويوضح (يوجين كنكيد) في كتابه عن الحرب الكورية ويؤيد ما صرح به براون ،

---

(١٢٣) المصدر السابق ، براون ، ص ٢٤٤ ـ ٢٦٦ .

الإلحاح . إلا أن المسألة لا تنتهي .

٤ ـ يحاول السجانون معرفة كل صغيرة وكبيرة عن حياة الأسير . والمحققون الكوريون هم على الأغلب من ذوي الخبرة والثقافة الأمريكية ، ولعلهم من الذين درسوا فعلاً في الولايات المتحدة واتقنوا العادات الأمريكية . ولأجل ذلك ، تقدم لكل أسير استمارة مطبوعة ومعنونة إلى (هيئة الصليب الأحمر الدولي) لكي يثق الأسير بأن ما سيمليه في الاستمارة معلومات تهمّ الصليب الأحمر لإنجاز مهماتها . ويجيب الأسير على الاستمارة تحريرياً على كل سؤال مدرج فيه . وتخلو الأسئلة تلك عادة من أية صبغة عسكرية ، وأغلبها معلومات اجتماعية عن الآباء والأمهات والأقارب والأطفال ، وعن الدخل اليومي والتحصيل العلمي ، وعن السكنى .. الخ . وهي معلومات عامة تضع الأسير تحت أضواء كاشفة لشخصيته وحياته وتفكيره .

٥ ـ يوضع الأسرى في معتقلات على الحدود المنشورية ، وتدار من قبل هيئة عسكرية وسياسية يشرف عليها جميعاً « آمر معتقل » ، قلما يراه أحد. وللمحقق الذي يتكلم الانكليزية بطلاقة صلاحيات واسعة يمارسها أثناء التحقيق لتنفيذ الإقناع والمذهبة والحصول على الاعترافات . ومن هذه الصلاحيات : فرض العقوبات .. وتخفيضها ..، وإبدال الأعمال الشاقة بالخفيفة أو العكس .. ويقسم الأسرى إلى مجموعات يتراوح أعضاؤها من ٣٥ ـ ٦٠ عضواً . وتنقسم كل مجموعة إلى ٣ ـ ٤ فصائل ، كل فصيل يتألف من زمر تشتمل على ٦ ـ ١٥ أسيراً .

٦ ـ يستغرق عمل الأسير ١٢ ساعة ، من الساعة ٧ صباحاً إلى ٧ مساء . وتدور المحاضرات والتعليمات والمناقشات من الساعة ٩ صباحاً حتى الظهر ، ومن الثانية بعد الظهر إلى الرابعة مساء . ومن يبدي منهم استعداداً للمطالعة يسمح له بالبقاء في مكتبة المعتقل إلى الساعة التاسعة مساء . وتكون المكتبة مليئة بالكتب الانكليزية المنتقاة والتي تكون هادفة وتدور مواضيعها حول العدالة الانسانية والنظم الاشتراكية والقصص والروايات المفيدة ومؤلفات الماركسيين المشاهير ومؤلفات فكتور هوجو وجاك لندن وشتاينبك واروسكين كالدويل وابتون سنكلير ..، وغيرهم من المفكرين الذين انتقدوا أو غمزوا بالنظام الرأسمالي .

٧ ـ ويتضمن منهج المحاضرات التنويرية دروساً متعددة ومتكررة ومنها مثلاً :

آ ـ تأجيج الكره والحقد ضد الولايات المتحدة وحكومة كوريا الجنوبية ، وذلك بفضح وشرح مؤامراتهما وخداعهما ، وبكشف مواقف أمريكا وميولها لإشعال حرب عالمية مستقبلة .

ب ـ توضيح الدور السلمي البناء للدول الديمقراطية ـ الاشتراكية والمحايدة ، ثم مقارنتها بأساليب الحكم القديمة في الصين وروسيا . وقد أيد المسؤولون الأمريكان فعالية ذلك النوع من التثقيف في الجنود الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً يذكر عن بلادهم ولا عن

وامتازوا بنقص الخلق ، وانعدام المثل العليا ، فانهاروا بمجرد الضغط البسيط ، بل اعترف قسم منهم خلال ٣٥ دقيقة من الاستجواب المتوسط الوطأة .

المجموعة الثانية : من الانتهازيين الذين انحازوا إلى معتقليهم لمجرد مكاسب شخصية فردية حقيرة ، كالسماح لهم بالتجوال خارج المعسكر ، أو للحصول على سكائر أو بيض إضافي في الطعام . وكانوا هم الذين يقومون بدور التجسس على زملائهم أو توقيع العرائض والطلبات المضادة ، أو إذاعة كل ما يطلب منهم .

المجموعة الثالثة: وهي الأغلبية ، وتؤلف حوالي ٦٥٪ من الأسرى . واختار هؤلاء الطريق السلمي الظاهري ـ أي مجاراة العدو ظاهرياً ، والتمسك بآرائهم باطنياً . وكانوا يذيعون تعاليم وأفكار غير ضارة ، أو يوقعون العرائض دون القيام بأدوار خيانية .

المجموعة الرابعة : وهم الأقلية من الذين اعتنقوا المبادىء الاشتراكية أو أصبحوا شيوعيين حقيقيين . وأغلبهم من ذوي الاستعداد المسبق لاعتناق الاشتراكية ـ أي منذ وجودهم في أوطانهم .

أما الذين لم يتآزروا مع العدو ، بل كانوا ثائرين معارضين ، فقد كانوا حوالي ١٣٪، وكانوا من الجنود الأتراك بنسبة ١٠٠٪ ، مع بقية من أسرى انكليز وأمريكان . وقد وصف الكوريون أولئك الصامدين بالنعوت التالية : جهلة .. عنيدين .. وجنوداً مهنيين .

ويختتم (براون) عرضه لقضية الأسرى في كوريا بما يلي من الملاحظات المهمة :

« .. وبالاختصار ، فإن مجموعة الحقائق والمعلومات عن أسرى الحرب الكورية تشير إلى ما يلي :

١ ـ لم يتعرض أسير واحد في الحرب الكورية إلى عملية غسل دماغ بمعناها العلمي الصحيح ..

٢ ـ لكنهم تعرضوا بالحقيقة إلى « تمذهب » وتثقيف سياسي صارم ومتواصل وفق منهج منسق أثار دهشة العالم الغربي لأنه الأول من نوعه في تاريخ الحروب .

٣ ـ لا يمكن القاء اللوم والنقد على الكوريين قدر القائه على الأسرى أنفسهم الذين كانوا إما انتهازيين ، أو منحطي الأخلاق ، أو غير مؤمنين بمبادىء الديمقراطية على شكلها الحالي في أوطانهم . وكان فقدان الثقة واضحاً جداً بين الجنود الأمريكان ، وخفيفاً بين الجنود الانكليز ، أما الأتراك فكانوا في منتهى الصلابة والمقاومة إذ لم يتحول أسير واحد إلى مذهب آخر .

٤ ـ على الرغم من أن أسلوب الصينيين في مذهبة الأسرى مستقى من روسيا ، فإنه لم يتبع نظرية بافلوف في الانعكاسات كما بينا ، بل انهم اتبعوا طريقتهم الخاصة النفسانية ..

٥ ـ عندما عاد الأسرى وهم ممتنون من معاملة أعدائهم ، كانوا يعنون المعاملة الطيبة بحد ذاتها . وهي حقيقة ثابتة . أما ان « نية » الكوريين كانت التحوير والإقناع ،

الخبراء و « الفرق النفسية » على جميع وحداتها وبتسلسل وتنظيم وتنسيق مع القوات المقاتلة الأخرى . وكانت وسائل الحرب النفسية هي الإذاعات ، ومكبرات الصوت ، والمنشورات المتنوعة :

أما مكبرات الصوت فتذاع على الجبهة ليسمعها السكان والمقاتلون الفيتكونج ، وفيها دعوات للاستسلام وتخويف بالهجوم ، أو اذاعة مباشرة بصوت الأسرى الحقيقيين الذين وقعوا في الأسر قبل ساعات أو أيام .

وأما الاذاعات فكانت على نسق الموسيقى والخبر والاشاعة والتشكيك .

وأما المنشورات فكانت متعددة ومختلفة : من أوراق وصحف وكتب صغيرة تلقيها طائرات متنوعة . وقد لعبت مكبرات الصوت والمنشورات دوراً مهماً :

أ ـ فمنها ما كان بشكل (تصريحات مرور) والتي وزعت بالملايين . وكانت مطبوعة على الصفحتين وموقعة من قبل رئيس جمهورية فيتنام الجنوبية وفيها وعد بحسن الاستقبال والمعاملة الكريمة لحاملها الذي يسلم نفسه . وخصصت مراكز لاستقبال المرتدين المستسلمين لغرض الترحيب بهم وتوطينهم وايجاد عمل لهم ـ أي تأهيلهم ، مع أخذ المعلومات الكافية منهم بالطبع .

ب ـ ولأجل حفظ كرامة واطمئنان الهارب المرتد ، فقد اطلق عليه اسم (العائد) ، ودعي هذا الأسلوب بـ (شيواهوا) CHIEU HOI ـ أي العودة . وتعمدت السلطات الأمريكية وضعهم في أماكن بعيدة وغير حساسة .

جـ ـ ومنشورات أخرى فيها اعلان عن مكافآت نقدية لحاملها الذي يساعد الطيارين والعسكريين الأمريكان على الاختفاء والهرب . والمنشور موقع من قبل سفير امريكا هناك ، ويضم تعليمات عن المقاتل الأمريكي وكيفية استقباله ورعايته وعدم الخوف منه .

د ـ ومنشورات اخرى فيها تهديد ووعيد وتشكيك بحلفائهم الصينيين والروس .

وقد تم إلقاء ٧١٣ مليون منشور بالطائرات إضافة الى ملايين أخرى وزعت باليد .

ولكن ، ماذا كانت الحصيلة ؟.. انسحاب امريكا وخسارتها مادياً ومعنوياً وأدبياً تجاه الرأي العام العالمي ، لكنها استفادت منها كمختبر للبحوث النفسية الأمريكية ..!

ولتحوير الأفكار الهادف مظاهر شتى وميادين متعددة . غير انها تنبع جميعاً من شعور مخلص بضرورة التبديل ومن ضمير متحرر عادل لا يروم استغلالاً أو كسباً على حساب أحد . ولما كنا قد تناولنا آلية التعديل الفكري الديني سابقاً ..، فإنني سأتناول بقية المظاهر الأخرى للتحوير النافع وهي :

أولاً - العلاج النفساني :

والعلاج النفساني بحد ذاته هو تحوير لعقلية المريض وتعديل لنفسيته كي يرجع الى صحته العقلية . والتقويم النفساني ما هو إلا « غسل دماغ » علاجي مخلص منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا . وهو تحوير هادف يرمي الى نفع المريض وإسعاد ذويه وحلقته الاجتماعية ، أي بالتالي إلى تعزيز سلامة المجتمع .

وقد اتخذ العلاج النفساني عدة صور وأساليب تبعاً لدرجة فهم الأمراض النفسية ومسبباتها . ففي القديم ، كان الاعتقاد السائد ان « المعتوه » فريسة « للأرواح الشريرة » ، وهو اعتقاد لا يزال سارياً بين الجماعات البدائية والجاهلة في عصرنا هذا . وكان التجويع والقسوة والربط بالسلاسل والعزل في محل مظلم مرهب والقراءات والتعاويذ والأدوية المستحضرة من الأعشاب والنباتات التي تسبب الغثيان أو التعرق أو الإسهال ، هي الوسائل العلاجية المتبعة (أنظر وصف العلاجات القديمة في الفصل الثاني) . وجاء (ابيوقراط) أبو الطب من اليونان القديمة ليعلن ان المرض العقلي لا بد أن ينتج عن تغير فسلجي داخل الجسم ، كما تقدم بنظريته عن السوائل الجسمية الأربعة المكونة لشخصية وطباع الانسان (الأربعة) ، وكيف ان التوازن بينها أو تغلب واحدة على الأخرى يؤثر في تفكير وطباع واتجاهات الانسان . ونفى ابيوقراط كون الصرع « مرضاً مقدساً »[١٢٤]، وقال انه يتسبب عن أمراض جسمية كبقية الأمراض .

وشهدت العصور الوسطى المظلمة رواج السحر والدجل الطبي التي سحبت الطب من مجاله العلمي ، إلى أن انتفض بعض العلماء في عصر التنوير وفضحوا الوحشية والقسوة التي يعامل بها مرضى العقول باسم الدين . وكان منهم (فيفز) الاسباني و (أكريبا) الألماني ، و (باراسيلس) السويسري . وفي القرن السادس عشر ، هاجم الطبيب الهولندي (يوهان واير) السحرة وفضح أعمالهم ووصف بعض حالات المرضى الذين وقعوا فريسة بين براثنهم بينما تنطبق عليهم صفات الأمراض النفسية المعروفة الآن .

ثم جاءت مدارس علم النفس الحديثة على أيدي (كريبلين) وجانيت وشاركوت وفرويد ويونج وادلر . وبدأ التنويم المغناطيسي ، ثم التحليل النفسي بشتى درجاته

---

(١٢٤) كان الصرع يطلق عليه حينئذ اسم (المرض المقدس) Sacred Disease على اعتبار انه نتيجة حلول « إرادة إلهية » في المريض . (المؤلف) .

كما يؤمن الواعظ والمصلح الاجتماعي بدعوته وعقيدته . ولعل من المسلّم به أن « تحوير » أفكار الناس الاعتيادي أسهل من تحوير أفكار المرضى . لذلك تنجح وسائل الدعاية والتثقيف والحرب النفسية في المجتمعات والأفراد أكثر من نجاحها في الشذّاذ والمتعصبين وحاملي الأفكار الحادة .

ويمكن القول بصورة عامة ومبسطة ان الدماغ البشري يقتضي هزّه بطريقة ما قبل الشروع في إحداث التغيير المطلوب . ويتم هزّه باحداث اضطراب فسلجي فيه ، وذلك عن طريق التخويف أو الاغاضة أو التهديد أو التثبيط . ويتبع ذلك استعداد الدماغ لتقبل الإيحاءات . وفي حالة علاج الأمراض العقلية الشديدة ، لا تفي كل هذه الوسائل بالغرض ، ولا التحليل النفسي الآنف الذكر ، بل يحتاج المعالج الى طرق أعنف لتحدث الارتجاج المطلوب . وتاريخ معالجة الأمراض العقلية بالوسائل العنيفة « غير الانسانية » لإرجاع عقولهم إلى جادة الصواب حافل بالأمثلة على ذلك . التكبيل والتجويع والإهمال في غياهب الحجرات المظلمة .. الخ . أما الوسائل الحديثة « الشديدة » فتمتاز عن القديمة بأنها « علمية نظيفة » وتجري بتمريض حنون ومقبول ومنسق . ومن هذه الوسائل الحديثة نعدّد ما يلي :

١ ـ العلاج باحداث الاختلاجات والإغماء بتأثير عقاقير خاصة ، مثل (الكارديازول) الذي يحقن بالوريد لإحداث الرعشة المطلوبة التي تشابه اختلاجات الصرع المعروفة .

٢ ـ الصدمة الكهربائية ، وتشابه الأولى في المفعول ، لكن التيار الكهربائي يحل محل العقار . وتساعد كلتا الصدمتين على طرد عادات واتجاهات اكتسبها الدماغ المريض ، فتخف أوهامه ، وتتلاشى تخيلاته ، ولا يجد الدافع القوي للانتحار أو لقتل الغير .. الخ .

٣ ـ غيبوبة الأنسولين : وتتلخص بحقن المريض بكمية من هرمون (الانسولين) الذي يخفض كمية السكر في الدم إلى حد الغيبوبة العميقة . ثم قبل أن تجرّه غيبوبته الى عالم الموتى . وفي أثناء استيقاظه من نومه العميق ، يفترض أطباء الأمراض العقلية أن التحوير الدماغي يسير في طريق الشفاء . واستعملت هذه الطريقة في مرضى الفصام (الشيزوفرينيا) وان كانت آخذة طريقها إلى الزوال .

٤ ـ عملية قص جزء من الفص الدماغي الجبهوي ، ويجريها الجراح المتخصص في الجملة العصبية ويقطع أليافاً عصبية تربط الفص الجبهوي بالمراكز « الانفعالية » الأخرى من الدماغ خاصة التالموس Thalamus وتحت التالموس Hypothalamus وهي مراكز الانفعالات والأهواء ، وتزول بذلك حالة التوتر الدائمي والقلق وعدم الارتياح التي تجعل حياة المريض جحيماً . واستعملت مؤخراً عملية قص الألياف الرابطة للفصين

إلى « تجنيب » أو « تنفير » الفرد من سلوك معين . وهي إجراءات تشابه في جوهرها أساليب العصور القديمة في العلاج والتربية ـ وإلى يومنا هذا ـ عندما نحاول « ردع » المجرمين والقتلة والسراق بالعقاب القانوني .

والعلاج السلوكي الحديث ما هو إلا تطبيق « عقاب نفسي » وغرس التكريه والنبذ لعادة مريضة في أي انسان . ويتضمن التنفير هذا : تجويع المريض ، وضعه في محل معزول خافت الضياء ، إعطاءه أدوية تسبب الغثيان والقيء والدوار، إسماعه كلمات سيئة الوقع والمعنى فيما يتعلق بشذوذ، ثم إسماعه مرادفاتها من المعاني الجميلة المحبوبة عندما يقترب من حالة الشفاء، أو إيلامه بالتيار الكهربائي المتقطع أثناء الايحاءات المتكررة. ويتكرر الفصل العلاجي هذا بضع مرات في الأسبوع ولمدة أسابيع أو أشهر .. إلى أن تتبخر منه عاداته الاجرامية أو المنحرفة . وبهذه الطريقة Aversion Therapy عولج عالم متزوج كان يهاجم كل سيدة تدفع عربة طفل أمامها ، فيحطم العربة وقد يؤذي السيدة نفسها جنسياً . وتكررت مخالفاته ١٢ مرة . ودخل مستشفى للأمراض العقلية . ووضع تحت المراقبة دون جدوى . ومن التحليل النفسي تبين وقوع حادثتين في طفولته تسببتا في انحرافه : ففي العاشرة من عمره ، كان يجذف زورقاً في بحيرة عندما صدمت مقدمة الزورق عربة طفل تجرها إمرأة عند حافة البحيرة . وكان منظر الأنثى المذعورة قد انطبع في ذاكرته . والحادثة الثانية انه كان يستمني مرة ووقع نظره على حقيبة اليد التي تستعملها أخته .. وبذا اقترن الاستمتاع الجنسي بمرأى الحقيبة اليدوية لأية إمرأة . وأصبحت عربات الأطفال وحقائب اليد النسائية رمزاً جنسياً له حتى بعد زواجه وإنجابه الأطفال . وكما ذكرنا ، فإن العلاج النفسي السلوكي أنقذ المريض من شذوذه ومن تعرضه للسجن والعقاب أو من السكنى الدائمية في مستشفى عقلي .

وبهذا العلاج أيضاً شفي شاب كان مصاباً بمرض « الالباسية » Transvestism ، أي الميل الجنوني الشبقي نحو ارتداء ملابس الأناث الداخلية أو الخارجية وأحياناً التزين مثلهن . كذلك أشفى العلاج السلوكي كثيراً من اللواطيين ، ومن الذين يخافون ركوب الطائرات أو عبور الجسور ، ومن المدمنين على الخمر والمخدرات . فمن مجموع ٤,٠٠٠ مدمن عولجوا بطريقة التنفير ، بقي أكثر من نصفهم صاحياً لمدة ٢ ـ ٥ سنوات ، وأكثر من ربعهم لم يتناولوا الخمر لمدة ١٠ ـ ١٣ سنة .

٦ ـ العلاج النفسي الجماعي Group Psychotherapy . وهنا يستخدم علم النفس التأثير الجماعي على الفرد ومفعولية الانتماء والمشاركة . والنتيجة المقصودة هي أن ينجح المريض في تأسيس علاقات شخصية مع الجماعة . لأن مرضه ناتج عادة من الفشل في توطيد علاقة منسجمة ومتوازنة مع غيره في حياته العامة . وبتبسيط أكثر ، ان الذين يعالجون بهذه الطريقة إما عصابيون يضمرون في لاشعورهم انفعالات واتجاهات عدائية للمجتمع ، أو سايكوباثيون ومدمنون على المخدرات يحقدون على المجتمع والناس .

والطبية . والعماد الأول في العلاج النفسي هو « رضى المريض » بالعلاج وإقباله عليه بمحض إرادته . ويشرح كل معالج نفسي للمريض تفاصيل ما سيجري له قبل المباشرة بالعلاج . وعلى المريض أن يقرر الاستمرار أو الانسحاب . أما في حالة الأطفال ـ مثلاً ـ بسبب سلس البول الليلي ـ فإن ذوي الطفل هم المسؤولون عنه شرعاً .

وعلى الرغم من مبررات العلاج النفسي وضرورته ، فإننا لا نزال نسمع بمن يجاهر برأي غريب حول العلاج النفسي لا يتلاءم مع الواقع . فيذهب (زاز) Szazs[١٢٧] مثلاً إلى نفي وجود المرض النفسي كما نعهده ، وإلى وجوب إلغاء المستشفيات العقلية ، وترك المريض يقرر بنفسه . ويعتبر (زاز) أيضاً ان أي تدخل قسري من قبل ذوي المريض أو المجتمع مخل بأركان العلاج النفسي ، وبذلك يجعل من الطبيب النفساني « عميلاً » للمجتمع ضد مصلحة المريض ومتسلحاً بالقوانين السائدة !. وهكذا يعتبر زاز المجتمع والقوانين والأطباء جماعة لاأخـلاقيين وإن المريض فريستهم ، وهي النظرة المناقضة تماماً لوجهة نظر العالم (كلاسر) Glasser الاصلاحية المتزمتة التي تعتبر المريض مخطئاً وعداه محقين .

إن أُسس « التحوير العلاجي » والملاءمة والشفاء في علم النفس تتلخص بما يلي :

١ ـ تبديل أفكار المريض ومحيطه الاجتماعي ذي التأثير المباشر عليه .

٢ ـ تبديل أفكار المريض وتحوير استعـداده لمواجهـة المشاكـل ، أو التصلب والمقاومة .

٣ ـ الاستعانة بالمركبات الكيماوية (العقاقـير) لتحقيق الخطوة السـابقة ، أو لتخفيف حدة الأولى على الجسم .

٤ ـ اللجوء إلى الوسائل الأخرى في العلاجات ـ وهي التي ذكرناها تحت وسائل العلاج النفسي ـ .

وما دمنا نميل إلى الرأي الثاني ـ أي العلاج النفسي كضرورة اجتماعية وانسانية لها مبرراتها الأخلاقية .،. فماذا يقول المعارضون حول « إصلاح المجرمين » ؟؟.

وفي هذا الصدد اشير الى ما يثار ـ أو اثير ـ من لغط ونقد في الصحف ومعاهد ومؤسسات الطب النفساني في العالم الغربي حول الشك في قيام بعض الدول ـ ولا شك أنهم يقصدون روسيا ـ باستخدام المستشفيات العقلية والعلاجات داخلها كسلاح ضد المعارضين السياسيين لغسل أدمغتهم وايصالهم الى حالة اللامبالاة والرضوخ . والى أن تصح أو تتبخر هذه (الاشاعة) ـ التي قد تكون مناورة ذات ابعاد سياسية أيضاً ـ ، يمكن القول ان المبدأ مرفوض بالطبع لأنه ينافي حقوق الانسان ، والانسان أعلى قيمة في الحياة .

---

(١٢٧) Szaz, T. Brit. J. Psychiat. 112 : 1193

الإقلاع عن التدخين أو مزايا تحديد النسل . وقد تميز النصف الثاني من القرن العشرين بالتعاون الدولي العالمي الصحي . وتقوم منظمة الصحة العالمية بدراسة ومراقبة الأوبئة والعقاقير . وتقوم بالتحذير ضد كل مادة سامة أو ذات مفعول سيء على الجسم أو العقل البشري . وقضية عقار (الثاليدومايد) Thalidomide الشهيرة لا تزال عالقة بالأذهان . فقد اخترعت هذه المادة شركة المانية غربية وأدخلتها في تركيب حبوب مسكنة للنساء الحوامل . وبعد سنوات من استعمالها ، اكتشف أحد الأطباء الغربيين بأن تلك المادة تسبب تشوهات في تكوين الجنين مما يسبب في ولادة أطفال ناقصي الخلقة ـ مثلاً بدون رأس أو بدون أطراف عليا أو سفلى ، أو بطرف واحد أو يد أو أصابع غير متكاملة الخ ـ.. واتضحت المأساة عندما تجمعت حالات متعددة من هذه التشوهات . وهكذا لجأت كل دولة ومنظمة الصحة العالمية إلى منع تداول تلك المادة في السوق . ثم شرع قسم من ذوي الأطفال المشوهين باقامة دعاوى التعويض . كما اقيمت دعوى ضد الشركة نفسها . وكانت المحاكمة جارية في مدينة (السدورف) Alsdorfe في المانيا الغربية للتعويض عن الأضرار البالغة التي أحدثتها في الجيل الناشيء .

وتتدخل الدولة في اتجاهات الناس عندما تبذل جهودها الاعلامية للتحذير من مضار التدخين ، ومكامن الأخطار في العدوى من الأمراض المعدية ، وأسباب حوادث السيارات الخ . ان اللجوء الى عاطفة الخوف لدى الانسان وتخويفه من المخاطر وسيلة فعالة ومشروعة بيد الدولة للتأثير في اتجاهات الناس أو جلب انتباههم الى الناحية المقصودة .

وجهود منظمة الصحة العالمية في هذا المجال كثيف وكبير . والسلطات الصحية في جميع دول العالم على اطلاع وثيق ومستمر بنشرات وتحذيرات وابحاث المنظمة حول مضار بعض العقاقير وضرورة الحذر في استعمالها وحتى في حذفها والغائها من قائمة الأدوية المتداولة عند ثبوت ضررها إما على الجنين أو صحة الأم أو في احداث مرض خبيث . وبهذه الشبكة الإعلامية الصحية السريعة الاتصال تجري سيطرة ممتازة على استعمال الدواء وعلى صحة الناس .

ويجب ان نذكر هنا فعالية هيئة الأمم المتحدة أيضاً في مجال الصحة العامة وحماية العقل البشري من آفة الخرف والتدهور والانحطاط . ففي عام ١٩٧١ بدأ مشروع مكافحة تناول المخدرات UNFDAC الذي تسهم فيه اكثر من ٧٢ دولة[(١٢٩)] . وقد اوضح رئيس المشروع في عام ١٩٧٧ كيف تقوم هذه الشعبة بفعاليات ناجحة مع الفلاحين الذين يزرعون الأفيون سراً فتشرح لهم وتعلمهم كيف يستعيضون عن هذه الزراعة بأخرى مفيدة ومشروعة مثل زراعة الاثمار والقهوة العربية على التلال وكيف ان ارباحهم من الزراعة المشروعة تزيد على ارباح زراعة الأفيون . ويشخص التقرير بعض الأقطار التي أصبح

---

(١٢٩) United Nations Fund for Drug Abuse Control

ويحارب الاستعمار والاستغلال على النطاقين المحلي والعالمي . هذا المناخ ، يؤدي بدوره الى صبغ الانتاج الفني والأدبي والعلمي بروحية العدالة البشرية . والمعلوم ان الانتاج الفني والفكري يصطبغ باتجاهات الدولة . وقد كان الطابع السائد في أيام الهتلرية والفاشية والحرب النفسية هو العدائية والاستعلاء . بينما يصطبغ بالإيجابية والمشاركة الوجدانية والاعلاء من شأن الانسان بدون تحيُّز في المجتمعات الاشتراكية .

وما قيل عن الفن والأدب ينطبق على العلم أيضاً . فالعلم يمكن أن ينساق في دروب ثانوية أو غير ضرورية بالنسبة لواقع ومتطلبات المجتمع الآنية أو المستقبلة . والتخطيط القومي والتوجيه السليم يمكن ان يجعل العلم مفيداً للناس والمجتمع . صحيح ان كل بحث علمي يمكن أن يؤدي بالنتيجة الى فائدة وإلى معرفة جديدة تضاف الى خزائن الحضارة ، لكن البحث العلمي يحتاج الى معونة مالية وإلى طاقات يمكن أن يستفاد منها في ميادين اخرى أشد حيوية . وهنا يتجسد دور التخطيط للبحث العلمي ، وهو من سياسة الدولة المخلصة .

وتصطدم الدولة أحياناً بالتقاليد أو بعض المفاهيم الدينية غير الواضحة أو التي أسيء فهمها وهي تحاول تطوير المواطن لمستقبل أفضل . وتجابه بعض مجتمعاتنا العربية مثلاً مشكلة تحديد وتنظيم النسل التي يحاذر منها الأميون والبسطاء . والحقيقة أن الاسلام يبيح التحكم في النسل لصالح الفرد والمجتمع . ففي حديث شريف ، ان النبي محمد (صلعم) كان يكثر من هذا الدعاء : « اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء » . قيل : وما جهد البلاء يا رسول الله ؟ قال : « قلة المال وكثرة العيال » . وسئل أيضاً عن (العزل)[١٣٠]، فقال : « لا عليكم ألّا تعزلوا »[١٣١]. وكان العزل يومذاك الوسيلة المعروفة والدارجة الوحيدة لضبط النسل . فتحديد النسل مع تنظيمه ضروريان لسلامة المجتمع وبناء أسرة كفوءة متماسكة . ومحاولة الدولة لتثقيف الناس وشن حملة عادلة ضد كثرة النسل أو تعدد الزوجات ما هي إلا محاولات لتغيير اتجاهات الناس القديمة الخاطئة نحو الوجهة الصحيحة .

ومن المنطقي أن نفهم مصطلح (تنظيم الأسرة) على حقيقته وانه ليس مرادفاً « للتحديد » ، فإن لكل قطر مشاكله السكانية الخاصة . وإذا كانت الهند والباكستان وبنغلاديش تعاني من الانفجار السكاني ـ وكذا مصر ـ بتزايد الولادات مع الفقر والعوز والمجاعة والكوارث ، فإن دولاً أخرى بحاجة الى تزايد في عدد نفوسها لأنها تفتقر الى القوى البشرية وتستطيع ان تتكفل وترعى تلك الزيادة مثل غالبية الدول الدول العربية وفي مقدمتها العراق والجنوب العربي الـذي أصبحت فيه البطالة معدومة والأيدي العاملة نادرة

---

(١٣٠) العزل : القذف خارج فرج الأنثى .

(١٣١) منصور علي ناصف (التاج الجامع للأصول)، جزء ٢، ص ٣١٠ .

الوقاية من التحوير الفكري
التصلد .. المقاومة

إن التخطيط لتغيير الاتجاهات ، والاستعدادات الدائبة لإدخال الأفكار أو لإزالة العقائد وإحلال غيرها في محلها ، تدل أيضاً على وجود « مقاومة » وعقبات أمام عمليات التمذهب تلك . فالعقل البشري ليس فريسة سهلة الانقياد أو لقمة سائغة للمضغ والهضم ، وليست عجينة مطواعة لمن يقولبها ويغيّر هيئتها .

فالمقاومة موجودة لا ريب فيها . وقد تكون مقاومة تلقائية ذاتية المنشأ ..، أو قد تكون مخططة متعمدة . ولم تصبح مقاومة التمذهب خطة ومنهجاً إلا بعد الحرب الكورية عندما استيقظ سياسيو ورجال الحرب الاستعماريون وفغروا أفواههم دهشة للتحول السريع الذي طرأ على اتجاهات ومبادىء محاربيهم . أما قبل ذلك التاريخ ، ولعشرات القرون ، فكانت مقاومة التغيير والتحوير نابعة من التجارب الحياتية ومن تركيب الشخصية وقوة العقيدة، ومن ظروف الفرد وعلاقته بجماعته. فمن الشخصيات من ينهار ويستسلم، ومنها من يقاوم ويجدّ في المقاومة إلى أبعد الحدود . ومن المؤمنين من يفضل الموت على الاستسلام أو النكوص ، ومنهم من كانت ظروفه سيئة ومعاكسة تجعله يتيه ويذهل ويفتقد المعالم فيلجأ إلى مفاهيم أخرى .. وهكذا .

صحيح أن محاولة التخلص والمقاومة تدفع بالمرء أحياناً إلى احضان الدعوة الجديدة ذاتها كما حدث لمايا ديرين في حفلات (الفودو) ، إذ أنها أرادت أن تقاوم الرقص المجنون وسحره فإذا بها تنغمس فيه . إلا أن محاولة التخلص تلك كانت انفعالية ، فأضافت عبئاً جديداً على الجهاز العصبي والدماغ . وقد استطاع كثيرون أن يقاوموا بطرق أخرى . ويذكر أحدهم في مذكراته انه لم يعترف بشيء ذي بال بالرغم من تعرضه لمئة وثلاثين (١٣٠) جلسة تحقيقية عسيرة !. وكان ذلك في أوائل القرن العشرين في روسيا .

وتذكر الأنباء عن شدة تصلب أفراد جماعة (الماو - ماو) التي أرعبت المستعمرين ، وكيف ان السلطات البريطانية في كينيا اعتقلت مرة المدعو (كاماو) الكيني

فلسفتهم تلك أعانتهم على مقاومة الاقناع أو على « إقناع الغير » بآرائهم ، كما حدث في كوريا . أما العداء والحماسة والانفعال فلا يمكن التكهن بنتائجها .

وكان « هوراس والبول » أحد اللاابالبين غير المكترثين بمواعظ (ويسلي) . ولم ينجح في بعده عن نطاق تأثير الوعظ الساحر إلا « بالانفصام العاطفي » عنها . وكان يتذرع بالتبلّد الذي يقيه مزالق التطهر والاستغفار الذي يدعو له ويسلي . لذلك كان هوارس يصف مواعظ ويسلي بنعوت تناقض تماماً نظرة المؤمنين به . فهو يقول مثلاً : كان ويسلي ممثلاً ، يرتل صلاته بسرعة غير مفهومة . وكانت ألفاظه رتيبة متوالية تتخللها مواقف بليغة وفصيحة . كان يخيل إليّ أن مواعظه دروس محفوظة . وبالأخير ، فهو ينمي موعظته برفع عقيرته ونبراته ، ويتصرف باشتياق وانهماك قبيحين !! » .

وقصة القديس (جيور دانو برونو) ـ ١٥٤٨ ـ ١٦٠٠م ، دليل آخر على المقاومة والتصلد . فقد كان مفكراً حراً ، اصطدم بالكنيسة الكاثوليكية وانتقد اللوثرية ولم يحبذ الكلفينية ، لكنه ظل حر الرأي يؤمن بوحدة الوجود والحلول الروحي ويكره التعصب ، إلى أن وقع بيد محاكم التفتيش الايطالية . وسجن ست سنوات ، ولم يعترف أو يتراجع عن رأيه ، ولم يتبرأ من شيء . وكان يقول : « إن الرجل العاقل الحكيم السائر في طريق الفضيلة لا يخشى الألم ، وإن الرجل السعيد هو الذي ينظر إلى الأشياء بعين العقل » . وصدر الحكم باعدامه حرقاً في ميدان الأزهار في روما عام ١٦٠٠م. وبعد ٣٠٠ سنة ، أقيم له تمثال في نفس الميدان[١٣٢].

وعندما ادعى النبوة (جوزيف سميث) في منطقة (أوهايو) عام ١٨٣٠ وأسس الكنيسة (المورمونية) في الولايات المتحدة ، جذب اليه أتباعاً كثيرين من أنحاء أخرى ـ ميسوري ونيويورك ..، وقاد أتباعه إلى أتباع تعاليم ورؤى و « كتاب مقدس » هو « كتاب المورمون » . وقال إن كنيسته تمثل الكنيسة المسيحية القديمة الأصيلة . ومزج التصوف اليهودي بالتبتل المسيحي . وكان كلما أتى بتعاليم حياتية جديدة ادعى أنها جاءت عن طريق « الوحي والرؤيا » . ومن جملة ما تلقى من وحي هو السماح بتعدد الزوجات . ويظهر انه احتفظ بذلك الوحي لنفسه سراً ، إذ يقال إنه تزوج ما يقارب الخمسين إمرأة ، وكذلك المئات من أتباعه المقربين . والمهم من كل ما تقدم أن بعض العقلاء والناقدين وجدوا في تعاليم سميث مخالفات ومغالطات كثيرة ، فهاجموه في صحيفتهم ، مما دفعه إلى تحطيم مطبعتهم . فدخل السجن مع أخيه . واستمرت المقاومة والتصلد ضد تعاليمه ، وقامت مظاهرة هاجمت السجن وصرعوه قتيلاً برصاصهم . وكشفت عن تفاصيل حياة النبي سميث الفاضحة الكاتبة المورمونية (سابقاً) برودي في كتاب ضخم[١٣٣].

---

(١٣٢) علي أدهم ، (برونو ..) ، مجلة العربي ، العدد ١١٠ ، ١٩٦٨ .

(١٣٣) Fawn m. Brodie; (1960). «The life of Joseph Smith ». N.Y.

مسلحين بالهروات كانوا يطلقونهم على الشوافع ليوسعوهم ضرباً حتى يشرفوا على الموت[١٣٧].

كذلك كان التسيب الديني والاهمال والاجرام والتدهور الاجتماعي والخلقي سبباً في ظهور جماعات دينية متعصبة في أوروبا وأمريكا ذكرنا منها حركة الاصلاحيين (الميثودست) والانجيليين والكلفينيين واللوثريين والبروتستانتيين والكويكرز..الخ.وعندما تظهر أية حركة أو فرقة دينية لضرورة اجتماعية أو محيطية ملحة وتدعو للاصلاح والتقوى والتمسك بالأخلاق ، فلا يكفيها أن تحول أفكار الناس ، بل عليها أن تبقيهم في نطاقها وتحت تأثير تعاليمها وإلا عفا عليها الزمن وتداعت وأصبحت في طي النسيان . فالحركة والجماعة تستدعي وجود قوة لاصقة جامعة ومستمرة التأثير. وهذا مثال على الوقاية من التحول والنسيان وعلى التصلد والمثابرة . وتكتسب الحركة زخماً قوياً من ابتاعها . وقد لا يستطيع القادة والمفكرون إيقافها أو اجراء تعديل عليها . ويذكر الدكتور علي الوردي في كتابه عن « طبيعة المجتمع العراقي » وبحثه عن التشيع والتصوف والسنة ، بأن من وسائل الدعاية الشيعية الحرص على الطقوس ، منها : الاهتمام البالغ في زينة المراقد الشريفة وزخرفتها ، ثم اعتياد اجراء المواكب الحسينية في العشرة الأولى من شهر محرم إحياء لذكرى مقتل الحسين كرّم الله وجهه . ويبلغ هياج العواطف أقصاه بين الأعلام والطبول والبوقات ، ولسماع القصائد الحزينة ، ولمنظر اللطم والضرب والدماء .. وكذلك حرص الأغنياء والوجهاء على اقامة مجالس التعزية بالاضافة الى مجالس التعزية لذوي المهن والمحلات . ويبلغ هياج العواطف إلى حد التأثير في المشاهد الغريب . وتذكر الليدي (درور) ان امرأة مسيحية شهدت مأساة سيد الشهداء الحسين وسرعان ما انسكبت دموعها غزيرة .. ، ويذكر أيضاً أن من الأوتار الحساسة التي تلعب عليها الجاذبية الشيعية لأتباعها ومنتسبيها الجُدد (من القبائل مثلاً) هي ذكر مناقب أهل البيت وذكر المظالم التي وقعت عليهم[١٣٨].

إذن ، الحرب على الدماغ من أجل الدماغ استوجبت حرباً أخرى واجراءات وقائية لحماية الفكر من الاستغلال والاستخدام . فالنار أوجدت لها جهازاً كاملاً من « مكافحة الحرائق » .. والصواريخ عابرة القارات استوجبت اختراع قذائف « ضد الصواريخ » .. والقنابل الذرية الحّت على مخترعيها إيجاد وسائل للوقاية من خطر القنابل الذرية والهيدروجينية والاشعاع والرماد الذري .. الخ . وكذلك الدعاية والأفانين العقائدية الجذابة استوجبت التفكير والتحضير والاستعداد لمقاومة التمذهب الاستغلالي وغسل الدماغ . وكمثال على ذلك ، نذكر ما حدث في المانيا الغربية . فبعد أن وعت الجماهير في

---

(١٣٧) مصطفى الشكعة ، (اسلام بلا مذاهب) ، ص ٢٩١ .

(١٣٨) الدكتور علي الوردي ، (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩ .

أشد متانة . فالتائب عن الخمر مثلاً يشعر بعاطفة التبعية الروحية أو العائلية أو الانسانية للجمعية التي تتحرى أبناءه وتتّبع نشاطه وتراسله وتشده إلى جماعته من أمثاله دون أن تفرق بين المنتمين على أساس اللون أو العنصر أو الطبقة . القيادة الكفؤة إذن أو « الرعاية » النابهة المستمرة قوة لاصقة تعزز من مقاومة التحوير الفكري .

ثالثاً : اختيار المنتمين بدقة :

ففي ميدان الحرب والسياسة تختار الدول محاربيها على أسس متعددة . والجندي المثالي هو الذي يؤمن برسالة شعبه ويتمتع بمعنوية حربية عالية ولا يلتفت إلى الدعايات المضادة . وإذا وقع في الأسر ظل جامداً صامداً لا يفشي سراً ولا ينحرف ولا يتمذهب بأفكار معادية . وهذا هو المحارب والمواطن المثالي. على ان الوقائع كشفت في عدة مناسبات عن جنود غير مثاليين ، كما حدث في كوريا عندما انهارت نسبة عالية من جنود الولايات المتحدة الأمريكية ونسبة أقل من جنود بريطانيا ، بينما لم يتراجع أو يعترف أي جندي تركي آنذاك . وعوامل تحول واعتراف المحاربين كثيرة بالطبع : منها ما يرجع إلى شخصية المحارب نفسه . أو إلى ما يجري في المعركة ، ومنها ما يرجع إلى طبيعة المجتمع الذي عاش فيه وتربى عليه . وكما ان الحرب الكورية كانت مصدر التسمية الحديثة لـ « غسل الدماغ » ، فإنها كانت أيضاً تجربة قاسية للمسؤولين في وزارة الدفاع الأمريكية اضطرتهم إلى إعادة التفكير في كيفية اعداد « المحاربين المثاليين » ووقايتهم من تأثير التحوير الفكري أثناء الاسر . وقد باشرت الحكومة الأمريكية منذ ذلك الحين في تلقين وتعليم كل محارب مجموعة من المبادىء الأخلاقية ـ الوطنية وقاية له من أي اعلام وتثقيف خارجي . ولا غرابة لهذا الاهتمام لأن الأسير هو موضع اهتمام الجانبين المتحاربين وعليه تسلّط افانين التحويل والمذهبة ومنه تستقى الاعترافات الصحيحة أو الكاذبة التي تستخدم للدعاية والحرب النفسية ضد العدو .

لذلك سنّت الولايات المتحدة « قانون سلوك الأسير » الذي ينص على أن كل عسكري يجب ان يعاهد نفسه ووطنه ورئيس جمهوريته على ما يلي[١٣٩]:

١ ـ انني رجل امريكي محارب . أخدم في القوات المسلحة التي تدافع عن بلادي ونمط حياتي . وانني مستعد لكي أفديها بحياتي دفاعاً عنها .

٢ ـ سوف لن استسلم طوعاً مني . وإذا كنت آمراً فلن أدع أحداً من اتباعي يستسلم طالما تبقت لدينا قابلية الدفاع .

٣ ـ إذا ما وقعت أسيراً ، فسأستمر على المقاومة بكل الوسائل الممكنة . وسأحاول جهدي أن أهرب وأساعد الآخرين على الهرب . وسوف لن أقبل المهادنة أو المكافأة من العدو .

---

(١٣٩) الانسكلوبيديا البريطانية ، ١٩٦٥ ، جزء ١٨ ، ص ٥٦٣ .

بالسجن مدى الحياة . لكنها كـانت تصيح : « احكمـوا بما تـريدون .. فلن تهمنـا أحكامكم » ..

رابعاً ـ « التمريض الأولي » والرعاية الأولى :

بعد أن تنجح الخطوة الأولى في تحويل واقناع ومذهبة الفرد ، تكون المراحل التي تليها أشد خطورة وحساسية في تثبيت وتعزيز التحول . وهذا هو المقصود بالتمريض الأولي . وقد شاهد سارجنت بنفسه ما يجري في اجتماعات (كارولينا الشمالية) بين اتباع مذهب خاص يتناولون الأفاعي بين أيديهم كجزء من طقوسهم المسيحية وذلك في عام ١٩٤٧ . وقد وصف ما يحدث من نوبات التهيج والصراخ والانهيار والأعراض الهستيرية الأخرى ، وكيف يحتدم أوار الهياج بالتصفيق الرتيب والأناشيد وملامسـة الأفاعي السامة ، ثم حدوث الإغماء . وفي طور الإغماء هذا ، وأثناء الاستفاقة يصبح المنتمي قابلاً للايحاء ـ أيّ إيحاء : بالطهر والعفاف والايمان والتقوى ، أو بعكسها . لذلك أصبح من الضروري بعد اتمام كل احتفال أن يبقى الانسان في حالة وقائية مريحة كي لا تدخُل في دماغه أفكار شريرة . وتلك حقيقة فسلجية أكدها السيد المسيح (متى ١٢ ، ٤٣ ـ ٤٥) عندما قال ان الانسان المتطهر النادم الذي تماثل « للشفاء » قد يرجع إلى داره ليجده نظيفاً زاهياً ، فإذا لم يلق من أقربائه أو أصدقائه العناية والرعاية فإنه ربما يقع فريسة لسبع أرواح دنسة بدلاً من واحدة ويكون أسوأ بكثير من قبل شفائه .

وقد حدث ذلك بالفعل أثناء اجتماعات المجددين « متناولي الأفاعي » في كارولينا ، إذ كان يحضر في الاجتماعات شخص محتال متنكر لقب بعدئذ « بالقاتل » . ولم يكن متديناً مخلصاً بل كان ماكراً ذكياً جاء ليتصيد الفتيات والنساء . وقد أدرك بغريزة غادرة أن الأنثى التي يغمى عليها من شدة التأثر أثناء الاحتفالات تذهب إلى دارها منهارة مزعزعة الإرادة قابلة للإقناع والإغراء . فكان يتصيد إحداهن ويستلقي معها ويروي ظمأه الجنسي دون مقاومة . لكن الأنثى ذاتها ، وبعد مرور يوم أو يومين تسترجع وعيها وصلابتها المذهبية فتطرده وتمانعه وتفضحه ، مما أدهش المجرم ولم يجد له تفسيراً في عقله الداعر . وهكذا يجب أن يكون التمريض الفكري والرعاية الوجدانية جاهزة وجيدة بعد كل تجربة إقناعية .

خامساً ـ وقاية الناس من الدعاية الخادعة :

ووقاية الناس من الدعاية المخادعة والضارة لا يمكن أن تتم في كل المجتمعات بالطبع . إلا أن الدولة اليقظة تستطيع إرشاد الناس بطريقة غير مباشرة إلى البضاعة الجيدة أو المنتوجات الصحية الصادقة ، وتحذرهم من المواد أو الألبسة أو الأطعمة أو الأدوية المؤذية والضارة . ولهذا التدخل حدود بالطبع فالدولة لا تستطيع أن تقول أن القماش الفلاني أو العقار الفلاني أجود وأصح من الآخر ، ولا أن تصرح إن المجلة الفلانية أفضل من الأخرى فهذه مسائل ذوقية أو جمالية . لكنها تستطيع أن تحذر وتنبه

كيم) صاحب الأدوار الشهيرة في تاريخ الاستعمار الانجليزي للهند . فقد تمكن (كيم) أن يقاوم التنويم المغناطيسي الهندي بأن تعمد في قرارة نفسه أن يتلو جدول الضرب الحسابي أثناء محاولة تنويمه . ولم يصغ إلى إيحاء المنومين وإن استدعى منه ذلك جهداً جهيداً .

وفي عام ١٩٤٠ ، ألقى الجستابو النازي القبض على الكولونيل (ر. هـ. ستيفنز) بينما كان في مهمة خاصة في هولندة . وفي محاولة عنيدة لتحطيم معنوياته ، قيده الجستابو كما يقيدون الكلاب في حجرة ضيقة في سجن ألماني . وبقي هكذا مدة سنتين . لكنه لم يستسلم . وكانت حيلته في المقاومة « عدم الالتفات » إلى حالته وعدم الإصغاء إلى غيره . وراح يستعيد ذكريات طفولته ويتذكر بجهد شكل بيته ولون الستائر والحلي والتصاوير وأسماء الكتب الموضوعة في المكتبة ... واكتشف ستيفنز أن علامات التحدي والاستهزاء بالعدو لا تجدي نفعاً بل تزيده عنفاً ، بينما البرود والاهمال وعدم الاكتراث يغيضهم ويتركهم في حيص بيص . وقد نجحت خطته تلك وأنقذته من براثن الهلاك الفكري والجسماني طيلة سنتين في السجن وثلاث سنوات أخريات في معسكر اعتقال (داشو) .

ويصرح أحد رجال الطب العدلي المشاهير انه لو كانت إجابات المتهمين والمجرمين محدودة مقتضبة ويؤدونها كتابة وعن طريق محامين ، لما استطاع البوليس الحصول على قرائن واثباتات لكثير من الجرائم . لكن ـ بلطف الله ـ يعترف معظم المجرمين بدافع الشعور بالاثم الحقيقي ، أو برغبة دفينة في « التعاون مع القانون ، أو في أثناء الحماس والانفعال والخوف أو الغضب . فالقاعدة الناجحة في خطة « عدم التعاون » هي البرود وعدم الاكتراث » .

والاعتراف النفسي للطبيب أيسر بكثير من اعتراف السجين عند المحقق ، لأن المريض « يريد » أن يتعاون مع معالجه . وإذا ما حصل رد فعل ونفور عنده ، أو إذا صمم على عدم التعاون ، فإن الدواء أو التحليل النفسي لا يجدي شيئاً . ويذكر براون ان جندياً ظلّ يصر على عدم معرفة اسمه وعنوان مسكنه وأقربائه طيلة سنتين بالرغم من استعمال كل وسائل العلاج النفسي والعقلي !. وقد ذكرنا سابقاً عقم الأدوية في الحصول على « اعترافات » نقية صادقة غير مغشوشة إلا من قبل أناس لهم استعداد باطني على الاعتراف حتى بدون العقاقير . أما آلة اكتشاف الكذب فإنها غير مجدية كذلك ما لم تكن شخصية الفاحص توحي « للمتهم » بالاعتداد والثقة بفحصه ونتائجه ـ أي أنه متأكد من اجرام المشتبه به . وللبوليس وسائل مغرية للايقاع بأنواع المجرمين واقناعهم بالاعتراف التام ، أما أصعب المعترفين فهم المجرمون المحترفون .

وقد كان تمسك الجنود الأتراك والتفافهم حول بعضهم مع وجود قيادة متسلسلة من بين الأسرى استطاعت إدارة وتوجيه المجموع نحو تحمل البعد والوحدة والعذاب النفسي .. كان ذلك كله سبباً في عدم حدوث وفاة بينهم أو اعترافات ذات بال بالرغم من أن

ثامناً ـ اكتساب الراحة الجسمية :

فمن وسائل تحويل الأفكار وغسل الدماغ التجويع والارهاق واضطراب النوم وتقليل التدفئة واستبعاد كل راحة سريرية . والفرد المعرض للتمذهب والتأثير الخارجي يستطيع أن « يسرق » الراحة الجسمية إذا عرف كيف ومتى . والهموم والقنوط لوحدها تفقد الانسان من وزنه ، وطرد الهموم والاقلاع عن الوساوس واستبعاد الاحتمالات المفجعة تحفظ له وزنه وصحته . وإذا شعر بالحرمان من النوم انتهز كل فرصة ليغمض عينيه وينام هنيهات وثوان حتى أثناء جلوسه أو عند انتظاره التحقيق أو خلال دقائق تبديل الثياب أو على مائدة الطعام !. وتجنب الحدة والغضب تمنع أيضاً نفاذ إيحاء الآخرين إلى الفريسة وتقوي من القوى الذهنية والارادة . فالانفعال إذن يرهق الجسم بالاضافة إلى النفس . أما ما يفعله الانفعال بالنفس والذهن فسنذكره أدناه .

تاسعاً ـ البرود العاطفي (الانفصام) :

وأنجع طريقة لمقاومة الانهيار والمطاوعة هي تجنب الانفعال أو الانغماس في الاحتفالات والطقوس العنيفة . فالغضب من مراسيم القبيلة الفلانية أو استنكار موعظة دينية يلقيها الواعظ الفلاني أو التقزز والخوف من تناول طعام ما .. كلها مقاومة انفعالية خطرة على الفرد ذاته . وعلى نقيض ذلك ، فإن البرود ، والتعالي ، والشعور بالانفصام أو البعد العقلي عما يجري ـ بالرغم من قرب المسافة ـ ، فهي الوسائل الكفيلة بتفادي الاستسلام الى محاولات غسل الدماغ كما حدث لمن نقدوا وانتقدوا الانحرافات والأغلاط في بعض المذاهب الدينية المتعصبة في أوروبا وأمريكا والذين ذكرناهم في مطلع هذا الفصل .

ولا ندري بالضبط ماذا كان شعور الامام (أحمد بن حنبل) عندما ظلّ يقاوم ولا يعترف بخلق القرآن ولا يساير المعتزلة والخلفاء الذين اعتنقوا مذهبهم ، بالرغم من السجن والاضطهاد . لكنه لا بد أن نفترض أن عقيدته وعزلته وانفصامه عن المؤثرات الخارجية هوّنت عليه عذابه وأدخلت عليه البرد والسكينة ، فلم يتنازل عن مبدئه . ولعل من الغريب ان الحنابلة الذين لاقوا الاضطهاد على أيدي المعتزلة لم يلبثوا أن تعصبوا هم واضطهدوا غيرهم !. ويذكر (ابن الأثير) أنهم منعوا دفن ابن جرير الطبري ، مما اضطر أصحابه أن يدفنوه ليلاً في داره لا لشيء إلا لأن الطبري لم يعترف بابن حنبل كفقيه واعتبره محدثاً ليس إلا . وكان ابن جرير قد أسس مذهباً خاصاً به[١٤٢].

ولعل من الطرافة والسخرية أيضاً أن نختتم هذه الفقرة بذكر مثال آخر من عالم الحيوان تنطبق تقريباً على معنى البرود العاطفي وعدم التعاون والاكتراث . ولا عجب في ذلك ، إذ أن الحيوان كان ولا يزال مصدر المعلومات والتجارب البشرية في شتى الميادين

---

(١٤٢) مصطفى الشكعة ، (إسلام بلا مذاهب)، ص ٢٩١ .

والاشاعة تسير بسرعة النار في الهشيم ، ومن الخطأ اعتبارها حكاية عابرة تُروى للآخرين للتسلية وقضاء حديث عابر ، فالشخص الذي تهمه مصلحة جبهة وطنه الداخلية والذي يشعر بالمسؤولية يمكن أن يخبر مسؤولية عنها لتقوم السلطة المختصة باجراء ما يقتضي بأسرع ما يمكن لمكافحتها ، وهذا جزء من « الاعلام المضادة » أو « الاعلام الوقائي » .

ويقال ان اليابانيين والالمان كانوا يرفضون سماع الاذاعات المعادية ، أما الايطاليون فيقبلون على سماعها وتناقل اخبارها وتصديقها ، لذلك انهاروا بسرعة . كما وتذكر وثائق الحلفاء ان بعض السرايا الالمانية المحاصرة كانت تهزأ بالاذاعات الموجهة إليها والتي تتخللها الموسيقى ، فقد طلبوا مرة أن يكثروا من اذاعاتهم الموسيقية الراقصة بل الموسيقى الكلاسيكية (لباخ) و (بيتهوفن) لأنهم سيحتفلون بعيد ميلاد أحدهم !! ...

حادي عشر - الصبر .. والنفس الطويل :

الصبرُ ، والجَلَد ، والنَفَسُ الطويل والنظرة الثاقبة المتأنية البعيدة المدى هي الدعامة الأساسية لمن يخوض كفاحاً طويل الأمد . وهو مبدأ أثبتته أحداث التاريخ البشري ، ودرسٌ أتقنته الشعوب والأمم التي تسعى الى التحرر والاستقلال عن النفوذ الأجنبي . ويقول الدرس إن خسارة المعركة أو الجولة الواحدة لا يعني خسارة دائمية . فلكل جولة ما يتبعها من جولات لاحقة إذا أصرّ المكافح على ذلك .

وحالة الأمة العربية في كفاحها ضد الاستعمار والصهيونية هي جولة من جولاتها العديدة للتحرر والوحدة خلال القرون الخمسة الأخيرة ..، وهي الجولة التي تتخللّها بضعة جولات لا تزال مستمرة ..، فمنذ عام ١٩٤٨ ، الى عام ١٩٦٧ .. كان اليائسون والعاجزون يتصورون أن الأمور استتبت ووصلت الى شكل ثابت ونهائي ..، لكن ذوي النظر البعيد ، والمثابرين ، والأحزاب الوطنية القومية كانت تصرّ على ان الجولات مع اسرائيل لم تنته . وهكذا ادرك الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ أن الجلد ولمّ المشمل وتجميع ما تشتّت وحرب الاستنزاف الطويلة يمكن ان تودي الى النصر الأخير . وهكذا كان يخطط بأناة لحرب العبور والتحرير ، لولا ان توفي فجأة ..، وتحولت حرب العبور العظيمة عام ١٩٧٣ التي اسهم فيها الجيش العراقي تلقائياً ..، تحولت حرب العبور الى حرب تحريك وتحوير.. الى اتفاقية (كامب ديفيد) التي استنكرتها كل الشعوب والدول العربية . لكن الجولة لم تنته بعد ..، وكل ذلك لا يهم لأن العمل العربي المشترك وانتماء الجماهير لقياداتها المخلصة وصبرها وايمانها وصلابة المقاومة الفلسطينية لا بد ان تحقق النصر النهائي رغم الانتكاسات والعثرات الوقتية : « والانتكاسة ليست دائمية ولكن حالة راهنة وقتية ....، وقد تواجه الأمة بعض الانكسارات ولكنها لا تنكسر في كل الميادين

الفلسطيني يؤمن بالتصاقه بتربته المغتصبة .

وقد لقيت المقاومة الفلسطينية الدعم والزخم الأكبر من قبل السكان العرب في الأرض المحتلة وطلبتها العرب ، فإذا بالفلسطينيين يعلنون الرفض ويتظاهرون ويستنكرون عشرات المرات في يوم الأرض (١٩٧٦/٣/٣٠) ، وضد تهويد القدس ، وضد التعسف وتعذيب المعتقلين ..، بل انهم يجبرون اسرائيل على إعادة رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة الى منصبه ..، بل انهم يتحدّون في (الخليل) اقامة مستعمرة استيطانية قربها (كريات ارباع) في مايس ١٩٨٠ ويفضحون زيف وادعاءات زعماء الصهيونية التخديرية الكاذبة التي جاءت على لسان شمعون بيريز في ١٩٧٦/٣/١٥ : « إن عرب اسرائيل يجب ان يعتبروا أنفسهم مواطنين اسرائيليين .. وأرجو ان يفعلوا ذلك .. » .

وهكذا نجحت المقاومة الفلسطينية في الساحة العالمية ، وكسبت تفهم وتعاطف دول وروبا الغربية وأولهم مستشار النمسا اليهودي (كرايسكي) ، وأخيراً حصلت على قرار من قمة مجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية وبحق لشعب الفلسطيني بالعودة الى وطنه ، وبتشكيل دولة مستقلة ..، رغم كون القرار المبدئي حلاً وسطاً ....، لكنه جولة رابحة ربما ستتبعها جولات أخرى في ساحة الرأي العام لعالمي :

« ربما تسلبني آخر شبر من ترابي
ربما تطعم للسجن شبابي ..
ربما تسطو على ميراث جدي ..
من أثاث وأوان وخوابي ..
ربما تطعم لحمي للكلاب ..
ربما تبقي على قريتنا كابوس رعب
يا عدو الشمس ..
لكن ، لن أساوم ..
والى آخر نبض في عروقي ..
سأقاوم .

(الشاعر الفلسطيني سميح القاسم)

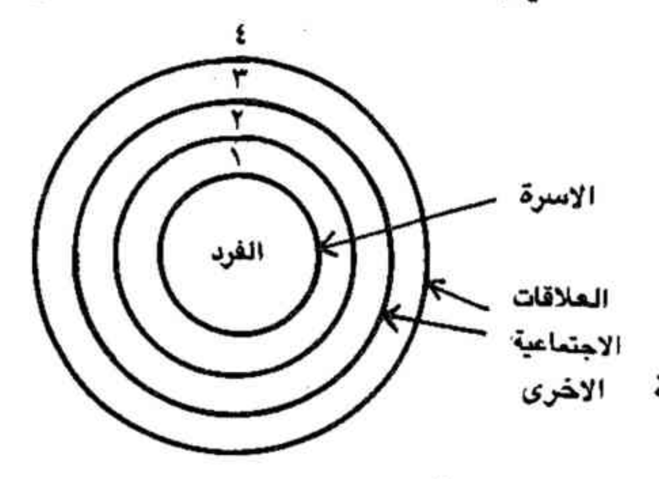
« كالسنديان هنا سنبقى كالصخور
كعرائس الزيتون فوق رُبىٰ بلادي كالنهور
كحمائم البرية الخضراء إنا سوف نخفق
فوق أرضك يا بلادي كالنسور ..
لولاك هل كنا سوى جثث
ولولانا ، أكنت سوى قبور

وأخيراً فإن مقاومة الغزو الفكري سيصبح علماً خاصاً للشعوب النامية المتطلعة إلى الرفاه والحرية والعزة القومية والاشتراكية ..، وهي سلاحها ضد المستعمرين والمنتفعين دون شك . وعندما يدرك الفرد العربي ماذا يريد به المستعمر والصهيوني سيعرف كيف يجب أن يقاوم ، وهو ما سنتطرق اليه في القسم الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله .

مخلوق غير عاقل ..، بيد انه لا يمكننا التدليل على أن الحيوان مخبول أو معتوه ! أما الانسان فما أكثر الاحتمال أن يصبح مجنوناً . ولا يصاب الحيوان ـ على الأقل بحدود تجاربنا عليه ـ لا يصاب بالهلوسات والتخيلات المريضة كالانسان ، كما إنه لا ينخدع ويصبح فريسة للدعايات والاعلانات . ومع ذلك ، فالذي تحاول الدعّاية والمذاهب أن تخاطبه وتستميله هو « الانسان العاقل » مستصرخة حكمته وعقله !!

فإذا انتقلنا إلى طرف آخر في القضية وهو سيجموند فرويد ، فإننا نجده قد اعتبر الانسان مخلوقاً الجانب الأكبر فيه غير عاقل Irrational ، ومعرفته لنفسه ناقصة وضيقة . كما ان نظرة فرويد الى الفرد وشخصيته تعتبره كتلة صلبة معزولة عن غيرها ، أو ذرة اجتماعية تشبه كرة البليارد التي وصفها (دالتون) بذرة المادة وبأنها تصطدم مع غيرها أحياناً ، وقد تتماسك مع غيرها أحياناً أخرى .

على أن معلوماتنا الحديثة عن الذرة وعن الانسان جعلت من فكرة الكتلة المحدودة أو الذرة المستقلة نظرية وهمية ، إذ ان الذرة الواحدة تتكون من أجزاء دقيقة أخرى تتصرف وتسلك سبلاً ومسارات تغير من طبيعة الذرة ذاتها . ويمكن الاستدلال عليها بظواهر متعددة يعرفها دارسو الفيزياء والكيمياء . كذلك فالشخصية الانسانية هي مجموعة من أجزاء ووحدات ، وهي مركز تجمع الطاقة البشرية ، أو هي موطن تجمع كل العلاقات البشرية كما وصفها العالم النفساني (كارلو ليفي) Carlo Levi ، وكما هو موضح بالتخطيط أدناه ففي لبها ومركزها نجد شخصية الفرد المحاطة بعلاقات مع الأبوين والاسرة ، ويحيط بمدار الاسرة مدارات من علاقات متعددة أخرى كالجيرة والصداقة والعمل والجماعات الصغيرة فالكبيرة ، فالمجتمع الكبير .



حدود الشخصية إذن غير واضحة المعالم كما كنا نتصور سابقاً ، وأنشطة الشخصية الواحدة تختلف بين حين وآخر وبين ظرف وآخر . فقد يكون مركز نشاط الشخصية هو المدار رقم (١) ، أو قد ينتقل الى المدار (٤) ويعود الى مدار (٣) .. وهكذا . فاتجاه واهتمام الشخصية يتراوح في النوعية والكمية بتغير الأحوال . ونعود هنا لنتساءل : هل ان عملية غسل الدماغ تتمكن من تحطيم الشخصية كتحطيم القنبلة الذرية ؟؟. إن ذلك أمر مشكوك فيه ، بل انه موضع مناقشة علمية شائكة . وما يمكن قوله بارتياح ان غسل الدماغ ربما يغير من نشاطات تلك المدارات المذكورة . ان الشخصية البشرية تدور على محور الوراثة أولاً ، ثم على كيفية نمو وتطور علاقاته العاطفية مع والديه أثناء الطفولة . ويأتي المجتمع بعدئذ بما فيه من جماعات متعددة لتبدأ عملية تطوير وتأثير

داخلي . فتحوير الأفكار إذن ليست عملية غرس أو اقتلاع أفكار ، بل انها عملية تقديم أفكار جديدة أو تعديل أفكار قديمة بشرط ان تتلاءم مع أصل بناء الشخصية وتجد لها موضعاً يتفق مع شخصية ذلك الفرد وتجاربه . ان تبديل الاتجاه وتحويل الأفكار يعني أن تكون الأفكار والاتجاهات الجديدة شيئاً حياً منسجماً منساباً مع عقل الفرد وليس « قطعة » أثاث موضوعة في إحدى زوايا دماغه « اصطناعياً » .

لذلك لا يمكن للأفكار الشاذة المريضة أن تصبح جزءاً من الشخصية أو أن تحدث تبديلاً صارخاً ما لم تكن ملائمة للظروف الخارجية وتتماشى مع طبيعة الشخصية . فالسلوك الجنوني أو الشلل الهستيري لا يتلاءم مع شخصية الانسان ولا يبقى ملاصقاً لها . أما الفكرة التي تجعل من الأبيض المتعصب ضد الزنوج انساناً آخر يرحب بالزنوج كمخلوقات بشرية متساوية معه .. هذه الفكرة هي التي يمكن أن تمتزج بشخصية الانسان وتحول اتجاهها كما ذكرنا سابقاً في موضوع الاتجاهات .

ان نقطة الالتباس وسوء الفهم ترقد في ماهية التحوير والتغيير خلال عملية غسل الدماغ وما يشبهها . ويقتضي التأكيد على ان ماهية الشخصية وتركيبها واتجاهها يبدآن منذ الطفولة وما يفعله الطبيب النفساني أو الاجتماعي أو المحقق السياسي لا يتعدى إيجاد اتجاهات ملائمة لتلك الشخصية الأصلية في الانسان بحيث تجعله قادراً على مواصلة دوره في جماعته . فالأسير الأمريكي أو البريطاني الذي يتقبل الاشتراكية على أيد المحققين الكوريين لا بد ان أفكاره واستعداده السابق ووجدانه الذي جاء به من وطنه قد أعانته ومهدت له تقبل الأفكار الجديدة ، والعكس يصح أيضاً .

إن عملية التحوير والمذهبة إذن لا تماثل « تسجيل » أو « مسح » شريط التسجيل الالكترو ـ مغناطيسي المعروف ، بل إن كل ما هنالك هو عملية تجسيم أو تخفيف عادات وأفكار وذكريات معينة ، وهي عادات واتجاهات تكونت على مر السنين . ومن محو ذكريات وعادات إلى درجة العدم ، بل ان ما يحدث انها تختفي وتثبت وتغوص إلى قيعان القوى الذهنية فتكمن وتنزوي ، تتضاءل أو تتوارى في مجال اللاوعي . ولا تختفي الفكرة من خلايا الدماغ إلا في حالة واحدة هي أن تنعدم وتموت تلك الخلايا الدماغية . وقد يحدث ذلك في بعض الأمراض الدماغية المعروفة التي تؤدي إلى قتل كمية لا بأس بها من مادة الدماغ . والموت الجماعي لخلايا الدماغ يحدث بصورة فسلجية أثناء خرف الشيخوخة ويحدث بعد صدمات وأذى شديد على المخ ، أو بضمور وموت الخلايا (على أثر التهابات السحايا والزهري) Dementia أو الأورام الدماغية التي تلتهم الخلايا الدماغية . وفقد الذاكرة الهستيري أو النسيان الاكتئابي أو التنويم المغناطيسي ما هو إلا إغفال لا شعوري لنوع معين من الذكريات المؤلمة أو المكروهة . وبالامكان أن تعود إلى عنفوانها وقوتها السابقة في الوقت الملائم أو بالعلاج النفسي وما النوبات العصبية التي كانت تعاود القديس بولس كما يقول الباحثون إلا بسبب عقدته الأولية ضد المسيحية التي لجأت إلى

بالتفاؤل ، فإن التأثير السيكولوجي وغسل الدماغ بالاقناع سيكون اسلوباً عتيقاً بالياً ، لان العلم سيتقدم في فروع الكيمياء الحياتية والعضوية ، وسيكون بالاستطاعة توجيه وإدارة عمليات الدماغ بالوسائل الكيميائية والعقاقير . فإذا ما تجاوزنا عام الألفين الميلادية ، فإن علم الكهرباء الألكتروني سيمكننا نحن البشر من السيطرة على تكفيرنا بالاشعاعات .. ومن يدري ؟ ألا يسيطر البشر على الطائرات والصواريخ وآلات أخرى بالتوجيه الألكتروني ؟. إذن يمكن أن نفترض توجيه الدماغ كذلك .

لقد استطاع العلم الألكتروني الآن ان يفقد الانسان شعوره بالتوازن ، واستطاع أن يجعل الحيوان يشعر بالجوع بالرغم من امتلاء معدته بالطعام !.. وأن يجعله يرتعش من الخوف وذلك بغرس نهايات كهربائية - ألكترونية في مراكز معينة من المخ فترسل موجات خاصة محفّزة أو مثبطة ، واستطاع ان يثير حوافز جنسية ، ودوافع عدوانية شرسة أو نزعات إستسلامية - خضوعية ، وشعوراً بالجوع والعطش رغم عدم حاجة الجسم إلى الطعام والماء..!! . إن مجموع ما يدور على المخ البشري (والحيواني) من تجارب مختلفة تدعو لتفاؤل الخيّرين لأنها الوسيلة العلمية الى معرفة النفس البشرية وتفسير السلوك وعظمة الخالق .

قليل من الخيال ، وشيء من العلم .. يفتح أمامنا افتراضات عديدة وآفاقاً شاسعة عن مستقبل مذهل للعقل والانسان . ولم يخن خيال (هكسلي) أو يخذله عندما تصور « عالماً طريفاً » بماديته وآليته وطعامه الذري وتناسله الميكانيكي(١٤٩). أما المهندس الالكتروني (كورتيس شافر) فقد صرح في سنة ١٩٥٦ ، وكان يستند على كثير من العلم وقليل من الخيال في هذه المرة ، صرّح يقول : « ان مستقبل علم الالكترونيات العضوية هو السيطرة على الانسان نفسه . ويستطيع الجراح بعد ولادة الطفل بأشهر أن يضع تحت فروة الرأس جهازاً صغيراً تغرس فيه نهايات سلكية تمتد الى أقسام معينة من الدماغ . وبهذا الجهاز يمكن توجيه وتبديل إحساس الطفل بالأشياء ورد فعله لها ونشاطه العضلي تجاهها . فإذا ما أرسلت إشارات خاصة من محطة بعيدة الى دماغ هذا الفرد ، راح يتصرف كالآلة الموجهة .. » . وما توصل اليه العلم الحديث من أخطر اكتشاف وهو كيفية صنع مادة (حامض ديزوكسي نيوكليك) التي هي عماد مادة الكروموسومات والجينات وصلب لغز الحياة ومعادلاتها ومخبأ للايعازات والرموز والتنظيمات الوراثية للفرد .. صنع هذه المادة كيماوياً وقابليتها على طاقات الحياة ، فتحت للعلماء باباً عريضاً ودرباً جديداً يأملون عنه التدخل في تحوير الصفات الموروثة ، ومنها الأمراض والعاهات المزمنة ، أو لمنع السرطان ، أو التدخل في تقرير صفة جنس المولود ذكراً أم أنثى ، أو لتحويل لون العيون من أزرق إلى أسود إلى زمردي ، وكذا لون الشعر .. الخ .

---

(١٤٩) الدوس هكسلي ، (العالم الطريف) ، دار الكاتب المصري .

إن الشيء القبيح والمزري في كل عملية لتبديل الاتجاهات منذ غابر العصور وحتى الآن كان (الاستغلال الخبيث) ..، كاستغلال الذكي الماكر لأفراد عصابته الأغبياء[١٥١]، واستغلال المستعمر للبشر واحتلاله للأراضي التي لا حق له فيها ..، وكاستخدام القسوة والتعذيب في المعتقلات لتفتيت مقاومة الثائرين والفدائيين في حروب التحرير ..، أو كتسخير الأغلبية لخدمة الأقلية..، أو كتسخير العقل البشري كآلة الكترونية ..، كل ذلك هو من مخاطر التحوير الفكري الذي يجب أن نحاربه . إن المبررات الأخلاقية والإنسانية للاحتفالات والدعوات المبدئية والمذهبية ، والمناقشات والاقناعات والاعلامات الاصلاحية والتحررية والقومية هي أنشطة مسلَّم بها جميعها طالما كانت بريئة من الاستغلال والمنفعة الخاصة ، أو كما يقول الدوس هكسلي : « .. طالما كانت مناقشاتنا نحن وشعائرنا نحن واستعراضاتنا نحن » . أو بالاحرى ، طالما كانت تلك الاحتفالات والتوجيهات ترمي إلى إسعاد البشر وتحرير الانسان من الخوف .. والمجاعة .. والمرض .. والجهل .. والاستغلال ، وطالما كانت نابعة من ظروفه وتهدف خدمته وحده .

فأين نجد مناراً وملجأ وركناً وسنداً لتحرير الانسان من استغلال أخيه الانسان ؟ إن الإجابة على ذلك يتلخص في كلمة واحدة هي : « الانسان » بذاته .. الانسان بأخلاقه وإيمانه .. بكرامته ووجوده وانسانيته ..، الانسان بتطلعه إلى مستقبل أفضل وعالم أزهر ..، الانسان بكل صفاته الانسانية الراقية .. الانسان هو العلاج الوحيد والوقاء السميك والدرع المتين ضد عملية غسل الدماغ الخبيثة . فاعلاء شأن الانسانية بكل جنباتها الطيبة ..، واحترام الانسان كما هو ..، وتحقيق عدالة اجتماعية تامة .. والقضاء على شرور وبوادر الغدر والظلم البشري من استغلال إنسان لآخر أو دولة لأخرى ..، هذه المبادىء العامة الطيبة المستساغة هي الكفيلة بتحرير العقل البشري من الطامعين فيه ، لأن الانسان أعلى قيمة في الحياة .

(١٥١) MEERLO, Smicide and Mass Smicide, 93.

١٧ ـ أنيس صايغ ، (لبنان الطائفي) ، دار الصراع الفكري ـ بيروت ، ١٩٥٥ .
١٨ ـ ارسكين تشايلدرز (الحقيقة عن العالم العربي) ، تعريب خيري حماد ، بيروت ، ١٩٦٠ .
١٩ ـ ارنولد توينبي ، (من النيجر الى النيل) ، دار الآداب ـ بيروت ، ١٩٦٨ .
٢٠ ـ أمير اسكندر (الحرب العالمية الثالثة في ساحة الاعلام) ، جريدة الثورة ـ بغداد ، ١٩٧٨/٨/٨ .
٢١ ـ أياد القزاز ، (كيف يرى الطلبة الأمريكيون العرب من خلال كتبهم) ، العربي الكويتية ، تشرين أول ، ١٩٧٥ .
٢٢ ـ توماس ارنولد ، (تراث الاسلام) ، جزء ١ و٢ ، تعريب لجنة الجامعيين للنشر ، ١٩٣٦ .
٢٣ ـ جاك دومال وماري لوروا ، (جمال عبد الناصر ، من الفالوجة الى الاستقالة المستحيلة) ، ترجمة ريمون نشاطي ، دار الآداب ـ بيروت ، ١٩٦٨ .
٢٤ ـ الجاحظ (البيان والتبيين) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة . ١٩٤٨ .
٢٥ ـ جوردن البورت وليوبوشمان ، (سيكولوجية الاشاعة) ، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل ، منشورات جماعة علم النفس التكاملي ـ القاهرة ، ١٩٦٤ .
٢٦ ـ جود ، (منازع الفكر الحديث) ، ترجمة عباس فضلي خماس ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ، ١٩٥٦ .
٢٧ ـ حبيب قهوجي ، (العرب في ظل الاحتلال الاسرائيلي منذ ١٩٤٨) ، مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٧٢ .
٢٨ ـ حامد ربيع ، (الحرب النفسية) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت .
٢٩ ـ حامد عبد السلام زهران ، (علم النفس الاجتماعي) ، عالم الكتب ـ القاهرة ، ١٩٧٤ .
٣٠ ـ حامد محمود ، (الدعاية الصهيونية ، وسائلها .. وأساليبها) ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٦ .
٣١ ـ حسن ابراهيم حسن ، (تاريخ الدولة الفاطمية) ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ .
٣٢ ـ زاهية قدورة ، (الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي) ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ، ١٩٧٢ .
٣٣ ـ ستيفن ايزاكس ، (اليهود والسياسة الأمريكية) ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، دار الاتحاد ـ بيروت ، ١٩٧٦ .

٥٣ ـ محمد جواد مغنية ، (الشيعة والحاكمون) ، المكتبة الأهلية ـ بيروت ، ١٩٦٣ .
٥٤ ـ محمد عبد الله عنان ، (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) ، مطبعة مصر ـ القاهرة ، ١٩٤٩ .
٥٥ ـ محمد عبد الله عنان ، (الالخميادو) ، العربي الكويتية ، العدد ٢٤٣ ، ١٩٧٩ .
٥٦ ـ محمد كامل حسن ، (طائفة الاسماعيلية) ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .
٥٧ ـ مركز دراسات الخليج ، (امكانات دول الخليج العربي في التنمية ودعم الاقتصاد العربي) ، مطبعة الارشاد ـ بغداد ، ١٩٧٥ .
٥٨ ـ مختار التهامي ، (الرأي العام والحرب النفسية) دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧ .
٥٩ ـ مصطفى الخالدي وعمر فروخ ، (التبشير والاستعمار في البلاد العربية) ، المكتبة العصرية ـ بيروت ، ١٩٦٤ .
٦٠ ـ مصطفى الشكعة ، (اسلام بلا مذاهب) ، دار القلم ، ١٩٦١ .
٦١ ـ محمد البهي ، (الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) ، مكتبة وهبه ، ط ٤ ، ١٩٦٤ .
٦٢ ـ ول ديورات ، (قصة الحضارة) ، ترجمة محمد بدران ، ـ القاهرة ، جزء ٢ ، جامعة الدول العربية .

ب - المراجع الأجنبية

63. Anastasi, A. (1976). Psychological testing, N.Y.

64. Anastasi, Anne; (1960) "Psychological Testing". The MacMillan Co., N. Y.

65. Ambrose, G. S. & Newbold, G.; (1956). "A hand-book of medical Hypnosis". Bailliere, Tindall & Cox, London.

66. Benedict, Ruth (1957) "Patterns of Culture" Mentor Book, N. Y.

67. Brodie, F. M.; (1960). "No Man knows my life – History of Joseph Smith". N. Y.

68. Brown, J. A. C.; (1963). "Techniques Of Persuation". Pelican.

69. Brown, J. A. C.; (1964). "The Social Psychology of Industry". Pelican.

70. Churchill, S. R. & Winston S. Churchill; (1967). "The Six Days' War." Heinman Book, London.

89. Hunter, M. L.; (1961). "Memory". Pelican.

90. Huxley, Aldous; (1961). "The Devils of Loudin". Chatto & Windus London.

91. Huxley, A.; (1948). "Brave New World".

92. Huxley, A.; (1960). "The Doors of Perception". Penguins.

93. Ivanov, N. V.; (1967). "A soviet view of Psychotherapy", Intern. J. of Psychiat. Vol. II, No. 2, 201-228.

94. James, William; (1958). "The Varieties of Religious Experiences". A Mentor Book.

95. Kalinowsky, L. B.; (1961) "Somatic Treatment in Psychiatry". Grune & Stretton, N. Y.

96. Kouretas, D.; (1967). "The Oracle of Trophanius". Brit. J. of Psychiat., 113, P. 1441.

97. Kozol, Jonathan; (1967). "Death at an Early Age". Penguins.

98. Lubbock, Sir John; (19...). "The Confessions of Saint Augustine". George Routledge and Sons, London.

99. Marcuse, F. L.; (1959). "Hypnosis, Fact & Fiction". A Pelican.

100. Meerlo, J.; (1962). "Suicide & Mass Suicide". Grune & Stratton, N. Y.

101. Okasa, A.; (1966). "A Cultural psychiatric study of El-Zar in U.A.R.". Brit. J. of Psychiat., 112, 1217.

102. Packard, Vance; (1961). "The Hidden Persuaders". Penguin Special.

103. Pennethorne, H.; (1956). "Witchcraft". A Polican.

104. Sargant, William; (1959). "Battle for the Mind". Heinman, London.

105. Sargant W.; (1967). "Witch Doctors, Zar & Voodoo". Proc. of Roval Soc. of Med., 60, 1055-1060.

106. Seymour, M., & Farber et Al; (1691). "Control of the Mind". McCrew Hill, N. Y.

122. Sargant, W. (1973). "The Mind Possessed". London: Heinman.

123. Time, (1968). "Sects, Snake Power". November 3,35.

124. Terrence Pittie, Walter Nelson (1977). "The Economic War against the Jews".

125. Young, J. Z. (1978). "Programs of the Brain". Oxford U. P.

فهـــرس

دراسـات نفسـيّة

من

منشورات دار الطليعـة

مؤلفات سيغموند فرويد

- مدخل الى التحليل النفسي
- نظرية الاحلام
- النظرية العامة للامراض العصابية
- محاضرات جديدة في التحليل النفسي
- ثلاثة مباحث في نظرية الجنس
- خمسة دروس في التحليل النفسي (طبعة ثانية)
- مختصر التحليل النفسي
- علم النفس الجمعي وتحليل الانا
- علم ما وراء النفس
- الحلم وتأويله (طبعة ثالثة)
- مستقبل وهم (طبعة ثالثة)
- قلق في الحضارة (طبعة ثانية)
- التحليل النفسي والفن (طبعة ثالثة)
- الهذيان والاحلام في الفن (طبعة ثانية)
- ابليس في التحليل النفسي
- أفكار لازمنة الحرب والموت (طبعة ثانية)
- مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي
- موسى والتوحيد (طبعة ثالثة)
- التحليل النفسي للهستيريا : حالة دورا
- حياتي والتحليل النفسي
- مسائل في مزاولة التحليل النفسي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] [illegible]
[illegible]